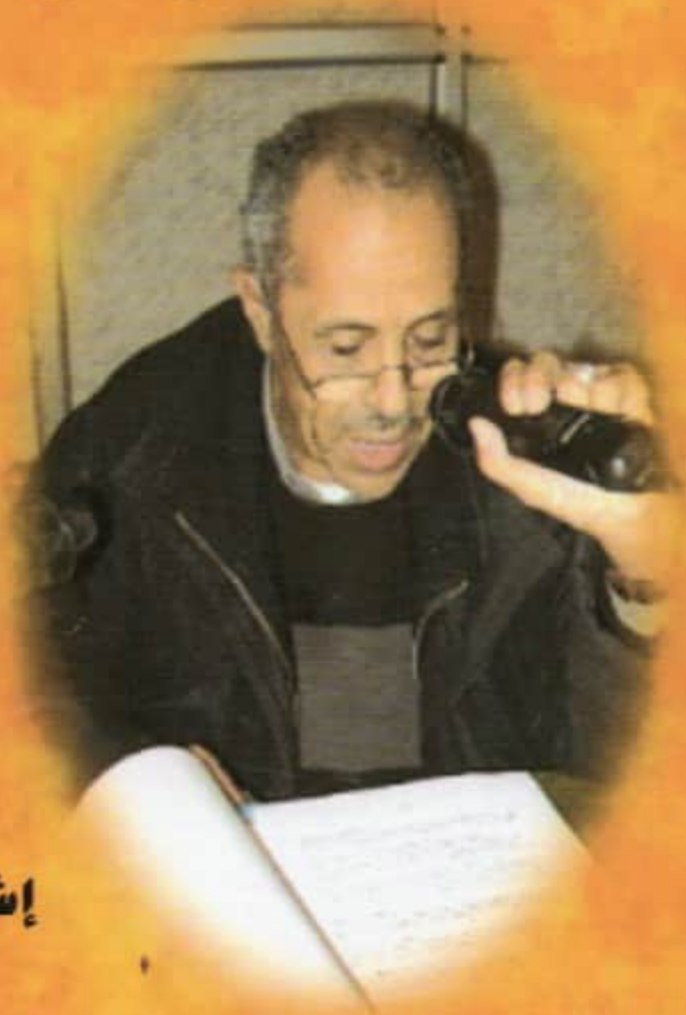


منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة منتوري قسنطينة

دراسات وبحوث مغربية

أعمال مهداة إلى الأستاذ الدكتور موسى لقبال

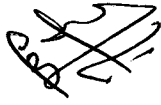
إعداد وتنسيق :
د. إسماعيل سامعي
د. عمارة علاوة



إشراف : أ. د. بوبة مجاني

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع

المقدرب
12,64
فستو التاريخ بالسنة الجامعية
2008/6/30
من البانكة التكر
2008-2009
علي
الرجاء لمحافظة
بويندي قتا
مصابحه هاشو
كتاب



دراسات

وبحوث مغربية

منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي

جامعة منتوري قسنطينة

دراسات وبحوث مغربية

أعمال مهداة إلى الأستاذ الدكتور موسى لقبال

• إعداد وتنسيق: د. اسماعيل سامعي

د. عمارة علاوة

• إشراف: أ. د. بوبة مجاني

2008

دراسات وبحوث مغربية

أعمال مهداة إلى الأستاذ الدكتور موسى لقبال

• إعداد وتنسيق: د. اسماعيل سامعي

د. عمارة علاوة

• إشراف: أ. د. بوبه مجاني

الطبعة الأولى، 2008م

العنوان: حي النخيل فيلا 55 عين الباي-قسنطينة-الجزائر

ص.ب 288 الدقسي-قسنطينة 25001-الجزائر

هاتف/فاكس: 00 213 31.97.23.39

المحمول: 00 213 70.96.64.46

البريد الإلكتروني: bahaedition@caramail.com

ردمك: ISBN : 978-9961-948-24-8

الإيداع القانوني: Dépôt légal : 2007-4845

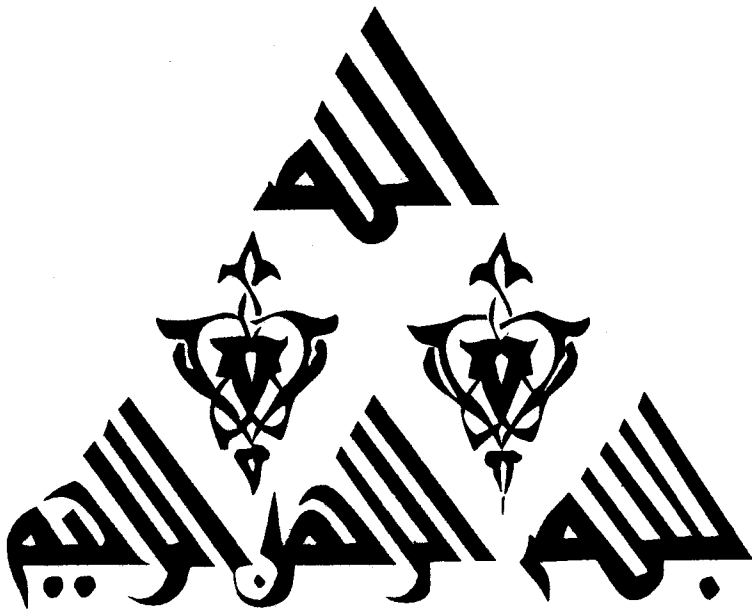
غلاف: دار بهاء الدين

الحجم: 24x16

عدد الصفحات:



دار بهاء الدين للنشر والتوزيع



الإهداء

إلى شيخ المؤمنين، آية تقدير ممن تتلمذوا على يد شيخ
على منهج مدرسة الأسلاف في حله العلم ونقله طرسه.

كلمة مديرة المخبر

لقد أراد أصحاب الأعمال والدراسات التي يضمها هذا الكتاب أن تكون اجلا لا صادقا وتعبيرا عن اعتزازهم بتتلمذهم على يدي شيخ مدرسة التاريخ الإسلامي في الجامعات الجزائرية، الأستاذ الدكتور موسى لقبال، كما أنه اعترف وتقدير للمجهودات التي بذها ولا يزال باحثا منقبا وكاتبا مما جعله يقف على قمة المجد العلمي ويؤسس لمدرسة تاريخية باحثوها الذين علمهم طرائق وقواعد البحث التاريخي الأكاديمي، يشكلون الآن هيئة التدريس في مختلف جامعات الوطن.

لقد جمع الدكتور لقبال مشيخة علوم و فنون شتى، فصيح اللسان وقلم في المنقول المعقول. أحب التاريخ والتمس فيه الحكمة، وهي الغاية الأسمى من كتابته فاحترفها واتخذها صنعة، على حد قول عبد الرحمن بن خلدون.

إن مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، بجامعة منتوري قسنطينة الذي أراد أن يفوز بشرف هذا التكريم، لا يسعه إلا أن يجزل آيات الشكر والامتنان للسادة الأساتذة الباحثين الذين لبوا دعوة المشاركة فأسهموا بقتالاتهم ودراساتهم هذه، جزاهم الله كل خير .

والحمد لله أولا و آخرأ.

قسنطينة في 2008/02/02

مديرة المخبر

أ.د/ بوبة مجاني

تقديم

همسة وفاء للأستاذ موسى لقبال وتلاميذه

أ.د عبد الله بوخلخال

رئيس جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية - بقسنطينة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، والحمد لله تعالى على عظيم فضله وجزيل عطائه، حيث أهدم نخبة من أبناء الجزائر البررة على القيام بهذه المبادرة الطيبة، في حق أستاذ عظيم ومربي جليل الأستاذ الدكتور موسى لقبال أستاذ الجليل.

إن هذا الأستاذ الذي عرفناه منذ نعومة أظفارنا مدرسا يغمر طلبته بالعلم الغزير والعطف الوفير والرعاية الشاملة والدقة الوافية، حيث كان لا ييخل على طلبته بآرائه وإرشاداته وتوجيهاته واستدراكاته العلمية والمنهجية والشكلية واللغوية، بأسلوب دقيق وعبارات مقنعة وكان دائما يعطي طلبته ما يحتاجون إليه من وقته رغم كثرة مشاغله وعظم أعبائه فجزاه الله عن الجميع خير الجزاء .

إما هؤلاء الذين كانوا وراء هذه المبادرة الطيبة وهذا العمل العلمي الرائع فنوفيههم حقهم من الشكر والتقدير وهم: عبد العزيز فيلاي، ومحمد الصغير غانم، الدراجي بوزياني، السعدي شخوم، محمد بن عميرة، موسى هيصام، بوبة مجاني، إسماعيل سامعي، إبراهيم بحاز، محمد الأمين بلغيث، علاوة عمارة، عاشور قمعون، رشيد باقة، فأشكرهم الشكر الجزيل على هذا التكريم القيم والوفاء الدائم للأستاذ الفاضل موسى لقبال من خلال هذه البحوث المتنوعة في التاريخ القديم والوسيط والحديث بمعناه الحضاري الواسع .

أما أنا وإن كنت لست من استاذة التاريخ وطلبة الاستاذ موسى لقبال في هذا الاختصاص الأكاديمي، فإنني من محبي البحث فيه والتاريخ مهما كانت مصادره واتجاهاته لمكانته القيمة في تشكيل ذاكرة الأمة والحفاظ على كيانها من الذوبان في تواريخ أمم أخرى، ومن هذا الجانب كانت علاقتي بالأستاذ موسى لقبال منذ كان عميدا لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة قسنطينة سنة 1967/1968، ونحن طلبة مبتدئين في قسم اللغة العربية وآدابها.

- عرفته أستاذا حازما صارما، ورائدا من رواد الثقافة العربية الإسلامية.
- عرفته وطنيا حتى النخاع في هدوئه وعقلانيته في البحث عن التراث العربي الإسلامي.
- عرفته مناضلا لايهادن أو يجامل من أجل تعميم استعمال اللغة العربية في التدريس والإدارة والتعامل اليومي باعتبارها الأداة الأولى والوعاء الذي استوعب التاريخ والحضارة العربية الإسلامية منذ أزيد من خمسة عشر قرنا في أي مكان وزمان وخاصة في البرلمان أيام كان نائبا عن دائرة بركة ولاية باتنة.
- عرفته باحثا قديرا ومؤرخا لامعا دقيقا من خلال بحوثه العلمية القيمة، في التأليف والتدريس والتأطير لعشرات البحوث والرسائل، وحضوره المتميز في المؤتمرات والملتقيات في جل الجامعات الجزائرية والعربية.

فالأستاذ موسى لقبال هو خلاصة ستين سنة من العطاء المتميز فهو مدرسة متميزة علما وتعلما وتوجيها، وتسييرا ونضالا متواصلا منذ عرفناه من الستينات مدافعا عن الانتماء الحضاري والثقافي للجزائر.

أني مهما حاولت أن أوفي الأستاذ موسى حقه في مسيرة ستين سنة من العطاء الوفير فلن أستطيع ذلك وأبقي أشعر بثقل العبء أمام نضال طويل في خدمة هذه الأمة الجزائرية والأجيال المتلاحقة، وسعادي تكمن في مبادرة هؤلاء الأستاذة الباحثين الأوفياء للأستاذ موسى وتمكن أيضا قراءة هذه البحوث القيمة

التي أحتضنها هذا العمل المتميز المتنوع في التاريخ والفكر والحضارة والفقه
والشريعة.... إلخ، هذه البحوث المهداة إلى الدكتور موسى لقبال أستاذ الجيل،
أطال الله في عمره ونفع الجميع بعلمه.

والحمد لله رب العالمين.

قسنطينة في 12 جانفي 2008

كلمة لمسيرة سبعين سنة

أ. د/ موسى لقبال

تقديم

نقدم فيما يأتي السيرة الذاتية، والعلمية لمسيرة سبعين سنة للأستاذ الدكتور موسى لقبال، وقد فضلنا — نحن الذين أشرفنا على إعداد هذا الكتاب التكريمي المهدى إلى الأستاذ — أن تكون هذه المسيرة بقلم صاحبها لأنه خير من يعبر عنها، ويكتب فيها، لتكون ترجمة حقيقية، وصادقة، ودقيقة، ومرجعا لمن يريد دراسة أعمال الأستاذ الدكتور موسى لقبال، وتعميق البحث في الموضوعات التاريخية التي بحثها، والسيرة تضم قسمين: الأول هو كلمة لمسيرة سبعين سنة، والثاني سيرة علمية مركزة.

الكلمة

في قرية متواضعة من قرى دائرة باتنة القديمة تسمى بريكّة، الواقعة بجوار طنبّة التاريخية، ولدت في سنة 1934 ونشأت وترعرعت في أسرة فقيرة عائلها عامل يومي، لذلك كان الفقر المدفع الطابع العام لحياة أسرتي مع ذلك أدخلتني الكتاب لحفظ القرآن، ولما أبلغ السادسة من عمري تولى رعايتي وإقراي الطالب/ سي الطاهر بن الحاجل الجمعي، أولا، ثم انتقلت إلى مجموعة الشيوخ : هم سي الأخضر بن الشيخ بن أحمد وسي الدراجي، وسي الصديق، وقد أكملت حفظ القرآن في قرية مشونش بالأوراس على يد الشيخ أبو بكر العقبي، وتزاملت في الدراسة في مشونش مع سي محمد مهري أصيل المنطقة والحامي في المدينة، ومع المجاهد المرحوم عباس عبد الكريم، وفي مشونش كنا نلتقي بالسيد أحمد بن عبد الرزاق، وهو العقيد الحواس فيما بعد، قائد الولاية السادسة. وكان يرشدنا، ويحتفي بنا وعرف بقلة الكلام

وقلة المخالطة، أما سبب انتقالني إلى مشونش، فهو راجع لانتقال شياخي من إدارة مدرسة بريكة إلى إدارة مدرسة مشونش حيث كان يرعاني لتفوقي في الدراسة الابتدائية، ونجاحي باستمرار كأول الناجحين وشياخي هو عيسى يحياوي الدراجي، أبو العقيد محمد الصالح يحياوي، عضو في مجلس الثورة سابقا ومدير أكاديمية شرشال سابقا. وقرية بريكة في العهد الاستعماري الذي عشناه، كانت حوزا ممتزجا (commune mixte) تتبعه قيادات وبشاغوات أظهرهم : آل السقاي، وآل بعطوش.

ومدسة بريكة التي زاولت فيها تعليمي الابتدائي، تتبع التعليم الحر الذي كانت تشرف عليه جمعية العلماء، مثلها مثل مدرسة مشونش وعندما أكملت الدراسة الابتدائية، نصحتني شياخي عيسى يحياوي بالتوجه إلى الزاوية الرحمانية بطولقة (سيد علي بن عمر) لأكمل دراستي في العلوم اللغوية والشرعية عند الشيخ محمد الدراجي، فكان الأم كذلك حيث قضيت عدة أشهر في الدراسة، ثم تابعت المسيرة في زاوية بلحملاوي بالتلاغمة حيث درسنا على الشيخ علي الأشل قطر الندى في النحو، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني في الفقه.

وبعد ذلك : مارست تعليم القرآن في عين عبيد عند آل قروج، ثم في تاملوكة عند الحواوسة، وهم ملاك كبار. و في 1951 انتقلت إلى نفطة بالجريد التونسي حيث نزلت في زاوية ابن عزوز البرجي الجزائري، تابعت دراستي على شيوخ أجلاء مثل: الشيخ بن احمد، والتابعي بلوادي، والشيخ الطاهر.

ثم دخلت بعد ذلك إلى الفرع الزيتوني بتوزر، ويسمى جامع الفركوس، وهو تابع لمشيخة الجامع الأعظم وفروعه بتونس، حيث نلت في 53-54، شهادة الأهلية بامتياز وبجائزة وبتوصية أعضاء اللجنة بأن أكفل في جمعية الهداية بتونس، حيث كانت تقدم لنا وجبة غذاء بسيطة. وكان يرأس هذه الجمعية، الشيخ الزغواني من شيوخ

الزيتونة الكبار، وقد درست على مجموعة من الشيوخ مثل : محمد علي سهيل،
والعروسي المطوي، وأحمد بن ميلاد، وزمزم وآخرين.

وفي تونس العاصمة، وبعد ثلاث سنوات، أحرزت على شهادة التحصيل سنة
1957م بامتياز، وبجائزة الرئيس بورقيبة رحمه الله وكانت عبارة عن مجموعة كتب
تاريخية، ونقود قدمها لي نيابة عنه الشيخ العربي العنابي مدير معهد ابن خلدون، وموقعه
الآن بكلية الآداب بتونس.

وبسبب حصولي على الامتياز، قبلت في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم
التاريخ - حيث حصلت على الليسانس 1961 بعد أربع سنوات وقد سهل لي مهمة
السفر إلى القاهرة السيدان : الرائد قاسي مسؤول قاعدة تونس، ونائبه محمد قادري
رحمه الله، وأمدني والذي بمبلغ مالي استعنت به على السفر، بعد أن باع متزلا، وكان
عمر الحاج الروبي يسندي كثيرا.

وأثناء إقامتنا بتونس من 55-57 كنت منخرطا في جمعية الطلبة الجزائريين عضوا
عاملا.. وكانت تابعة لجهة التحرير الوطني... وكان يرأسها : السيد/ جندي خليفة
ويساعده عيسى مسعودي، ورشيد سحري رحمهم الله، وكان معهم أيضا عند تجديد
مكتبة الجمعية: يحي بوعزيز، وصالح خرفي وغيرهم رحمهم الله.

وفي تونس لم يكن لنا أية مساعدة. نحن الذين نتبع نظام الولاية الأولى أما الطلبة
لتابعون الولاية الثالثة، فكان لهم مطعم خاص أنشأه لهم العقيد عميروش رحمه الله من
ميزانية الولاية .

أما في مصر فكانت لنا منحة من الجبهة، وتكملة من الحكومة المصرية طيلة أربع
سنوات من عمر درجة الليسانس في التاريخ عام 1961، ومما يجدر ذكره هنا، أنني بعد
حصولي على شهادة التحصيل، طلبت بواسطة المجاهد/ الحاج الخير أصيل مقرة،

ورئيس اتحادية بركة لحزب جبهة التحرير، وشيخ بلدية مقرة فيما بعد أن ألتجند في الثورة المسلحة، فكان الرد إننا نحتاجكم كإطارات في المستقبل، لدولة الجزائر المستقلة، وفي مصر كنا ننشط كأعضاء جامعيين في إطار الاتحاد العام للطلبة الجزائريين (U G E N A) التابع لجبهة التحرير الوطني.. فرع القاهرة شارع بنك مصر. وتولى على رئاسة هذا الفرع جماعة أذكر منهم السيد عيسى بوضياف، وآخر أصبح فيما بعد مدير في جريدة الشعب في عهد الرئيس ابن بلة، نسيت اسمه رحمه الله، وأظنه علي مفتاحي.

وفي مقر الفرع، كنا نجتمع في المناسبات، وتأخذ المنحة عند كل شهر ونحرر في الجريدة الحائطية.. وكان لي إسهام عنوانه: يومان في تاريخ الجزائر 01 نوفمبر 54، و05 جويلية 1830، كما ساهمت بحصص في صوت العرب سمع بعضها في بركة . وكانت لنا نشاطات أخرى مثل الرحلات إلى سوريا عام الوحدة 1958 وإلى أسوان والإسكندرية برعاية نادي الطلبة الشرقيين - بشارع القصر العيني بحيث كنا محل رعاية جبهة التحرير الوطني طيلة سنوات الدراسة (57-61) وكان يزورنا فرع الطلبة وبعض قادة الثورة أذكر منهم العقيدان:

أوعمران، وكريم بلقاسم... وكذلك الأستاذ توفيق المدني الذي أدار مكتب المغرب العربي فترة

واحتفظ بذكرى أستاذتي في مصر: د. شعيرة ود ماجد، ود. حسن محمود، ود. سعيد عاشور، و د. محمد انيس ود. فخري، ود. زكي علي غيرهم.

أما مشاركتنا في الثورة فكانت عبر المنظمة المدينة، أي في الاتحاد العام للطلبة الجزائريين (UGEMA)

أما بعد الاستقلال.... فانخرطت في العمل التربوي أستاذا للتاريخ في المدرسة الفرنسية الإسلامية ابن عكنون (عمارة رشيد الآن) منذ أكتوبر 1962 إلى 1966،

حيث عينت رسميا في كلية الآداب بقسنطينة، وقضيت سنة دراسية مدرسا، ومسيرا تحت مسؤولية د. كليوة حمزة مدير المركز الجامعي.

وعندما أسس قسم التاريخ بالعربية 1967 أرجعوني إلى الجزائر أستاذا مساعدا حيث بقيت إلى الآن..... لم أغب عنده إلا مرتين الأولى، عندما انتخبت نائبا وطنيا عن دائرة بركة 77-1982، وكان يشاركني في العمل د. سعد الله، بلحميسي، و د. حاجيات، ود. دهنه، وبوروية.

وبجانب التدريس الجامعي كانت لي عدة نشاطات:

أ- محاضرات في بعض محافظات حزب جبهة التحرير الوطني كتاهرت ووهران.... وباتنة، وهنا رردت على أ. مصطفى الأشرف في إدعاءاته.

ب- محاضرات في أكاديمية شرشال العسكرية تحت إشراف المحافظة السياسية، عهد الهاشمي هجرس، وعلاق.

ج- إعداد خلاصة تاريخية موجهة عن الفترات التاريخية لفائدة طلاب الخدمة الوطنية في التوجيه المعنوي، المحافظة السياسية للجيش الوطني الشعبي

د- قدمت تصورا شاملا عند كيفية إقامة متحف الجيش، قبيل إنشائه مساهمة مع غيري- كان ذلك في عهد العقيد علاق والعربي لحسن .

هـ- مساعدة بعض الضباط الدارسين سواء من الأكاديمية، أو المحافظ السياسية، مثل محمد رمضاني، وموسى زغلاش، و فوخال وغيرهم

و- برنامج تلفزيوني على مدار سنة كاملة بعنوان: الجزائر وماضيها سنة 1967 وتنشيط الهادي حمدادو سفير سابق.

ز- فضلا عن أحاديث عن التاريخ الوطني، وأحاديث أخرى دينية بمناسبة رمضان
باشراف : وزارة الشؤون الدينية.

ح- ولقد اشتركت في بعض ملتقيات الفكر الإسلامي، خاصة في باتنة...أما في تيزي
وزو فلم أتمكن من الحضور لأنني كنت منهمكا في تحرير رسالة الدكتوراه في
القاهرة.

ي- كما كنت أول من حرر عدة مقالات في مجلة الأصالة وحوليات جامعة الجزائر،
ومجلة المؤرخ العربي-بغداد، ومجلة كلية الآداب.

ك- ومنذ فجر الاستقلال كنت أحد المساهمين في إعداد برامج التاريخ والجغرافية
بالعربية ودرستهما في ثانوية عمارة رشيد أربع سنوات، وكان لي شرف التدريس
لطلبة أصبحوا إطارات عليا في الدولة ووزراء و سفراء، ومدراء وأطباء.

- كما كنت مساهما في إعداد برامج التاريخ في كلية الآداب جامعة الجزائر، ولقد
وضعت في إطار مسؤوليتي على البحث العلمي، منهاجا للدراسة تمثل في مرحلة
المنهجية، تليها مرحلة ديبلوم الدراسات المعمقة.

- وكنت أحد المساهمين في نشاط المركز الوطني للدراسات التاريخية التابع للرئاسة:
بإدارة محمد طوبلي.

- و في إطار حزب جبهة التحرير الوطني الذي انتميت إليه في السبعينات كمناضل
في قسمة بركة في إحدى خلاياها.

كما كنت عضو لجنة الفكر والثقافة... ثم عضو اللجنة الوطنية للتعريب... وساهمت
في مؤتمرها في قصر الأمم، برئاسة الرئيس الراحل هواري بومدين.

واشتركت في المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني بعد وفاة الرئيس بومدين 1979، بصفتي نائبا وطنيا.

وباسم الجزائر أسهمت في تأسيس اتحاد المؤرخين العرب في بغداد 1974 وأصبحت عضو المكتب الدائم فيه لمدة عشر سنوات.

ولقد استدعيت أستاذا زائرا للإمارات العربية المتحدة 1978 حيث أقيمت عدة محاضرات في قصر الحصن بأبوظبي، والشارقة، والعين.

وشاركت في ملتقيات في تونس، والقيروان، والمهدية، والمنستير، وقفصة، وفي الجزائر ساهمت في عدة ملتقيات وطنية ودولية وجهوية حول سيدي عقبة، والحياة الثقافية في ندرومة، وقلعة بني حماد وغيرها.

وقد كرمت من عدة جهات رسمية وطنية وجهوية، أبرزها وسام المؤرخ العربي وشهادة التقدير من الرئيس الشاذلي بن جديد، الأمين العام للحزب

وساهمت بالنقاش عندما طرح مشروع الميثاق، كما كانت لي مبادرة تاريخية مع زملائي في المجلس الشعبي الوطني لنقرأ الدستور قراءة فاحصة، وغلا الفراغات فيه لكن حدد لنا مجال لا نتعداه، وقد ناقشنا بإفاضة في إطار المجلس الشعبي الوطني مشروعين: قانون العامل، و قانون الأسرة وكان لي دور من خلال اللجنة المختصة في إثراء المشروع حسب الشريعة الإسلامية خاصة في موضوع الميراث الذي أعرفه جيدا، وتعاونت في هذا الباب مع الشيخ عويسي المشري مستشار وزير العدل آنذاك بوعلام باقي.

أما ما قدمته لدائرتي الانتخابية بريقة فيتمثل في الآتي:

1- استقدام شركة الجنوب SOREISUD

2- بناء الجسر الرابط بينها وبين باتنة، وكان آيلا للسقوط

3- ثانوية هي الأولى في الدائرة مع بعض التكميليات

4- مجمع سكني كامل بـ300 سكن على الطريق إلى باتنة

5- وحدات صناعية كالأجر والأقفال.

6- فندق طينة ذو الثلاث نجوم

7- مشروع سكة حديد تربط بين بركة بعين التوتة، وهو جاهز الآن للعمل

8- تنظيم المواصلات بين البلديات

9- فروع بلدية بركة في الأماكن البعيدة نسبيا

10- توصيل الكهرباء لبعض هذه الفروع

11- عناية خاصة بدوار أولاد عمار والعياضات... إلخ.

وقد ساعدني في نجاح المهمة وإلى باتنة الرائد نور الدين صحراوي، والسيد صالح قوجيل، خاصة في مشروع سكة حديد بركة بصفته وزيرا للنقل.

السيرة العلمية

أ.د موسى لقبال

أستاذ التاريخ الإسلامي و رئيس المجلس العلمي

معهد التاريخ - سابقا -

أستاذ التعليم العالي المتقاعد حاليا و المنسق السابق للماجستير المطبق الآن.

1. التدرج العلمي:

- درجة التحصيل في العلوم من الجامعة الزيتونة تونس 1957.
- درجة الليسانس في التاريخ جامعة القاهرة 1961.
- دبلوم الدراسات العليا في التاريخ D E S جامعة الجزائر 1966.
- ماجستير في التاريخ الإسلامي جامعة عين شمس 1968.
- دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي جامعة عين شمس 1972.

2. التدرج الوظيفي الجامعي:

- أستاذ مساعد من 1966-1969.
- أستاذ مكلف بالدروس من 1970-1972.
- أستاذ محاضر من 1972-1975.
- أستاذ مرسم من 1976.
- أستاذ كرسي رئيس وحدة بيداغوجية
- أستاذ مشارك منذ 1993 مشرف على الماجستير و الدكتوراه.
- أستاذ التعليم العالي المتقاعد منذ 2004.

- المنسق السابق لدراسة الماجستير في التاريخ الإسلامي (المطبقة حاليا) منذ السنة الجامعية 2003.

3. النشاط الإداري في الجامعة :

- رئيس قسم التاريخ — جامعة الجزائر — 1973-1976 .
- مسؤول البحث العلمي في دائرة العلوم الإجتماعية 1973-1976 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سابقا .
- رئيس المجلس العلمي لمعهد التاريخ 1988-1992 .
- عضو المجلس العلمي للجامعة 1988-1992 بصفته رئيسا للمجلس العلمي للمعهد.

4. النشاط السياسي و الثقافي الوطني:

- نائب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية من 1967.
- عضو مؤسس لإتحاد الكتاب الجزائريين
- عضو مؤسس لرابطة المؤرخين الجزائريين .
- عضو في اللجنة الوطنية للتعريب.
- عضو مؤسس لإتحاد المؤرخين العرب — بغداد 1974.
- عضو المكتب الدائم لإتحاد المؤرخين العرب ، 74 - 1984 على مدى 10 سنوات.
- نائب في المجلس الشعبي الوطني — الفترة التشريعية الأولى 77-
- 1982.
- حائز على شهادة التقدير في التاريخ بمناسبة الذكرى الـ 25 للاستقلال (أعلى درجة) .
- حائز على وسام المؤرخ العربي.

5. الأعمال العلمية :

- كتاب المغرب الإسلامي — ط 06/01/2005م.
- كتاب التيسير في أحكام التسعير — ط 04.
- كتاب الحسبة المذهبية — ط 02.
- كتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية — ط 02 تحت التنفيذ.
- كتاب عقبة بن نافع الفهري — ط 05 نافذة .
- كتاب ملحمة ابن عبد الله الإيكجاني — ط 01.
- كتاب ملحمة أبي الفضل جعفر بن فلاح — ط 01.
- كتاب الجزائر في التاريخ الإسلامي — ج 03 — ط 01 (بالإشتراك).

6. المقالات :

- على مدى أكثر من 40 سنة لا يمكن ذكر عناوينها لكنها موزعة على :
- المجاهد الثقافي — حزب جبهة التحرير .
- مجلة كلية الآداب — جامعة الجزائر — عدد 01 سنة 1976.
- مجلة تاريخ وحضارة المغرب — كلية الآداب تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية — كنت نائب الرئيس.
- مجلة الأصالة — وزارة الشؤون الدينية.
- مجلة الثقافة — وزارة الثقافة .
- مجلة حوليات جامعة الجزائر.
- مجلة المؤرخ العربي — بغداد.
- أعمال ملتقى ابن منظور قفصة تونس.
- أعمال ملتقى تاريخ المغرب 01 تونس.

- أعمال ملتقى الموسم الثقافي — أبو ظبي 1978.
- محاضرة في الدوحة — الأسبوع الثقافي الجزائري 1987.
- أعمال 03 ملتقيات حول تاريخ طبنة — بريكة.
- أصول الرباط الإسلامي — ملتقى محمد بن عزوز البرجي — بسكرة.
- ملامح مجتمع الرباط — الهامل — بوسعادة — المسيلة.
- الندوة المولدية — بالقيروان جويلية 1998 عن تحديات القرن 21م-1998-القيروان.
- الندوة المولدية — جويلية 1998 :التقدم في الفكر الإسلامي — تونس 2000.
- الندوة المولدية بالقيروان : الإجهاد في الإسلام-2000م القيروان.
- الأسطول الفاطمي و حركة الجهاد — ملتقى عن البحر جامعة الجزائر — نوفمبر 1998- فندق هيلتون الدولي.
- ملامح شخصية الأمير عبد القادر — ملتقى حول الأمير — الحامة الجزائر.
- عبد المؤمن بن علي — إتحاد المؤرخين.
- الشابية و دور القبائل — ملتقى العدواني- وادي سوف- الزقم.
- ملتقى حول تاريخ ندرومة — حول دور رجالها في التاريخ- قصر الثقافة.
- الملتقى الدولي حول عقبة بن نافع، في إطار الملتقى الوطني الخامس "بسكرة عبر التاريخ" موضوع : "أضواء كاشفة عن دور عقبة بن نافع وعلاقته بأبي المهاجر دينار وكسيلة بن لمزم الأوربي"
- مقال حول " بيان أول نوفمبر 1954 "ملتقى الأمين العمودي- وادي سوف.

7. الأعمال العلمية المنجزة تحت إشرافي هي :

- دبلوم الدراسات العليا والمعقة : عددها 05.
- دكتوراه الحلقة الثالثة عددها 03.
- ماجستير عددها حوالي 17.

• دكتوراه دولة : عددها 04.

8. الأعمال السائرة نحو الإنجاز :

*التأطير :

- في الماجستير والدكتوراه وكذا مذكرات السنة الأولى .

- رئاسة مناقشة أطروحات الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي على مستوى جامعتي قسنطينة والجزائر، والمعهد العالي لأصول الدين، ومعهد اللغة العربية.

المحور الأول

تحية وتقدير

تحية تقدير

د. عبد العزيز فيلاي

جامعة منتوري - قسنطينة

أتوجه بالشكر الجزيل، إلى باحثي مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، على هذه اللفتة الطيبة والمبادرة الجميلة الشجاعة التي جعلتنا نقف وقفة احترام وإجلال، إلى الزملاء الذين امتدت أيديهم وعقولهم لتكريم أستاذ محترم من أساتذة الجزائر الكبار بعلمهم وثقافتهم ومواقفهم، وشيخ جليل من مشيخة الجامعة الجزائرية البارزين، ألا وهو: الأستاذ الدكتور "موسى لقبال" أستاذ التاريخ الإسلامي والعصور الوسطى، بجامعات الجزائر، وأحد رواد الثقافة العربية والإسلامية، والباحث القدير في التراث التاريخي الوطني والإسلامي.

إن الاحتراف بتكريم أستاذنا القدير، ومؤرخنا اللامع هو في حد ذاته تقدير لجهوده العلمية والأكاديمية، ولما قدمه من خدمات في مجال الفكر والمعرفة، وهي مبادرة قمدف، إلى تشريف الإطارات الجامعية والأساتذة الباحثين، المسكوت عنهم، وتزليل الرواسب النفسية التي انطوت على الإهمال والنسيان، وكسر حواجزها في الجزائر، وهي ظاهرة طالما تعودت عليها هذه النفس خلال هذا الجيل، الذي يفضل التأين على التكريم، ولا يعترف بنبوغ المثقفين وتفوقهم المتميز إلا إذا أصبحوا من الغائبين.

ولهذا فقد جاءت هذه اللفتة طيبة بعد التي وقعها مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، تحدث التغيير، وتجعل منه تقليدا أكاديميا وعلميا وثقافيا، نحن في أشد الحاجة إليه "رمز الوفاء" لإعلامنا وإبراز لآثارهم وجهودهم الفكرية والثقافية. وهو سلوك حضاري مستحب، وسنة نبيلة يقتدى بها.

لقد عرفت الأستاذ الدكتور موسى لقبال في نهاية الستينيات من القرن الماضي أستاذا لمادة التاريخ الإسلامي وعميدا لكلية الآداب بجامعة قسنطينة، التي كان مقرها بالمدرسة الكائنة بنهج العربي بن مهيدي، عندما كنت طالبا.

تتلمذنا عليه واستمتعنا بمشيخته وعلمه ومنهجه، فعوضنا بما كنا نحتاج إلى معرفته من التاريخ الإسلامي بشقيه المشرقي والمغربي، فأحببنا مادته، وكنا نتطلع إليها كثيرا، مما جعلنا نتم بها أشد الاهتمام ونتخصص فيها بعد ذلك.

وكان الأستاذ مفعما بالحيوية والنشاط، غزير العلم واسع المعارف نقل إلينا ما كنا نجهله من تاريخ وتراث الأمة في ذلك الوقت، الذي كانت فيه الجزائر، تفتقر إلى الأساتذة الباحثين الأكاديميين فكان غرضه ان ينمي فينا ملكة البحث العلمي، وان يوسع آفاق إدراكنا وتعويدنا على حب العلم والقراءة، والتعمق في اللغة التي ندرس بها، ثم كانت لنا لقاءات معه عديدة

وكان الأستاذ جادا وصارما معنا في دروسه العميقة وتوجيهاته ونصائحه الدقيقة، فبنى لنفسه مجدا بين طلابه، ومكانة مرموقة بين زملائه بهذه السلوكات الحميدة سواء كان ذلك في جامعة قسنطينة أو في جامع الجزائر التي انتقل إليها بعد فترة قصيرة قضاها بقسنطينة.

وعندما كان رئيسا لقسم التاريخ ثم رئيسا للمجلس العلمي بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر وكان لنا الشرف في التنسيق معه في المجالات العلمية والبيداغوجية وتبادل الخبرات.

كما عرفته عن قرب عندما أشرف على أطروحتي لنيل دكتوراه دولة وهي أول دكتوراه دولة تناقش في معهد التاريخ بجامعة الجزائر، فكان المشرف القدير والموجه الرشيد، غير متساهل في القضايا المنهجية والموضوعية، والعلمية وكانت صرامته في هذا المجال صرامة الناصحين الصادقين، فقد كان يترك هامش الحرية للطلاب، في التفكير والتأويل والرأي حتى يبرز شخصيته في البحث، وكان شديد العناية والحرص على طلابه، في هذا المجال.

فقد ظل الأستاذ الواعي بقضايا ثوابت الأمة والوطن ومهموما بهما يذود عنها مستمدا مرجعيته وقيمه من الحضارة العربية الإسلامية التي شرب من وعائها في كل من الجزائر وتونس الشقيقة وأرض الكنانة، لازم التدريس والبحث في الحقل التاريخي والحضارة الإسلامية نحو نصف قرن من العطاء المتواصل دون ملل أو كلال، أثرى المكتبة العربية بالعديد من المقالات والكتب والتحقيقات الجادة، أصبحت مراجع أساسية للطلاب والباحثين والمحققين والقراء المهتمين بالتاريخ الإسلامي وحضارته.

فحضر الأستاذ الفاضل، بمهام علمية ومسؤوليات إدارية وبيداغوجية منذ وجوده في الجامعة، وتكون على يديه جيلين من الطلبة والأساتذة الباحثين حاملين مشعله وطموحاته في الجامعات الجزائرية المختلفة وهو الأستاذ المشرف المتميز بأعماله الأكاديمية المتنوعة أنجز مع طلابه نحو أربعين أطروحة ما بين دكتوراه دولة وماجستير فضلا عن دبلوم الدراسات العليا والمعقة وقد شرفني الأستاذ بمناقشة العديد منها إلى جانبه في لجنة التقويم والمناقشة، فقد كان يوجه العديد من الطلاب إلى تخصصات مختلفة في التاريخ الإسلامي والأوروبي، شملت المغرب الإسلامي والأندلس والمشرق الإسلامي إلى ما وراء النهر أي إلى أواسط آسيا، بالرغم من صعوبة البحث في هذه المناطق، وهم اليوم يشغلون هذه التخصصات المتنوعة في الجامعات الجزائرية.

ناضل الأستاذ من أجل التعريب بالجامعة ووحدة اللغة والانتماء العربي الإسلامي، ولا يزال كذلك يرفض التدجين والتغريب، فكان مهموما بالثقافة الوطنية واللغة العربية التي يكتب بها، لأنه يعتبرها بمثابة روح الأمة، فتوحيد اللسان عنده يعني توحيد الفكر والهوية والمصير والعقيدة، وأن مسيرته الطويلة غنية في مجال البحث والتدريس والإشراف وأنه يعد من الشخصيات العلمية الأكاديمية القليلة الهامة في التاريخ الثقافي والحضارة الإسلامية للجزائر المعاصرة.

أطال الله في عمر أستاذنا الجليل وزاد في صحته وعافيته حتى يستمر في التكوين والبحث العلمي والفكري، في مجال التاريخ الإسلامي بشقيه المشرقي والمغربي.

الاعتراف بفضائل العلماء مكرمة

أ.د. محمد الصغير غانم

جامعة منتوري - قسنطينة

كنت أسمع بالأستاذ الدكتور موسى لقبال أثناء الدراسة بالشرق العربي (الكويت)، ولم ألتق به إلا سنة 1967، عندما كان من بين كوكبة الأساتذة الذين درسونا بقسم التاريخ، جامعة الجزائر المركزية صحبة الأساتذة الدكاترة: أبو القاسم سعد الله و ليلي الصباغ ثم هشام الصفدي و عمر باشا و عبد المنعم ماجد والأستاذ غارسيان (Garcién)، وقد كان لهم الفضل في تكويننا و ذلك بما بذلوه من جهد مشكورين عليه في تذليل الصعوبات التي كانت تعترض طريقنا كطلبة جامعيين غللك الإرادة و لكننا نحتاج إلى من يوجهنا .

لقد كان تعامل الأساتذتين الدكتور أبو القاسم سعد الله والدكتور موسى لقبال متميزا معنا، ذلك لأننا كنا جميعا نعيش هاجس كيفية تحرير التاريخ الوطني بعد الطمس و الحرمان و التشويه الذي لحقه طيلة ليل الاستعمار الدامس، لذلك كانت علاقتنا بهما تمتد إلى ما بعد مدرجات وقاعات الدراسة بغية طرح المزيد من الأسئلة والمناقشات حول همومنا الثقافية وكيفية استرجاع اللغة العربية لمكانتها الطبيعية في مجتمعنا، بحيث تصبح هي السائدة في إدارتنا ومنظومتنا التربوية. وكنا نخصص جزء كبيرا من مناقشاتنا للمنظومة التاريخية التي كان من بينها محاولة توضيح الرؤية فيما يخص إيجاد الطريقة المثلى لتعريب وتدریس مادة التاريخ الوطني في التعليم المتوسط والثانوي، اللذين لا يزالان حتى ذلك الوقت يدرسان باللغة الفرنسية التي كانت حينذاك هي السيدة في مدارسنا العمومية، فيما عدا المدارس الحرة و بعض الثانويات التي نشأت بعد الاستقلال التي كانت كل المقررات تدرس فيها باللغة العربية، إضافة إلى تدریس مادة اللغات الأجنبية .

لقد كان الدكتور موسى لقبال يقدم لنا محاضراته مرفقة بنصوص مؤرخي الفترة الإسلامية مثل ابن عبد الحكم والمقديسي وابن حوقل وابن خلدون وغيرهم من الرحالة و مؤرخي تلك الحقبة .

والحق يقال أن الرجل كان متمكنا في تخصصه، لاسيما فيما يخص النظام القبلي و توزيعه في شمال إفريقيا وأصول البربر و تفرعاتهم و المناطق التي استقرت بها كل قبيلة و عشيرة في بلاد المغرب، وكذا الشخصيات والأمرء الذين كانت لهم مكانة مرموقة سياسية و اجتماعية خاصة في المغرب الأوسط .

كنا أيضا نستفيد من طريقة شرح الأستاذ موسى للنصوص و التحاليل ثم التعاليل و المقارنات التي يقدمها بذكاء فيما يخص وجهة نظره في الفتوحات العربية الإسلامية لشمال إفريقيا، والخلاف الذي حصل بين عقبة بن نافع و أبي المهاجر دينار، وكيفية تعاطف كسيلة مع هذا الأخير ووقوفه في وجه عقبة بن نافع، ثم ارتكابه لجريمة مجزرة قهودة التي ذهب ضحيتها ما يزيد على ثلاث مائة شهيد، بما فيهم عقبة بن نافع و أبي المهاجر دينار.

وقد تضمنت كتب كتامة و المغرب الإسلامي و معسكر القرن، ثم عقبة بن نافع للأستاذ موسى لقبال الكثير من آرائه فيما يخص البربر والفتوحات العربية الإسلامية، و العوائق التي اعترضت قادة الفتوحات العربية الإسلامية فيما يخص الغزوات التي قادوها لشمال إفريقيا و مدى استعداد البربر وتقبلهم للديانة الإسلامية بعد احتكاكهم بروادها الذين جاؤوا إلى بلادهم حاملين مشعل الدين الإسلامي الحنيف.

بعد كل الذي أشرنا إليه، يمكن أن نقول أن الدكتور موسى لقبال أستاذ متمكن في تخصصه، وطني و إسلامي في توجهاته، صاحب شخصية خفيفة الظل محبة لكل من يخالطه، خفيف الروح، حاضر النكتة، غير أنه يبدو متحفظا حذرا مع من لا يعرفه جيدا .

أستاذ الأساتذة الدكتور موسى لقبال

د. بوزياني الدراجي

جامعة الجزائر

لا يختلف اثنان على اعتبار الأستاذ الدكتور موسى لقبال من بين أبرز الأقطاب والرواد الأوائل للبحث التاريخي بالجزائر الحديثة؛ إذ يحتل موقعاً مرموقاً في هذا المجال منذ الستينيات؛ بحكم وضعه كأستاذ للتاريخ الإسلامي؛ بدءاً بجامعة قسنطينة ثم جامعة الجزائر؛ التي واصل العمل بها حتى حصوله على حق التقاعد.

ولد الدكتور موسى لقبال في بركة التابعة لولاية باتنة سنة 1934م؛ حيث زاول دراسته الأولية بمسقط رأسه في مدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم واصل تعليمه الابتدائي في مدرسة مشونش التابعة للجمعية نفسها، وبعدها تحول إلى الدراسة في زاوية على بن عمر بطولقة ثم زاوية بن الحماوي بسقانة. فتمكن أثناء ذلك من حفظ القرآن عن ظهر قلب؛ كما استظهر بعض متون النحو. ثم التحق بزاوية ابن عزوز بنقطة التونسية ثم توزر؛ أين واصل تعليمه؛ بعد حصوله على الأهلية التي مكنته من الالتحاق بالزيتونة. وقد حقق - في ذلك المعهد العريق - طموحه في تحصيل العلوم الإسلامية والعربية، واستيعابها بشكل مكثف وواسع. وهكذا؛ وجد هذا التلميذ المتعطش للعلم ضالته؛ فسعى بجهد ومثابرة إلى المتابع المتدفقة في أماكن عديدة؛ حيث اغترف منها جرعات كبيرة مكنته من الارتواء؛ خلال رحلة طويلة انتقل فيها من مكان إلى آخر. ويبدو أنه وجد ضالته

الأولى في الزيتونة التي نهل منها ما يسد حاجته من علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية الأخرى.

وبما أن موسى لقبال يتميز بقوة الذاكرة وصفاء الذهن؛ فقد استظهر عدداً كبيراً من المتون والأشعار المقررة. فساعده هذا الأمر على امتلاك ناصية العلوم، ومنحه القدرة على التعبير بسلاسة؛ إذ عرف بين زملائه بمتانة الأسلوب وطلاقة اللسان. ومرد ذلك - بدون شك - إلى ما استظهره وحفظه - في صغره - من متون ثرية وشعرية؛ إلى جانب حفظه للقرآن الكريم بالكامل، ومواصلة تكراره باستمرار. وهذا من أفضال التعليم التقليدي؛ الذي زاوله في المعاهد، والزوايا، ثم معهد الزيتونة العريق؛ وهو المعهد الذي تخرج منه حاملاً شهادة التحصيل في العلوم سنة 1957م.

ولما انتقل أستاذنا الكبير إلى القاهرة - بهدف متابعة الدراسات العليا في جامعتها - اكتشف فيها منهلاً غزيراً للعلم والمعرفة؛ فاحتك عندئذ بأساليب جديدة وطرق حديثة في التعليم؛ إذ بدأ يستوعب ما اصطلاح عليه بالمنهجية العلمية في الدراسات والبحوث. فوجد أن هذا كله يختلف - بطبيعة الحال - عما عرفه من قبل في حلقات العلم بالزيتونة وغيرها.

وجملة القول؛ فإن للدكتور موسى لقبال سجلاً حافلاً بالإنجازات العظيمة والأعمال الجليلة. لأنه قضى جل حياته في التعلم والبحث والتدريس والتأليف؛ إذ لم يتوقف عن طلب العلم - بعد تخرجه من جامعة القاهرة التي منحته شهادة اللسانس في التاريخ سنة 1961م - بل واصل عمله في البحث

والدراسة؛ إلى جانب انشغاله في التعليم كأستاذ. فأثمر عمله - بعد ذلك - بحصوله على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ DES من جامعة الجزائر سنة 1966م. ثم واصل سعيه في دروب العلم بالقاهرة؛ حيث حصل على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس سنة 1968م. وفي الأخير؛ توج عمله المتواصل بالحصول على دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس سنة 1972م.

وقد مكنته مؤهلاته العلمية المتميزة وقدراته التعليمية المعززة بالمنهجية الحديثة في التعليم من الارتقاء والتدرج بسرعة في سلك الأستاذية بدءاً بجامعة قسنطينة وختاماً بجامعة الجزائر. إذ تدرج في عمله من أستاذ مساعد سنة 1966م إلى مرتبة أستاذ كرسي ورئيس وحدة بيداغوجية وأستاذ مشارك مشرف على الماجستير والدكتوراه سنة 1993م. وأثمر عمله الطويل في ميدان التعليم بثمار طيبة؛ إذ تخرج على يديه عدد كبير من الأساتذة والباحثين الجزائريين والعرب. كما أشرف على جملة من الأعمال العلمية المنجزة في إطار الدراسات الجامعية العليا؛ من ذلك:

— إشرافه على خمسة (5) أعمال تخص الدراسات المعمقة.

— إشرافه على ثلاث (3) أطروحات لدكتوراه الحلقة الثالثة.

— إشرافه على سبعة عشر (17) عملاً في إطار الماجستير.

— إشرافه على أربع (4) أطروحات لدكتوراه الدولة.

وأجد - في هذا السياق - أنه لا بد لي من الاعتراف بفضل الدكتور موسى لقبال عليّ وعلى زملائي من الباحثين والأساتذة

العاملين في المعاهد والجامعات وغيرها من المجالات الحيوية في الجزائر. أقول هذا للتنويه بالجهود الجبارة التي بذلها أستاذنا الفاضل خلال إعداد أبحاثنا؛ إذ كان صبوراً ودقيقاً؛ لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا وأمعن فيها النظر وعلق عليها. كما كان يسهر الليالي في تصحيح وتسجيل الملاحظات.

أهم شيء يستحق التنويه؛ هو أنه لا يكتفي بما يرسل إليه من أعمال للقراءة والتعليق فحسب؛ بل يقوم بإعداد بعض إقوائم الحاملة لعناوين المصادر والمراجع الهامة؛ حيث يطلب منا البحث عنها والسعي للحصول عليها. وإلى جانب هذا كله؛ فهو يحفزنا ويطلبنا بإنجاز الأعمال في أوقات يحددها؛ منعاً للتأخير أو التراخي.

هذه هي صفات ومناقب الدكتور موسى لقبال المتميزة. وتلك هي مؤهلاته العلمية الجليلة؛ أما الوظائف التي تولاها والأعمال المنجزة من قبله فهي عديدة؛ أهمها:

— توليه رئاسة قسم التاريخ ومسئولية البحث العلمي في دائرة العلوم الاجتماعية بجامعة الجزائر من 1973 إلى 1976م.

— تكليفه برئاسة المجلس العلمي لمعهد التاريخ ومنحه عضوية المجلس العلمي بجامعة الجزائر من 1988 إلى 1992م.

ولم يقتصر نشاط الدكتور موسى لقبال على الجامعة فحسب بل امتد نشاطه إلى مجالات أخرى اجتماعية وثقافية وسياسية؛ منها أنه:

— كان عضواً مؤسساً لاتحاد الكتاب الجزائريين.

— ونائباً لرئيس الجمعية التاريخية الجزائرية.

— ومن بين المؤسسين لرابطة المؤرخين الجزائريين واتحاد المؤرخين العرب؛ إذ كان عضواً دائماً في هذا الاتحاد طوال عشر سنين.

— حاز على شهادة التقدير في التاريخ، كما حاز على وسام المؤرخ العربي.

— وفي المجال السياسي أصبح نائباً في المجلس الشعبي الوطني خلال الفترة التشريعية الأولى من 1977 إلى 1982م.

هذا هو الدكتور موسى لقبال في مجال التدريس ونشاطاته الثقافية والسياسية. أما الآن؛ فبقي علينا إبراز أهم الجوانب العلمية التي أفرزتها مسيرته الطويلة وسعيه الحثيث خلف مركبة العلم والمعرفة. فلم يخل ولم يقصر؛ إذ كان كشجرة مثمرة مباركة؛ وبدأ إنتاجه إلى جانب التدريس؛ فمنح المكتبة الجزائرية مؤلفات وأبحاث عديدة في منتهى الجودة؛ أفادت أعداداً كبيرة من طلبة العلم، وأزالت غبار النسيان عن جوانب هامة من تاريخ المغرب الإسلامي. وأهم المؤلفات التي زود بها الدكتور موسى لقبال مكتبة الأبحاث الجزائرية هي:

— كتاب المغرب الإسلامي.

— كتاب التيسير في أحكام التسعير.

— كتاب الحسبة المذهبية.

— كتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية.

— كتاب عقبة بن نافع الفهري.

— كتاب ملحمة أبي عبد الله الإكجاني.

— كتاب ملحمة أبي الفضل جعفر بن فلاح.

وستكلم في هذا السياق عن اثنين من هذه الكتب فقط؛
وذلك بحكم ضيق المجال. وأول الكتب هي:

كتاب المغرب الإسلامي

منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج

(سياسة ونظم)

هو باكورة أعمال الدكتور موسى لقبال. وقد نشرت الطبعة الثالثة منه مؤخراً. وهذا يفيد بما لهذا الكتاب من أهمية، وإقبال القراء عليه والسعي لاقتنائه. وقد أضحى — منذ صدوره — بمثابة الدليل الكافي والوافي للدارسين بالعربية في مجال الفتح الإسلامي وتأسيس القيروان. كما يعتبر هذا الكتاب أهم مرجع جزائري في هذا الباب؛ لأنه كسر الاحتكار المفروض من قبل الفرنسيين في هذا المجال؛ إذ قدم لقراء العربية أهم دراسة تبحث — بدقة متناهية — موضوع الفتح الإسلامي وما تعرض له الفاتحون في بلاد المغرب؛ سواء كان ذلك في شكل مقاومة شنها السكان الأصليون، أو من خلال المهادنة والإقبال على الدين الإسلامي.

وهكذا؛ فقد وُفق الدكتور موسى لقبال في اختيار موضوع بحثه، وأجاد ضبط خطته، وبرع في التقاط المعلومات المتناثرة الخاصة بمواضع عديدة ومتفرقة؛ بحيث غدا كمن يفتش عن حبيبات عقد ضائعة في كومة من القش. نعم؛ لقد ظهر الجهد الكبير الذي بذله الدكتور موسى لقبال من خلال ما قام به في نبش والتقاط وجمع المادة التاريخية لهذا البحث القيم؛ مستنطقاً

المصادر العربية القديمة؛ وهي عديدة ومتنوعة نذكر - على سبيل المثال - أهمها وأشملها؛ مثل:

- فتوح إفريقية: سماه الدكتور لقبال في جدول المصادر: محمد بن عامر الواقدي. أما النسخة التونسية التي أملكها فسمته: أبا محمد عبد الله بن عمر الواقدي (130 - 207هـ). بينما قال صاحب كتاب المغازي (المستشرق يوسف هوردوفتس) أن اسمه هو: محمد بن عمر المولود سنة 130هـ بالمدينة المنورة والمتوفى عام 207هـ ببغداد. غير أن هذا الباحث لم يذكر - بين مؤلفات الواقدي - كتاب فتوح إفريقية؛ في الوقت الذي أشار إلى كتابي: فتوح الشام وفتوح العراق. على أننا نعلم بوجود عمل للواقدي بعنوان مغازي إفريقية. المهم؛ أن كتاب فتوح إفريقية المتداول بين الناس الآن منسوب للواقدي. وقد اطلع عليه الدكتور لقبال؛ مع أنه كان يعلم بضعف روايته. وهذا يوضح لنا مدى اعتناؤه بالمصادر كلها؛ مهما كان حالها. ويعتبر هذا - طبعاً - من صفات كبار الباحثين. خاصة وأنه شكك في بعض الروايات الواردة في هذا الكتاب؛ مثل الخلط بين عقبة بن عامر وعقبة بن نافع.

- فتوح مصر والمغرب: لعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري القرشي (ت: 257هـ). وهو أول المصادر وأوسعها وأوثقها؛ المعروفة حتى الآن؛ إذ تكلمت - في وقت مبكر - عن الفتح العربي لبلاد المغرب.

- فتوح البلدان لأحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري: (ت: 279هـ). استمد معلوماته بخصوص فتح إفريقية من

روايات عديدة؛ منها روايات للواقدي نفسه؛ الأمر الذي يثبت أن لهذا الأخير أعمالاً تؤرخ لفتوح المغرب؛ ولكنها فقدت.

— طبقات علماء إفريقية: لمحمد بن أحمد بن تميم القيرواني المعروف بأبي العرب: (ت: 333هـ). وردت في هذا الكتاب تراجم وأخبار عديدة تخص الفتح والفتحين.

— رياض النفوس: لعبد الله بن محمد المالكي: (ت: 449 أو 460هـ). وهذا الكتاب يتناول — بالإضافة إلى تراجم الأعلام وطبقات علماء إفريقية والقيروان — تاريخ الفتح الإسلامي، وأخبار الولاية بالديار المغربية.

— تاريخ إفريقية والمغرب: لإبراهيم بن القاسم المعروف بالريق القيرواني: (ت: بعد عام 417هـ تقريباً). وهو عبارة عن قطعة صغيرة من كتاب مفقود للريق القيرواني تتحدث عن تاريخ إفريقية والمغرب. وما وجد منها — حتى الآن — يبدأ بالولاية الثانية لعقبة بن نافع سنة 62هـ وينتهي بولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة 196هـ.

— المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب: لعبد الله بن عبد العزيز البكري: (ت: 487هـ). وهو عبارة عن قطعة من كتاب خاص بالجغرافية ووصف البلدان والمسالك المؤدية إليها؛ يسمى المسالك والممالك.

— الكامل في التاريخ: لعلي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري: (ت: 630هـ). يعالج هذا الكتاب الأحداث التاريخية الواقعة في ربوع الدولة الإسلامية بكاملها شرقاً وغرباً؛ وهو محبوب حسب ما يحدث كل سنة في ديار الإسلام كلها.

— البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: لأحمد بن محمد بن عذارى المراكشي: (ت: 669هـ أو 665هـ). وثمة من قال أنه توفي في سنة 712هـ. سماه الدكتور لقبال: أبا عبد الله محمد. ويسرد كتاب البيان المغرب الأحداث التاريخية الواقعة في البلاد المغربية والأندلسية؛ — طبقاً للتسلسل الزمني — بدءاً بالفتح الإسلامي وحتى تمهيد الدولة الموحدية؛ أي إلى عام 667هـ.

— طبقات المشائخ بالمغرب: لأحمد بن سعيد الدرجيني: (ت: 670هـ). ويشتمل هذا الكتاب على تراجم وأخبار أعيان وعلماء المذهب الإباضي. كما يحتوي على معلومات هامة بخصوص الأحداث الواقعة في ربوع المغرب بعد الفتح الإسلامي.

— معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري المعروف بالدباغ: (ت: 696هـ). يشتمل هذا الكتاب على معلومات هامة تخص الفتح الإسلامي وترجمات متنوعة لرجالات وعلماء القيروان.

— العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون: (ت: 808هـ). ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي أرّخت للبلاد المغربية قبل الفتح وبعده. وهو محبوب حسب المواضيع؛ بخلاف الأسلوب المتبع قبله مثل أسلوب ابن عذارى وابن كثير وغيرهما.

— الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات: لإبراهيم البرّادي الدميري. (عاش في القرن التاسع للهجرة). فيه

أخبار عن أعيان الإباضية من الطبقة الأولى، وما حدث لهم مع ولاية الدولة الإسلامية.

وقائمة المصادر والمراجع - التي استفاد منها الدكتور لقبال - طويلة؛ لا يتسع المجال لذكرها بالكامل. المهم أنه صنف مصادره ومراجعته إلى: مصادر مغربية، ومصادر مشرقية، ومصادر إباضية؛ ثم المراجع العربية الحديثة، والعربية: مغربية ومشرقية أيضاً.

. ويمكن التأكد من استغلاله الجيد للمصادر والمراجع؛ من خلال التعاليق والإحالات المتنوعة والمستفيضة التي تشير للمصادر المذكورة في ذيل كل صفحة من صفحات هذا الكتاب القيم.

وقد افتتح الدكتور عمله هذا بفصل تهيدي خصص بعض صفحاته لتوضيح معنى ومبدأ العمل بجملة من المصطلحات الجغرافية المتداولة بين المؤرخين؛ مثل: ليبيا والليبيين، وإفري وإفريقية، ونوميديا، وموريطانيا، والمغرب، والمغرب الأدنى والمغرب الأقصى. كما حدد معنى وأصول العناصر السكانية ببلاد المغرب في زمن الفتح الإسلامي؛ حيث صنفهم إلى أمازيغ، وأفارقة، ورومان، وروم. وبالتالي خلص إلى الحديث عن صلة العرب بمنطقة المغرب، وبدء تطلعهم وتوجههم نحو هذه الديار.

أما لب كتاب المغرب الإسلامي وعموده الفقري فيتمثل في أبوابه الخمسة:

- الباب الأول: يتناول فيه الدكتور بالبحث موضوع القيروان كقاعدة عسكرية أمامية لجيوش المسلمين. حيث أبرز دور معاوية بن حديج كأول من عمل على بناء قاعدة سميت بالقيروان في

إفريقية؛ وذلك قبل ((قيروان)) من جاء بعده: كعقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار. وقد اشتمل هذا الباب على معلومات هامة بخصوص ما جرى للفاحين العرب من نجاحات؛ أوصلتهم إلى المحيط الأطلسي، وكبوات؛ انتهت باستشهاد عقبة بن نافع وأتباعه من المسلمين في منطقة قنودة، وزهير البلوي في جهات برقة، واحتلال القيروان من قبل الأمازيغ أتباع كسيلة.

وفي هذا الباب سلط الدكتور لقبال الضوء على بعض القضايا التي التبس أمرها على غيره من المؤرخين القدامى؛ مثل: تشكيكه في الخبر الذي تناقله المؤرخون بخصوص ارتداد كسيلة؛ مستشهداً بسلوك هذا الأخير حين دخل القيروان؛ إذ لم يتعرض للمسلمين فيها بأذى، كما حافظ على مقدساتهم ولم يمس المسجد بسوء. كما أزال عن الموضوع صبغة القداسة؛ حيث جاهر برأيه الناقد لسلوك عقبة بن نافع تجاه أبي المهاجر دينار وكسيلة. بالإضافة إلى نقده الصريح للأسلوب العسكري الذي اتبعه عقبة في زحفه نحو المغرب واستخفافه بخصومه أثناء عودته.

— الباب الثاني تحدث فيه الدكتور عن عملية استكمال الفتح، وعودة العرب إلى إفريقية وبلاد المغرب كلها بقيادة حسان بن النعمان خلال الفترة الزمنية المحصورة بين سنة 74 و85 هجرية. وقد تجلّى في هذا الباب الدور الذي قامت به ((الكاهنة)) في مقاومة الزحف العربي نحو المغرب؛ إذ اشتبكت معهم مرتين: انتصرت في الأولى؛ بينما ذاقّت مرارة الهزيمة في الثانية؛ أين قتلت والتحق ولداها بالمسلمين.

وقد أبرز الدكتور لقبال في هذا الباب سجايا ومناقب القائد العربي حسان بن النعمان؛ حيث وضّح الخطة العسكرية الناجحة المتبعة من قبله؛ التي اقتضت السيطرة على المراكز البيزنطية أولاً ك: تونس وقرطاج؛ وذلك قبل أي احتكاك بالسكان الأصليين (الأمازيغ) بقيادة الكاهنة.

— الباب الثالث: خصصه الدكتور لقبال للحديث عن دور موسى بن نصير في ولايته لإفريقية؛ حيث تعززت السيادة العربية على المناطق المفتوحة في بلاد المغرب. وتمتد هذه الفترة من 86 إلى 92هـ. كما أشار في هذا الفصل إلى الدور العظيم الذي قام به طارق بن زياد مع الجند الأمازيغ في فتح الأندلس.

وقد لاحظ الدكتور في هذا الفصل لجوء موسى بن نصير — لأول مرة في بلاد المغرب من قبل الولاة المسلمين — إلى إلزام القبائل الأمازيغية بتقديم رهائن من أبنائهم؛ ضماناً لحفظ العهد ومنعاً للتمرد والعصيان. وقد ساعد هذا السلوك — فيما بعد — على فتح الأندلس بواسطة هؤلاء الرهائن وغيرهم من الجنود الأمازيغ.

— الباب الرابع: ويتكلم من خلاله الدكتور لقبال عن الوضعية الإدارية للمغرب الإسلام بعد انتهاء الفتح. وقد اقتضت خطته حصر الموضوع في فقرات عنوانها كما يلي:

1 — مراحل نشأة الولاية الجديدة، ونشاط ولائها:

2 — ولاية إفريقية:

3 — هيكل الإدارة المدنية ونظام القضاء:

4 - التقسيمات الإدارية:

5 - ولاية إفريقية في الأحكام السلطانية:

6 - أثر العصبية في الولاية الجديدة وتوابعها:

7 - علاقة الخلفاء بالولاية الجديدة:

8 - نظرة ولاية مصر لولاية إفريقية:

9 - علاقة الأندلس بالولاية الجديدة:

10 - النشاط الثغري لولاية إفريقية:

11 - دور الولاية في الحركة الإسلامية:

12 - النظام العسكري في ولاية إفريقية:

13 - النظام المالي في الولاية الجديدة:

وهكذا؛ يمكن استشفاف أهمية هذا الفصل وثرائه من خلال التأمل في عناوين فقراته المغرية والجاذبة. فهو فصل يشرح الشكل المتبع في نظم الحكم - آنشد - من قبل الفاتحين المسلمين. وهذا من الفضائل الحميدة المسندة للدكتور لقبال موسى.

- الباب الخامس: لخص فيه الدكتور لقبال - بدقة وبراعة

- حركة الخوارج الصفرية والإباضية في إفريقية وبلاد المغرب من سنة 122 إلى 178هـ. وقد ابتدأ بتمهيد أشار فيه إلى نشأة الفرق الإسلامية في المشرق (خوارج وشيعة). ثم خلص إلى الحديث عن الأسباب التي أدت إلى ظهور المذهب الخارجي في بلاد المغرب؛ وتحميل ولاية الدولة الأمية المسؤولية في ذلك؛ بسبب ظلمهم

وقهرهم للسكان الأصليين. الأمر الذي وَلَدَ الحركة الصفرية في بلاد المغرب، وبعث فيها روح الثورة والتمرد العسكري. ثم ظهور الحركة الإباضية - كذلك - في إفريقية وانطلاق ثورتها في تلك الديار.

وختم الدكتور كتاب المغرب الإسلامي بعدد من الملاحق المستمدة من بعض المصادر النادرة؛ ثم أثبت بعض الخرائط والصور التوضيحية.

كتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية (منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري 11م)

هذا كتاب ضخيم في حجمه عظيم في محتواه. جامع، شامل لكل ما له علاقة بقبيلة كتامة، وقيام الدولة الفاطمية، ثم انتقالها إلى المشرق، ودورها في بناء الحضارة الإسلامية في مصر وبلاد الشام. وقد وضعه الدكتور لقبال ضمن قسمين:

— القسم الأول: يدرس فيه — بعد نقد المصادر — الأوضاع ببلاد المغرب وأخبار قبائله البترية والبرنسية؛ ثم خُصص إلى الحديث — بدقة متناهية — عن قبيلة كتامة؛ التي قامت بفضل أبنائها الدولة الفاطمية. فلم يترك الدكتور لقبال كبيرة أو صغيرة — بخصوص هذه القبيلة — إلا وتطرق لها. سواء تعلق ذلك بفروع هُذي القبيلة أو بمواطنها.

كما تناول الدعوة الشيعية - في البلاد المغربية - بدقة وتوسع تشبع المتعطش للبحث في هذا الموضوع وتسدد حاجته. إذ انطلق في الحديث عن الحركة الشيعية من موطنها الأول في المشرق، ثم أشار إلى أسباب غوها وتطورها وانتشارها في ربوع الدولة الإسلامية حتى وصلها إلى بلاد المغرب. هذا بالإضافة إلى الحديث عن العلويين - من غير الشيعة - الداخلين إلى المغرب والإمارات التي أقاموها في تلك الديار.

وقد توسع في الحديث عن الداعية أبي عبد الله الشيعي والكيفية التي دخل بها إلى المغرب الأوسط وإقامته في أكجان، وانطلاق دعوته ودوره في إسقاط الدولة الأغلبية، ونشأة الدولة الفاطمية بسواعد أبناء كتامة. وانتهى الأمر بأبي عبد الله الداعية الشيعي إلى القتل بأمر سيده الذي أفنى حياته من أجل إجلاسه على كرسي الخلافة.

في الفصل الثالث من الكتاب تكلم الدكتور لقبال عن حركة التوسع السياسي للدولة الفاطمية في البلاد المغربية. كما تكلم عن الصراع المذهبي منذ قيام هذه الدولة إلى أواخر القرن الرابع الهجري. وفي هذا الفصل تم للدولة الفاطمية تمهيد المغرب الأوسط والأدنى ثم شرعت الدولة في الزحف نحو مصر.

- القسم الثاني: يتكلم فيه الدكتور لقبال عن توسع الدولة الفاطمية نحو الشرق وفتح مصر وبلاد الشام. وفي هذا القسم يظهر الدور العظيم الذي قامت به كتامة؛ في فتح مصر والشام. كما برز دور القائد الكتامي العظيم جعفر بن فلاح.

وقد اشتمل هذا القسم - أيضاً - على معلومات هامة تخص الدور الكبير الذي قام به أبناء كتامة في بلاط الدولة الفاطمية بمصر. وتم شرح ذلك تحت العناوين الفرعية التالية:

- شخصية جعفر بن فلاح:
- كتامة والإدارة المدنية والعسكرية في مصر:
- كتامة والخلفاء المصريون:
- آثار وبقايا كتامة في القاهرة وفي الأقاليم:
- كتامة وميدان الشام ومشاكل الحكم الفاطمي فيه:
- القرامطة:
- الشطار:
- عرب الشام وأمرأؤهم:
- الولاة الكتاميون في بلاد الشام منذ الفتح حتى ظهور قوة الأتراك السلاجقة في نهاية القرن الخامس بد الهجرة:

وخصص الدكتور الفصل الأخير من كتاب دور كتامة في الحديث عن أثر كتامة في علاقات الخلافة الفاطمية ضمن ميادين عديدة؛ خاصة في العلاقات مع الأمراء الزيريين. ثم اختتم هذا الكتاب الهام ببعض الملاحق والصور والجداول التوضيحية. نكتفي بهذا القدر؛ مع تمنياتنا للدكتور لقبال بطول العمر والمزيد من العطاء لإفادة تلاميذه الأوفياء. والله الموفق.

المحور الثاني

قراءات في آثار الأستاذ الدكتور
موسى لقبال

مصادر الكتابة التاريخية عند الأستاذ الدكتور موسى لقبال - كتب الحسبة أنموذجا -

أ.شخوم سعدي

جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس

اعتقد كثير من الدارسين و الباحثين لتاريخ المغرب في الفترة الوسطى، أن كتابة تاريخ المغرب تعتمد أساسا على المصادر التي كتبها المغاربة خصوصا والتي كتبها المشاركة عن هذه المنطقة، ممثلة في كتب التاريخ وكتب التراجم مثل كتاب طبقات علماء افريقية لأبي العرب تميم التميمي وكتاب معالم الإيمان في ذكر أهل القيروان لعبد الرحمن الدباغ وتتمته لابن ناجي وكتاب تاريخ العلماء الأندلس لابن الفرضي والصلة لابن بشكوال وتاريخ المغرب وافريقية للرقيق القيرواني وابن عذارى المراكشي وكتابه البيان المغرب، والعبر لابن خلدون و غيرها لكن هؤلاء الباحثين والدارسين وجدوا بعض الثغرات التي من الصعب سدها بالاعتماد على المصادر السابقة الذكر لعدة أسباب منها أنها أهملت بعض الفترات التاريخية وإنما لم تدخل في تفاصيلها خاصة فترة المرابطين أو فترة الدولة الصنهاجية بإفريقية و المغرب و دولة الأدارسة وغيرها، هذا من الجانب التاريخي السياسي أما الجوانب الأخرى كالاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية فقد بقيت حتى فترة قريبة أسيرة هذه النوع المعهود من المصادر وفي الفترة المتأخرة ظهر سعي حثيث للخروج من الدائرة تماما، إلى مصادر أخرى لاتزال بكرا، لم ينلها ما نال كتب التاريخ التقليدية، و لعل أهم هذه المصادر كتب النوازل وكتب الحسبة، وإذا كانت كتب النوازل قد ظهرت إلى ساحة الطبع أهمها ككتاب المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس المغرب لأحمد بن يحيى الونشريس، ونوازل البرزلي، بتحقيق الحجي محمد.

وقد ظهر جليا الاستفادة منها في بعض الدراسات¹، ومع ذلك لم يعتمد على كتب الحسبة كما حدث على كتب النوازل، إلا قليل من الباحثين، وهذا لا يعني انعدامهم، ومن هؤلاء نجد الأستاذ الدكتور موسى لقبال الذي يكاد يكون في طليعة المؤرخين المغاربة الذين أشبعوا هذا الميدان بالدراسة وسعوا وحثوا على الاهتمام بها لدورها الهام في تاريخ المغرب الإسلامي خاصة الاقتصادي والاجتماعي و يتضح ذلك في باكورة كتبه المغرب الإسلامي الذي ظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1969 بقسنطينة، ففي هذا الوقت المبكر كان الأستاذ لقبال يعتمد عليها في تأريخ فترة حساسة ومهمة في تاريخ المغرب وهي القرن الأول و الثاني للهجرة (السابع والثامن الميلاديين)، ثم في غيرها من كتبه التي نقلت هذا الكتاب، ولذا سنحاول من خلال هذا العرض معرفة بعضا من جوانب هذا المنهج الجديد في الكتابة التاريخية التي لا ندعي أن للأستاذ لقبال الأسبقية المطلقة فيه² لكنه انفرد في الاتساع بالاهتمام بها وتحقيقها ونشرها خاصة بين مؤرخي المغرب العربي إن لم نقل مؤرخي العالم العربي، وسنقوم بدراسة أسباب اعتماد هذه المصادر وأهم مناحيها وكذا أثرها على كتابة تاريخ المغرب، بالاعتماد على أهم ما ألفه الأستاذ مثل كتاب دور كتامة في قيام الدولة الفاطمية بالمغرب وكتاب الحسبة المذهبية في بلاد المغرب وكتاب التيسير في أحكام التسعير للمجيلدي والدراسات في هذا الميدان تكاد تكون قليلة - في حدود ما اطلعنا عليه - و هذا يؤكد كلامنا السابق حول منهج الأستاذ لقبال .

وسنحاول في هذا العرض إبراز مدى أهمية هذا المنهج الجديد في كتابه تاريخ المغرب خاصة في جوانبه الاقتصادية والاجتماعية وحتى الدينية .

¹ كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الوشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1977.

² سبق للمستشرق ليفي رون أن نشر كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة لابن الأخوا (محمد بن أحمد القرشي)، نشر كامبريدج، 1938 و كان قد سبقه فالتر بروناي، و ليفي برفنسال الذي نشر كتاب آداب الحسبة للسقطي المالكي 1931 ثم رسالة في الحسبة و القضاء لابن عبدون الإشبيلي (1934)، و كذا السيد الباز العربي الذي نشر كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة.

و يبقى هذا العرض في حاجة إلى المزيد من الدراسات الأكثر اتساعا و تعمقا لمثل هذه المواضيع التي تدرس المنهج إذا اعتبرنا أن تاريخ المغرب الاسلامي مازال يحتاج إلى مزيد من الكتابة لسد ما أستطيع سده من ثغرات تاريخ هذه المنطقة من البلاد المسلمة.

أسباب الاعتماد على هذه المصادر :

سعى الأستاذ منذ بداية تأليفه ودراسته إلى أهمية هذه المصادر إما تلميحا أو إشارة أو قصدا، فمن ذلك استعمالها في تحديد المصطلحات الجغرافية الخاصة بالمنطقة¹، أو دراستها مباشرة لتبيان أهميتها وذلك في كتاب يعد من أهم الكتب في هذا الباب وهو كتاب الحسبة المذهبية في بلاد المغرب (نشأتها و تطورها) الذي نشر سنة 1971، وحسب الأستاذ لقبال فقد تعددت أسباب الاعتماد على هذه المصادر وإعادة الدعوة إلى حالتها هذا النوع من التراث منها أن كتب الحسبة التي طُبعت لا تتجاوز حد التحقيق الجاف من العناية بالنص الأصلي (المتن) وفهرسته، يصحبه عدم الاهتمام بالفوارق في الحسبة عند المؤلفين، و الأهم من هذا عدم الحديث عن الأعلام المجتهدين في الأحكام و دراسة مسائل الخلافات الفقهية التي تظهر في ثنايا مثل هذه التآليف² بالإضافة إلى أنها تساهم - أي كتب الحسبة - في توضيح الرؤية حول اهتمام المسلمين بالنظام في المجال الاقتصادي والاجتماعي والعناية بالمذهب الفقهي، وسماحة تدينهم³. ومن خلال هذه الكتب يظهر أثر الكتب الفقهية المتداولة في المغرب في الفترة الوسطى - كموطأ مالك و المدونة لسحنون بن سعيد التنوخي. ومقدمات بن رشد - في الحياة اليومية للمغاربة ودورها في توجيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية كمصادر

¹ د. موسى لقبال، المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج - سياسة و نظم - ط2، 1981، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ص 14.

² د. موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي (نشأتها و تطورها)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 1971، ص 5.

³ المرجع السابق، ص 8.

التشريع في تلك الفترة¹ وكتب الحسبة التي هي من تأليف بعض المحتسبين لعمل إشارات مهمة إلى تغيرات سياسية أو مذهبية دينية قد يعرفها الغرب، إذ أن بعض المحتسبين كانوا ممهدين لبعض ثورات المغرب وقيام دو فيه مثل عبد الله بن ياسين وابن تومرت وغيرهما²، وتتضح أهمية هذه المصادر كذلك على معرفة التطور العمراني والمدني، إذ أن من وظائف المحتسب مراقبة الطرق والحارات والنباتات³.

وتزداد أهمية كتب الحسبة في معرفة النواحي الثقافية المنطقة، إذ أن المحتسب يراقب الكتاب والمدارس، ويتشدد مع مدعي العلم بل والاطلاع على ما يدرس للطلاب، و مراقبة المخالفين من منتحلي البدع والأهواء وهذا كله يعطي صور نادرة لأفكار نجدتها في غير كتب الحسبة حول النشاط العلمي والثقافي بالمغرب الإسلامي كما في كتاب الأعلام بالنوازل والأحكام وفقه من سير القضاة والحكام لابن سهل وإن كان كتابا في النوازل فهو كذلك كتاب يتحدث عن سير المحتسبين وأصحاب السوق، حيث أن تحدث عن تطور الدعوة الإسماعيلية بقرطبة وأحد دعاة الذين انفرد هذا المصدر بالحديث عنهم، من طرف قاسم بن محمد ومحمد بن عبد الله التجيني في المسائل الخلافية بين أهل السنة والإسماعيلية وغيرها من المسائل العقائدية والفقهية⁴، بل وحتى أوضاع أهل الذمة من اليهود والنصارى في إفريقية والمغرب وعلاقة المسلمين لهم يسمى من الناحية التجارية⁵ وقد يعطي المحتسب صورة مهمة عن الأوضاع وكيف تطورت مع هؤلاء خاصة في الفترات المناظرة⁶.

¹ لقبال، المرجع السابق، ص 9.

² نفسه، ص 62.

³ نفسه، ص 71.

⁴ د. موسى لقبال، دور كتابة في تاريخ الدولة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 632.

⁵ أحمد سعيد المجلدي، كتاب التيسير في أحكام التسعير، تقدم وتحقيق الدكتور موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص 77.

⁶ نفسه، ص 78.

وقد يوجد في بعض كتب الحسبة إشارات إلى الحديث عن الأوبئة الاجتماعية وحتى الأمراض¹، ومن أهم العوامل التي دفعت لاعتماد هذه المصادر الإشارات الاقتصادية الواضحة عبر الحديث عن أهم الأنشطة والمكايل المشتملة²، وقد تعطي كتب الحسبة صورا عن أوضاع الدولة المغربية الداخلية وعلاقتها ببعض قبائلها ودراسة نسبها أي إنها تفيد في دراسة النسب التي كانت وظيفة بعض محتسي المغرب كما يذكر الأستاذ لقبال³ كل هذه العوامل مجتمعة تجعل من الأهمية بما كان اعتماد كتب الحسبة كمصدر مهم لتاريخ المغرب الإسلامي ولعل هذا كان واضحا في حل كتابات الأستاذ الدكتور موسى لقبال، وهذا لا يعني أن كتب الحسبة تغطي جميع النواحي التاريخية فهناك نواحي محددة تمسها لا نكاد نجد لها في كتب التاريخ التقليدية .

أهم النواحي التي تمسها كتب الحسبة عند الدكتور لقبال :

تعدد الجوانب التي تهتم بها كتب الحسبة وإن كانت في الأصل كتب تدور في فلك الفقه المالكي، وإذا أردنا أن نركب هذه النواحي من حيث الأهمية فإن أول جانب يمكن أن تفيد فيه كتب الحسبة هي الجانب الاقتصادي باعتبار أن المحتسب في بلاد المغرب أو بعضها كان يسمى بصاحب السوق خاصة في الأندلس⁴، وهكذا كانت الحسبة نظام رقابة على التجار والصناع في الأسواق⁵ ليس عند دول السنة المغربية كالأغالب والأمويين بالأندلس بل حتى الدولة الرستمية، وعن الأسواق التي كانت بمدن المغرب الكبرى في تلك الفترة وأصبح لكل صناعة سوقا وبالتالي محتسب⁶ وكذا أنواع البضاعة المتبادلة في المغرب الإسلامي التي ذكر بعضها محمد بن أحمد العقباني في رسالته "تحفة الناظر وغنية

¹ نفسه، ص 68 .

² لقبال، الحسبة المذهبية، ص 73 و ما بعدها .

³ نفسه، ص 72 .

⁴ ابن حيان، المقتبس في خبر بلد الأندلس، تحقيق محمد علي مكي، دار الكتاب، بيروت، 1973، ج2، ص 186.

⁵ لقبال، المرجع السابق، ص 39.

⁶ نفسه.

الذاكر في حفظ الشعائر و تغيير المناكر"¹ وكان من أهم مصادر الأستاذ لقبال في كتابه الحسبة المذهبية، حيث أشار إلى أهم السلع المتعامل بها في القيروان وتونس، من لحوم بأنواعها وكذا بعض الصناعات الغذائية كالأفران ولم يكتف صاحب تحفة الناظر بهذا بل أشار إلى بعض الآفات الاقتصادية التي كانت تضر باقتصاد المغرب كزيف العملة والرشاوي² والغش كما أشار المجيلدي إلى انتشار الربا في بعض أسواق المغرب³ بين المسلمين ومن أهم المظاهر الاقتصادية التي تحدثت عنها الحسبة، المكاييل التي كانت مستعملة في بلاد المغرب واختلافا مع بلاد المشرق، وقد فصل الأستاذ لقبال تفصيلا هاما وملحوظا في كتابه الحسبة المذهبية⁴، الفروق في الموازين حتى بين أمصار المغرب نفسها، ولم تكتف كتب الحسبة بالإشارة إلى الجانب الأساس من وظيفتها (السوق)، فهناك إشارات أخرى مهمة وهي الجانب الديني، حيث أنه في بعض كتب الحسبة إشارات إلى الفرق التي عرفها المغرب و الصراعات المذهبية وامتداداتها السياسية وقد لاحظ ذلك الأستاذ لقبال كالصراع الذي كان بين المالكية والفرق بالقيروان من إباضية و صفرية و حتى معتزلة في عهد الإمام سحنون بن سعيد، وكذا اهتمام هذه الفرق بأمر الحسبة ووضع محتسين خاصة بهذه الفرق التي أسست دولا في⁵ ولعل أهم ما نقله الأستاذ لقبال من كتب الحسبة في هذا المجال هو الصراع الفاطمي الأموي من خلال دعوات الاسماعيليه ومحاولات نشر مذهبهم، وما كان يفعلُه أحد دعاةم الذين أشرنا إليه سابقا⁶، وقد لاحظ الأستاذ لقبال قلة التأليف في هذا المجال في عهد المرابطين، معللا ذلك بطبيعة الدولة المرابطية وكذا ببعض كتبهم التي طمسها الموحدون بعدهم⁷ وهكذا كان هذان الجانبان

¹ نفسه، ص: 54.

² نفسه، ص 55.

³ المجيلدي، التيسير، ص 78 .

⁴ ص، 20 .

⁵ نفسه، ص 47 .

⁶ هو المدعو أبو الخير، وقد تحدث عنه الأستاذ لقبال في كتابه دور كتامة، ص 414 و ما بعدها .

⁷ لقبال، الحسبة المذهبية، ص 49 .

أهم ما تعرضت له كتب الحسبة لسبيين أولاهما أنها كتب في الأساس دينية بالتالي تعرض المجال الديني عرضا لا يمكن إغفاله ثانيا اقتصادية نظرا لطبيعة مهمة المحتسب في المغرب التي تركزت في السوق خاصة، وهنا لا تعني إهمال الجانب الاجتماعي والعمراني، والملاحظ أن كتب الحسبة تغيرت حسب المناطق المغربية وكانت أرقاها وأكثرها في الأندلس الثقافية والاجتماعية من ثقافة راقية ومجتمع متفتح أدى إلى كثرة المفاصد ولهذا حرص المحتسبون على مواجهة هذا الانحراف وفي الفترة الأخيرة من التاريخ الوسيط، أصبحت مؤلفات الحسبة يغلب عليها التقليد¹ ومع ذلك نجد أن الأستاذ لقبال في اعتماده مثل هذه المصادر سار معها سيرا تاريخيا عبر أغلب الفترات التي عرفها المغرب.

أهم كتب الحسبة التي اعتمدها الدكتور لقبال:

سار الأستاذ لقبال مع كتب الحسبة في كتابة تاريخ المغرب سيرا تاريخيا ولعل أهم وأقدم كتاب تعامل في كتابه المغرب الاسلامي كان كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر الكنايني (231 - 289 هـ / 822-902 م) وذلك في الحديث عن واجب الولاية ولعله يلمح هنا إلى نظام الولاية على عهد الأغالبة² وفي حديثه كذلك عن الولاية يعتمد مخطوطا آخر ليحيى بن عبد الله بن أبي البركان معنون للبشائر الفتوحات والسعود في أحكام التعزيزات والحدود وهو بالخزانة الملكية بالرباط 1154 .

ومن كتب الحسبة التي اعتمدها كذلك نجد كتاب ابن سهل المشار إليه آنفا (الأعلام بنوازل الأحكام) وإن كان يحوي نوازلا إلا أن سير المحتسبين فيها إشارات للصراعات مع المخالفين وهنا في كتابه الخاص بكتابة ودورها في تاريخ الدولة الفاطمية³.

كما اعتمد على كتب أخرى مشرقية في تعريفات عامة مثل كتاب ابن الأخوة القرشي معالم القربة في أحكام الحسبة و كتاب عبد الرحمن بن نصر الدين الشافعي

¹ نفسه، ص 52 .

² لقبال، المغرب الإسلامي، ص 181 .

³ لقبال، دور كتابة، ص-ص، 632-632 و ص-ص : 384-384 .

(589 هـ/1193 م) نهاية الرتبة في طلب الحسبة و هذا في الحديث عن محاولات الأيوبيين طمس التشيع بمصر و الشام و إحياء مظاهر السنة¹.

ومن أهم كتب الحسبة التي اعتمدها الأستاذ لقبال في تاريخ الفترات المتأخرة نجد كتاب محمد بن أحمد بن قاسم العقباني تحفة الناظر²، والكتاب الآخر الذي حققه تحقيقا مفصلا وهو التسيير في أحكام التسعير لأحمد سعيد المجيلدي، وهو جد مهم في التاريخ التجاري لدول المغرب في الفترة الوسطى وحتى الحديثة.

ويمكن القول أخيرا أن اهتمام الأستاذ لقبال بكتب الحسبة لم يكن اهتماما عليها فقط أي يقصد التأريخ والمنهج بل دعوة لإحياء مثل هذا النظام ودراسته تاريخيا دراسة منفصلة³ عن اختصاصات التاريخ الأخرى مثل السياسة والاقتصاد وتاريخ العلوم، فهي دعوة لدراسة نظام من النظم الذي تقاطعت فيه المظاهر الدينية والاقتصادية والثقافية وحتى الاجتماعية تقاطعا واضحا عبر كتب المحتسبين وسيرهم المدونة في كتب النوازل، فاهتمامات الأستاذ لقبال لم تكن اهتمامات مؤرخ يريد صياغة منهج الكتابة التاريخية للمغرب الإسلامي عبر هذا النوع من المصادر الذي اتسع المغاربة في التأليف فيه بل مهمتهم بمثل هذا النظام و تاريخه و تاريخ أمته التي سعى في أغلب كتاباته إلى رسم معالم الروابط التاريخية والجغرافية بين فتراتها و أطرافها⁴.

¹ لقبال، الحسبة المذهبية، ص 26.

² نفسه، ص 93.

³ توجد نسخة منه في المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1353.

⁴ للدكتور موسى لقبال مقالات ذات أهمية منها :

البنية ومسيرة التاريخ الوطني، مجلة الأصالة، (69-75) العدد الأول، السنة الأولى، محرم 1391 هـ/1971 م.

ودراسة تحليلية لكتاب تحفة المحيين و الأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب لعبد الرحمن الأنصاري، مجلة

الأصالة (106-113)، السنة الأولى العدد الثاني ربيع الأول 1391/ماي 1971 م.

تقديم كتاب "عقبة بن نافع"

للأستاذ الدكتور موسى لقبال

د. محمد بن عميرة

جامعة الجزائر

لقد اخترت، لهذه المناسبة التوقف عند كتاب "عقبة بن نافع" أصغر كتب أ.د. موسى لقبال حجما وتبسيط الضوء على المنهج المتبع في تأليفه والأفكار الجديدة فيه، ومما دفعني إلى هذا العمل بالذات أنني عندما تصفحته أول مرة، بدا لي وكأنه موجه للأطفال، في شكل قصص ملحمي، لكن فكري عنه سرعان ما تغيرت عندما أخذت في قراءته، إذ تبين لي عندها أنه كتاب علمي بأتم معنى الكلمة.

ذلك أن منهجه اعتمد على أهم المصادر الموثوق بها في استقاء المعلومات المستخدمة في كتابته، سجلها بأسلوب علمي، حديث يسهل فهمه لدى القارئ العادي، ومع أنه لم يعتمد إلى توثيق تلك المعلومات، كلما دعت الضرورة إلى ذلك، مثلما جرت عادة الباحثين، إلا أن المطلع على الموضوع، لا يخفى عليه أنها مأخوذة فعلا من تلك المصادر ومن ثم يدرك أن الغرض من عدم التوثيق لابد وأن يكون تلافي التعقيدات الناجمة عن التهميش، بالنسبة للقارئ غير المتخصص، مع العلم أن التوثيق المحذوف، لو أضيف إلى هذا الكتاب لزاد في حجمه الكثير، ولما كان عندئذ، أصغر تلك الكتب وإذا ما وضعت له مقدمة وفهارس وملاحق، يمكن تقديمه كأحدى الأطروحات الجامعية الممتازة.

ومما يزيد مضمون هذا الكتاب أهمية أن صاحبه لم يكتف في تأليفه بجمع مادته من مصادرها الجديدة وإعادة صياغتها بأسلوب علمي تسهل قراءته ويسهل فهمه بالنسبة للأطفال بل إنه كان يتوقف، كلما دعت الضرورة، للقيام بالاستنتاجات والتعليقات

الضرورة التي تتطلبها كل عمل علمي محترم ينجزه باحثون كبار، من أمثاله وهذا الذي سأحاول إبرازه بعد إعطاء فكرة عامة عنه.

تلخيص مضمون كتاب عقبة بن نافع:

يتكون كتاب "عقبة بن نافع" في طبعته الرابعة من تسع وتسعين صفحة تحتوي على ست وثلاثين مبحثاً أوضح فيها أ.د موسى لقبال أنه اختار عقبة كنموذج لقائد في مرحلة الشباب ليكون درساً لغيره في التضحيات والتمسك بالمبادئ والتفاني في خدمة الغير ثم يذكر الأستاذ أن عقبة صحابي بالمولد، وابن عم لفتح مصر، عمرو بن العاص، قدم معه رفقة والده الذي كان في جند مصر وسنه لا يزيد عن الرابعة عشر سنة، وهناك تدرب على القتال وعلى تحمل المسؤولية في ولايتي عمرو وعبد الله بن أبي سرح، ومنذ 22 هـ أنجز أعمالاً كبرى في ميادين الكشف والحرب والتنظيم والإدارة في منطقتي برقة وزويلة، وشارك في حملة العبادلة سنة 27 هـ، وقدم تسهيلات لقائدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كلّفه بالسفر إلى المدينة، بمعية عبد الله بن الزبير، لتبشير الخليفة عثمان بالنصر، وأثناء قيام الفتنة الكبرى ملأ الفراغ الذي تركه العرب في برقة، وبعد هزيمته وعودة عمرو بن العاص إلى ولاية مصر تصدر النشاط هناك، وخاصة بعد وفاة ابن العاص إلى جانب قائد جند مصر معاوية بن حُديج، منذ 45 هـ، وهو الذي نصحه باتخاذ نقطة ارتكاز دائمة في إقليم قُمونية، عندما التحق به هناك على إثر الحملة التي وصل فيها إلى كَوَّار مروراً بـودان فجَرمه، والتي دامت خمسة أشهر، ويبدو أنه عاد مع ابن حديج إلى دمشق حيث سمع فيه الخليفة ثناءً من قائده كان بمثابة ترقية له لتكليفه بولاية إفريقية¹.

وهذا ما فعله معاوية بن أبي سفيان سنة 50 هـ/670م حيث عينه، لأول مرة قائداً مستقلاً عن ولاية مصر فطورَ نظرة العرب إلى بلاد المغرب بتأسيس نضال يركز على قاعدة استراتيجية ثابتة في عمق الأرض الإفريقية، والتنسيق مع السكان للعمل ضد الروم، وترشيدهم سياسياً ونشر الإسلام بينهم لكن عقبة سرعان ما عُزل من منصبه بأبي المهاجر

¹ لقبال موسى: عقبة بن نافع، ص 9 فما بعدها.

دينار مولى مسلمة بن مُخلد، والى مصر، لدوافع شخصية وذلك سنة 55 هـ وأساء أبو المهاجر عزله وسجنه وهجر كمدينته القيروان، وأسس مدينة "تاكيروان" بالقرب منها لتكون بدلا عنها، وراح ينتهج سياسة مختلفة عن سياسة عقبة قوامها الاعتماد على مساهمة السكان المحليين، مع الفاتحين، في توسيع عمليات الفتح، وفي هذا الإطار قُرب إليه شيخ قبيلة أوربة البرنسية كسيلة بن لمزم بعد إسلامه¹.

وقد اضطر أبو المهاجر إلى إطلاق سراح عقبة فسافر إلى المشرق ليشكو أمره إلى الخليفة لكنه لم يحصل على نتيجة إلا بعد سبع سنوات من عزله، أي سنة 62 هـ، عندئذ أعاده الخليفة يزيد بن معاوية الذي تولى الأمر بعد أبيه، إلى ولايته، فكان أول ما قام به عند حلوله بمقرها، القبض على أبي المهاجر وتقييده في الحديد ومصادرة أمواله وتهجير السكان، من تيكيروان وتخريبها، إلى القيروان مع تصليح ما خرب منها ونال عقبة بأذاه كسيلة، على اعتبار أنه صديق لأبي المهاجر، ولم تكن له علاقة بخلافهما الشخصي ثم خرج على رأس حملة كبرى في اتجاه المغرب الأقصى، دون إعداد كاف لها، متبعا إقليم الهضاب إلى باغاية دون أن يتمكن من حصنها، ومنها قصد إقليم الزاب، حيث هزم الروم حصونهم في معركة وادي سهر، وادي القصب أو وادي المسيلة، ولم يشأ تضييع وقته في حصار لا فائدة منه فسار إلى تاهرت حيث خاض معركة ضد الروم والبربر وهزمهم بدورهم إلى حصن تاهرت والحصون المجاورة له².

ومن تاهرت قفز إلى طنجة أين استقبله الكونت يوليان وتنازل له عن الحكم وأرشده إلى مناطق البربر الوثنيين فقصدهم بالسّوس الأدنى، المعروفة بتامسنا فـ"وليلي" فـ"وادي درعة" حيث أسس مسجدا، ثم سار إلى منطقة تافالنت ليدور بعدها بجبال "درن" أي الأطلس الأعلى وتوغّل في مضارب صنهاجة الجنوب، أهل اللثام فأطاعوه دون قتال ومن هناك انتقل إلى مدينة أغمات فالسوس الأقصى فيإلى "وادي نفيس فأخضع مجموعة

¹ نفس المرجع السابق، ص 30 فما بعدها من عدة صفحات.

² نفس المرجع، ص 37 فما بعدها من عدة صفحات.

من الروم والبربر و وضع أساس مسجد أيضا ومسجد آخر بـ"إنجلي"عاصمة الإقليم، وبعد استجابة جزولة لدعوة الإسلام وصل إلى ماسة فيلى آسفى على ساحل المحيط"ماليان غيران يطوف" وبعد إدخال قوائم فرسه في مياه البحر شرع في العودة من حيث أتى¹.

وقد كسب -خلال عودته- قبائل كثيرة للإسلام، منها حاحة ورجرجة ومصمودة، وترك، عند وادي تنسيفت أحد أصحابه، ويسمى شاكر لتعليم أصول الدين إلى أهل تلك الجهة لكنه لقي مقاومة من قبيلة دُكالة المنتشرة بين تنفيست ووادي أم الربيع، كلفته خسائر معتبرة في الأرواح، ولما وصل إلى ثغر طبنة أمر أغلب أصحابه بالعودة إلى القيروان سريعا، ولم يكن يعلم بخيوط المؤامرة التي حيكت ضده أثناء غيابه والمتثلة في طمس ابن الكاهنة لمعالم الأحساء وفي إحياء الروم لتحالفهم مع البربر، وهي الفرصة قد واتتهم، عندما بقي هناك في قلة من أصحابه فراحوا ينبّهون عن طريق عيولهم، كسيلة الذي كان موجودا بمعسكره، ليأخذ منه ثأره وكان ذلك بالفعل، إذ حشد جمعا كبيرا من البربر والروم وتمكّن من قتل عقبة وأصحابه بمن فيهم أبو المهاجر دينار بتهودة وذلك سنة 63 هـ².

وقد أسفر قتل عقبة عن عدة نتائج من بينها اشتهاار قهودة، على مستوى بلاد المغرب، لما تحتضنه من جثمان أولئك الشهداء وتغيير اسمها إلى مدينة سيدي عقبة التي أصبحت مزارا مقدسا للمسلمين المغاربة الذين صاروا يعتقدون في كرامات عقبة كأحد أولياء الله الصالحين؛ كما نجم عن تلك الكارثة أيضا آثار سيئة في نفوس الجالية الإسلامية بإفريقية مما دفعها إلى الجلاء الأول عن القيروان وإحداث فراغ سياسي دام خمس سنوات سيطر فيها كسيلة على تلك المنطقة سيطرة كاملة، وفي سنة 69، بعدما أتاحت الفرصة للخليفة عبد الملك بن مروان أرسل إمدادات إلى نائب عقبة المنسحب من القيروان والذي بقي مرابطا ببرقة وأمره بالزحف على كسيلة والانتقام منه فنقذ زهير الأمر والتقى بالقائد

¹ نفس المرجع، ص 47 فما بعدها من عدة صفحات.

² نفس المرجع، ص 49 فما بعدها من صفحات.

الأوربي عند سهل محس فقتله وشرّد بقايا جيشه ثم انسحب زهير إلى برقة، دون أن يترك واليا على إفريقية لكن الروم الذين اغتتموا فرصة غيابه للإغارة على سواحلها تمكنوا من قتله هو الآخر - مع جماعة قليلة من أصحابه - بـ "درنة" عندما حاول تخليص بعض سبايا المسلمين منهم¹، وخصص أ.د موسى لقبال حيزاً من كتابه لتراث عقبة وكراماته المتمثلة في اكتشاف فرسه الماء برجليه، عندما كاد هو وأصحابه يموتون عطشا بصحراء فزان وإكرام الله له فألهم مكان المحراب وتحديدًا تجاه القبلة عن طريق الرؤية المنامية وطاعة الحيوانات المتوحشة له عندما خاطبها بالخروج من الوادي الذي بنيت عليه مدينة القيروان، وتقبل الله سبحانه وتعالى دعوته فمكّنه من أبي المهاجر للانتقام منه وغير ذلك².

وتطرق أ.د موسى لقبال إلى انتشار عناصر قریش وفهر في الزاب وهودة بعد مقتل عقبة وإلى وجاهة أبنائه في إفريقية والزاب ودورهم في إنجاح فتح المغرب إلى جانب ولاته وكذلك دورهم في فتن إفريقية ودور الإمارة الفهرية، منذ تأسيسها على يد عبد الرحمن بن حبيب في بداية سنة 127 هـ إلى أن أسقطتها قبيلة ورفجومة الصفرية سنة 140 هـ³.

آراء أ.د موسى لقبال في تاريخ عقبة بن نافع:

تلك هي خلاصة المعلومات التي استقاها الدكتور موسى لقبال من المصادر العربية وهذبها بأسلوبه العلمي الشيق ولو اقتصر عمله على ذلك لكان كافياً، لمن يطلع عليه، أن يقدر جهده تقديراً كبيراً لكنه تجاوز ذلك كثيراً، بما نفخ فيه من روح أفكاره النيرة والناضجة التي تدل على سعة اطلاعه حول الموضوع ودرايته بخفايا الأمور وهو ما جعله يوفق إلى أبعد الحدود في تدخلاته المختلفة التي أضاف فيها أشياء كثيرة في شكل تحليل بعض القضايا والتعليق على بعض الأمور والاستنتاجات التي توصل إليها كلما أتاحت

¹ نفس المرجع، ص 56 فما بعدها من صفحات.

² نفس المرجع، ص 70 فما بعدها.

³ نفس المرجع، ص 75 فما بعدها من عدة صفحات.

الفرصة لذلك، وتلك هي الأمور التي سنحاول التوقف عند بعضها محاولة لابرار الجديد الذي أتى به الأستاذ لقبال في الموضوع.

من ذلك أنه حاول ملأ الفراغ الذي تركته المصادر عن نشاط عقبة منذ سنة 27 هـ إلى سنة 40 هـ أي منذ أن ظهرت ملامح الفتنة الكبرى في الأفق إلى عام الجماعة، ورأى أنه لو لم يكن عقبة يمثل الحضور العربي الإسلامي في برقة في هذا الوقت، لأمكن القول بأن العرب انصرفوا نهائيا عن هذه البلاد وربما بدا لكثير من هذه القبائل التي أحست فراغا أنها أصبحت غير مقيدة بالعهود التي تربطها مع الفاتحين وهو ما دفعها إلى إحداث حركات امتناع عن أداء الجزية في برقة وصحرواتها، وحصول تمرد في طرابلس ووّدان ونواحيها، ولم يستطع أن يتدخل في ذلك لأن إمكانياته لم تكن تفي بالغرض، فكان حضوره إنما يمثل رابطة الحلف والصدقة، وبقي قلقا يتنقل باستمرار، بين برقة حيث بيته وبين القسطنطينية حيث منزل أبيه، في انتظار انتهاء الفتنة بين المسلمين، ويلاحظ مؤلفنا أنه على الرغم من أن المصادر لا تذكر ما إذا كان قد عمل لصالح هذا الفريق أو ذاك في الحرب فالأرجح أن يكون في شق ابن عمه عمرو بن العاص، إذ أنه بعد استرجاع المسلمين وحدثهم وعودة ابن العاص إلى ولايته بمصر، عاد النشاط العربي إلى الجبهة المغربية، ولما تصدر ذلك النشاط، قائد جند مصر، معاوية بن حديج السكوني وخاصة بعد وفاة عمرو بن العاص سنة 43 هـ، حيث كلفه الخليفة معاوية بن أبي سفيان بمهمة مواصلة عمليات الفتوح هناك، منذ سنة 45 هـ، وقد لقيت تلك الحملة مساعدات جمة من عقبة الذي أصبح بمثابة خبير في حرب بلاد المغرب وخاصة في الصحراء، وأمكن لابن حديج، بناء على رأي مساعديه، وأهمهم عقبة، أن اتخذ نقطة ارتكاز دائمة في إقليم قمونية، ومن هذا المكان الذي حط فيه ابن حديج رحاله أرسل حملات صغيرة للكشف والفتح، وفي هذا الإطار كلّف عقبة بمسح المنطقة الصحراوية، ما بين سُرْت وكُوَار، مروراً بوّدان فجرمه، عاصمة فزان، فقصر خاور، عاصمة كُوَار، جنوب فزان، ولما تعرض لعطش شديد أثناء عودته، جعل فرسه يبحث برجليه، في الأرض، من شدة عطشه حتى

كشّف عن صفاه انفجر منها الماء وفي هذه النقطة بالذات نرى الأستاذ لقبال لم يأخذ بحرفية ما ذكرته المصادر، من أن صلاة عقبة ودعاءهما اللذان جعلاً الفرس يقوم بذلك.

وقد التحق عقبة من هناك برجال الحملة الرئيسية في إقليم قمونية بجوار معسكر القرن، مروراً بزويلة، فسُرت فقسطيلية فقفصة، ويرى الأستاذ لقبال أنّه حاز، على ما يبدو على تقدير ابن حديج بفضل إنجازاته الكبرى في الصحراء والتي أضيفت إلى أعماله في المناطق الساحلية الشمالية وانعقد الودّ بين الرجلين، ويبدو أنّهما عادا معا إلى دمشق ويكون الخليفة معاوية قد سمع من ابن حديج ثناء جميلاً على عقبة اعتبر وكأنه تركية خاصة له لتوليته على إفريقية، وهذا ما حدث فعلاً سنة 50 هـ/670م¹.

ويدخل أ. لقبال في استراتيجية عقبة تطوير نظرة العرب إلى بلاد المغرب بالارتكاز على قاعدة استراتيجية ثابتة في عمق الأرض الإفريقية، وعلى مبدأ التنسيق مع السكان ضد عدوّ مشترك واحد هو الروم لحرصه الأكيد على تحرير السكان وترشيدهم سياسياً ونشر الإسلام، ويردّ الأستاذ إعجاب أصحابه بفكرة تأسيس تلك القاعدة إلى بعد قاعدتي برقة والفسطاط²، وفيما دعاه للقيروان، بعد إتمام بنائها "اللهم املأها علماً وفقها وأعزّها الإسلام وامنعها جابرة الأرض"، يجد الأستاذ لقبال ما يوضح الشق الثاني من استراتيجيته وأهدافه الإنسانية النبيلة التي لا تخرج عن نشر الإسلام وثقافته وتراثه وتشجيع العلم والفكر، إذ أراد أن تكون منارة للثقافة والمعرفة ومما لفت نظر الأستاذ أن حملة عقبة هذه لم تباشر أعمالاً حربية إلا في نطاق ضيق، ومن أجل صرف السكان عن مضايقة المسلمين المنهمكين في عمليات البناء ولهذا فإن تلك الحملة تعتبر عملاً حضارياً، الهدف منها هو بناء مدينة القيروان كوسيلة لتحقيق الهدف الأسمى، وهو إتمام فتح بلاد المغرب، ونشر الإسلام، ولم تحدّثه نفسه بتنظيم غارات لأخذ الغنائم والأسلاب التي كانت محلّ رغبة

¹ نفس المرجع، ص 27 فما بعدها.

² نفس المرجع، ص 31

المسؤولين في كل من مصر ودمشق وهذا ما جعل الدسائس تحاك واتهم تلفق له وفي النهاية أبعد عن الميدان سنة 55 هـ¹.

ويرد أ.د. لقبال أسباب عزل مسلمة بن مخلد الأنصاري لعقبة لكون الأوّل أراد أن يراقب بنفسه النشاط في إفريقية عن طريق أحد صنائعه، وعقبة ليس من بينهم بل إنه يقف معه في الأقدمية والتاريخية، بدون عقدة نقص، وكان مسؤولاً أمام الخليفة ولم يكن يرجع إلى مسلمة في أي شأن، ولم يكن هذا الأخير ينال منه أي مغنم جديد فقوي عنده الدافع الشخصي من وراء إبعاد عقبة عن ولاية المغرب ويكون قد برّر رأيه أمام الخليفة بضرورة سلوك سياسية جديدة في بلاد المغرب قوامها السلم والتهذئة وجذب السكان بدلا من سياسة الحرب والعنف التي اتسمت بها أعمال عقبة ويدل على هذا أن مولاة أبا المهاجر دينار الذي حل محل عقبة انتهج سياسة مغايرة لسياسة عقبة².

ومما جعل الخليفة يزيد بن معاوية يقدم على ردّ عقبة إلى منصبه أنه لم يكن، في نظر أ. لقبال، ملزماً بأي شيء تجاه مسلمة، مثلما كان أبوه الذي استفاد من مساعدته له في الوصول إلى منصب الخلافة، بالإضافة إلى أن يزيد كان في وضع دقيق بسبب معارضة أبناء الصحابة لخلافته، وهو ما جعله يعمل على التقرب من رجالات قريش وإرضاء كبرائهم ليقو بهم، ويبدو أن عقبة كان من بين هؤلاء الذين ساندوه في مقابل إعادة اعتباره كرائد لفتح إفريقية، وهذا يعني أن نشاط عقبة في عاصمة الخلافة أثر في نهاية الأمر³.

وفي إقحام عقبة لفرسه في ماء البحر المحيط (الأطلسي) يرى أ. لقبال أنه عبر عن إصراره على التماسد في حركة الجهاد، لو علم أن هناك أقواما وراءه، كما يعني أنه اعتبر نفسه قد أنهى حركة فتح بلاد المغرب، ووضع أسس إسلامه واستعرا به بالمساجد التي بثها هنا وهناك، وبالقبائل التي كسبها للإسلام، فلم يبق بعد كل هذا إلا العودة⁴ وعن سبب

¹ (11) نفس المرجع، ص 33-34.

² نفس المرجع، ص 35-36.

³ نفس المرجع، ص 42-43.

⁴ نفس المرجع، ص 49.

أمر عقبة لمعظم رجاله بالإسراع إلى القيروان يقدر الأستاذ موسى أن يكون ذلك راجعا لأمر خاف منه على عاصمته، خاصة وأن الروم كانوا يعدون منذ وقت، للإنقاص من أطراف المسلمين ويمدّون الجسور من جديد للبربر من أجل التعاون ضد المسلمين¹.

ومن أسباب فشل المسلمين في هودة يضيف أ.لقبال إلى عدم احتفاظ عقبة بكامل جيشه، عدم إبقاء جاليات صغيرة في القلاع والمدن التي أصبحت موالية له، كي يستفيد منها عند حدوث أي طارئ، فعقبه رسم أمامه خطة للقيام بعمل ثوري شامل، لم يسبقه إليه أحد من قبل ولن يدركه أحد بعده من الفاتحين وذلك شئ بديع ومفيد لو أنه اعتمد على مجموعة من القواعد للطوارئ أو على سياسة التعاون مع السكان، وكانت رغبته في احراز نصر سريع وشامل للإسلام في بلاد المغرب، تحريرا له من التبعية، دفعته إلى استعمال الشدة والعنف مع السكان، فكثّر أعداءه المتربصون به أخذا بثأرهم و إرضاء لأحقادهم الشخصية، دون مراعاة المصلحة العليا للبلاد المغربية ولجميعها الإسلامية، وإذا كان من سمات القائد الماهر اصطناع اللين حتى مع أعدائه، كسبا لهم، والصفح عمن أخطأوا في حقه وإنزال العقوبة بالمذنبين شريطة أن يتحقق من ذنوبهم، فإن عقبة لم يوفق في كل ذلك، حسب اجتهاده مثل كل البشر، وأجره عند الله كبير، لأنه أخلص لعقيدته ولبلدته المثالي، وتشبع بحب الخير لسكان المنطقة، فأراد أن يحملهم على الرشد والهداية ولو عن طريق الإكراه.

وقد يكون خوف عقبة من عزل مفاجئ في ولايته الثانية هو الذي حتم عليه الإسراع بالعمل والقيام بهذه المغامرة التي انتهت بفشل ذريع، وكأنه كان يتوقع تلك النتيجة، وقد يكون كره الحياة والتعامل مع أناس لا يقدرّون جهوده، فجعل حداً لحياته في ميدان الجهاد².

¹ نفس المرجع، ص 50.

² نفس المرجع، ص 54 فما بعدها.

أما النتائج التي تمخضت عن معركة قهودة فهي خسارة عدة مئات من خير المقاتلين العارفين بالمنطقة وبسكانها، سقطوا كلهم في قهودة التي أصبحت، بعد هذا الحادث الخطير من أشهر بلدان المغرب العربي، بعدما كانت قرية متواضعة مغمورة، لأن جميع الشهداء دفنوا بها واهتم المسلمون بقبورهم فميزوها وخصصوها وبنوا بجوارها مسجدا جامعاً ومجموعة مزارات بقيت محل رعاية ولاية إفريقية، وخاصة أحفاد عقبة الفهريين وصارت تعرف بسيدي عقبة، ويعتبر مكان دفنهم من أقدس البقاع في أغلب بلاد الإسلام لما ضمه من عدد الصحابة الهائل، وقد غدا ضريح عقبة مزاراً مقدساً يقصده المسلمون المغاربة في كل وقت، فضلاً عن صيرورته، فيما بعد، مكاناً لقراءة القرآن والسنة وعلومها والفقه وأصوله وعلم التوحيد¹.

وعن السرايا التي كان كسيلة يخرجها من القيروان بعد استيلائه عليها يرى أ. لقبال أن ذلك كان للإعلام وجس النبض لا للحرب أو الانتقام، إذ لم يشأ أن يظهر - بعد انتصاره - بمظهر الحاكم القاسي أو العنصري، بل اعتبر نفسه مسؤولاً عن الجميع، وراح يبعث الطمأنينة في نفوس من بقي من المسلمين هنا وهناك، ولم ير ضرورة لتتبع آثار المنسحبين منهم، مع أنه كان يمكنه الإضرار بهم لو أراد، ولم تبدو عليه أية بادرة تشعر بندمه عما وقع منه في حق عقبة وأصحابه ولم تشر النصوص إلى أية آراء أو أقوال جرت على لسانه، وفيها يُشعر بالعداء للعرب أو الإسلام، وقد عرف للقيروان قيمتها السياسية، وقُدُسيتها بالنسبة للمسلمين، فاحتفظ بها قاعدة للولاية، ولم يمس الآثار الإسلامية فيها، وأهمها مسجد عقبة الجامع، وتمتع المسلمون في عهده بالسلام والطمأنينة، رغم ما كان يربطه ويشده إلى نصارى البربر والروم بسبب مساعدتهم له، واستمر كذلك من سنة 64 إلى سنة 69 هـ وهذا ما يستنتجه باحثنا من واقع الأحداث، رغم مؤامرة الصمت على هذه المرحلة التي نالت من جور المؤرخين، فحسبوا لعينة لأن مصدر الأحداث رجل ثائر ودموي ولعين، ويعتقد بعض المؤرخين أنه ارتد عن الإسلام، لأنه تعاون مع أعداء الإسلام في بلاده. وكانت الردة عن الإسلام ظهرت قبل وفاة الرسول (صلعم) وبعد وفاته بين

¹ نفس المرجع، ص 56-57.

قبائل عربية كثيرة ومنع أصحابها الزكاة حقاً، وقالوا كلاماً فيه مسٌ بالإسلام، وثأروا لإجهاض دولة الإسلام، فهم مرتدّون دينياً وثأرون سياسياً، أما كسيلة، فلم يثبت عنه أنه قال كلاماً فيه مسٌ بالإسلام، ولم يمنع أية شعيرة من شعائره، مما يدفع عنه قهمة الردّة الدينية التي خلط المؤرخون بينها وبين الثورة السياسية وتضافرت أغلب مصادر الفتح الموثوق بدقتها على ترديدها، لكن كسيلة كان مخلصاً للإسلام وفهم أن موقف عقبة منه مرجعه صحبته لأبي المهاجر بدليل أن هناك رأياً يقول بأن كسيلة إنما ثار لتخليص صديقه أبي المهاجر، وهذا إن صحّ، يتمّ عن النبل والوفاء تجاه صديق حميم. ومما ينفي عنه قهمة الردّة أيضاً موقفه من المسلمين المعاهدين في القيروان بحيث فصل أن يتركها ويلقى قوات الخلافة بعيداً عنها، حفاظاً على عهوده معهم، إذ لم يغب عنه أنهم سيتحرّكون لمساعدة إخوانهم وسيضطّر لعاقبتهم وإذا حصل ذلك منه، يكون قد أساء إلى ما اعترف به لهم من عهود وأمان فيصبح ناكثاً لعهوده مما يدلّ على أن الرجل بقي على إسلامه. أمّا ما يذهب إليه المتمسكون بتهمة الردّة في معناها الديني استناداً إلى أن كسيلة تعاون مع الروم ونصارى البربر ضد المسلمين وإلى كونه تأمر على قتل عقبة ورفاقه مع قوم معادين للإسلام فحكمهم غير صحيح، لأن هاتين الجريمتين، رغم أنهما كبيرتان فإنهما بكل تأكيد، لا يخرجان مرتكبيهما عن حظيرة الإسلام، إذا لم تبدر منه بوادر كإنكار المعلوم ضرورة من قواعده نوهذا رأي المعتدلين من أهل السنة، وهو مبني على أن بعض المسلمين تجرّؤوا فقتلوا خليفتهم عثمان وبعضهم تقاتل في حرب الجمل وصفين وبعضهم قتل آخر الخلفاء الراشدين عليّاً، ولم يقدح أحد في إسلام هؤلاء جميعاً، وقياساً على ذلك، لا يجوز ادعاء ردّة كسيلة، كما أن التعاون مع نصارى البربر والروم، مع أن خطيئة كبرى، فهو لا يؤثر على عقيدة صاحبه لأن مهادنة معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان للروم في منطقة النفور ودفعهما الأموال إليهم حتى يتفرّغا للأحداث الداخلية، لم تؤثر عليهما ولم يقل أحد عنهما أنهما مرتدان، ونفس الشيء بالنسبة لأُمويي الأندلس الذين تحالفوا مع الروم البيزنطيين، كي يدفعوا عنهم أخطار العباسيين المتحالفين مع الكارولنجيين ضدّهم¹

¹ نفس المرجع، ص 60 فما بعدها من صفحات.

وعن عودة زهير بن قيس بسرعة إلى المشرق، بعد قتله كسيلة وهزيمة جيشه، يرى الأستاذ لقبال أنه فعل ذلك اعتقاداً منه أن مهمته هي تأديب كسيلة والثأر لعقبة، وقد انجز ذلك، ثم إن الخليفة لم يكلفه من جديد بشيء آخر، ولم يأمره بترك من ينوب عنه في القيروان، لذلك تركها دون وال يمثل الخلافة، ففضل الابتعاد عن جوّ العداء والتحفظ الذي وُجد بعد معركة مسم حتى يرجع الوضع إلى الهدوء تدريجياً، فضلاً عن كونه عاش ظروفاً صعبة كئائب لعقبته في القيروان، وتحمل صدمة استشهاد¹

ويعتبر د. لقبال عقبة تراثاً مشتركاً لبلدان المغرب الإسلامي لأنه ارتاد صحراء ليبيا و وضع أساس القيروان وفتح أرض المغرب الأقصى، وضيحه موجود في المغرب الأوسط وهذا ما جعل الجميع يتعلقون به وهو بالنسبة للعامة وأهل الدين والصلاح وليّ من الأولياء، خصّه الله بكرامات وخوارق - والكرامة للولي بمثابة المعجزة للنبي - وهي ميزة يخص بها الله أخلص عباده المتقين، فيستجيب لهم، ومن ثم كان تاريخه الشعبي ثرياً بأخبار كراماته².

ومما يذهب إليه الأستاذ لقبال أن العنصر الفهري القرشي لم يبق تواجد ميزة القيروان وحدها بل توزع على عدة جهات ومدن من إفريقية ومنطقة الزاب وفاس، حتى أن بعض الجغرافيين والرحالة، من عصور متأخرة نسبياً لاحظوا كثافة هذا العنصر في مدن الزاب، مثل بسكرة وطولقة وقهودة، وفاس، وقد اضطر بعض أبناء عقبة اختيار جوار أبيهم للاستقرار في قهودة بعد وفاته، ثم لحق بهم أقرباء وموالي بحيث كثر عنصر قريش بها، وكانت لأبنائه وأحفاده مكانة مرموقة بين السكان في بلاد المغرب فالتفت حولهم جماهير السكان وازداد مجدهم واختلطوا بهم وأصبحوا بلديين أو مغاربة أهليين، وكانوا بالتالي حلقة وصل بين السكان وبين ولاية الخلافة الذين استفادوا من مساعداتهم الكثيرة وخاصة منهم حسان بن النعمان وموسى بن نصير، وكان لهم دور سياسي إلى جانب السكان في الإطاحة بالوالي يزيد بن أبي مسلم الذي أساء السيرة فيهم، ودور آخر في التصدي

¹ نفس المرجع، ص 67-68.

² نفس المرجع، ص 70 فما بعدها.

لثورات الخوارج الصفرية التي اندلعت في طنجة سنة 122 هـ إلى جانب عبيد الله بن الحجاب وكنثوم بن عياض القشيري الذي كان يساعده قريه بلج بن بشر القشيري¹.

وكان من بين هؤلاء عبد الرحمن بن حبيب الذي تمكن من العبور إلى الأندلس، بعد هزيمة سبؤ أو بقدورة التي ألحق فيها الصفرية هزيمة بجيش الخلافة، ثم ما لبث أن عاد إلى تونس ومنها زحف إلى القيروان، فسيطر عليها، دون قتال، بعد انسحاب واليها منها إلى المشرق وبذلك تم تأسيس الإمارة الفهرية سنة 127 هـ، وتعود أسباب نجاح قيامها إلى انتماء عبد الرحمن لقريش وانتسابه إلى قبيلة فهر وإلى عقبة، ولقي نظامه تأييدا ودعما من عناصر قريش ومن السكان في حواضر إفريقية وبواديها، عربهم وبربرهم، وتعود أسباب ذلك النجاح أيضا إلى ميزات مؤسستها، وهي المغامرة والشدة والتقلب والاعتداد بالنفس، ولما وصل الأمر إلى القطيعة بينه وبين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، أزعج ذلك جمهورا سنيا كبيرا كان يرى أن الخليفة العباسي هو صاحب السيادة الشرعية على البلاد، فحدث تحرك ضد الانفصال ودخل أفراد الأسرة الفهرية في فتنة داخلية انتهت بالقضاء على إمارتهم، على يد الصفرية سنة 140 هـ. ويرد أ. لقبال أسباب فشل تجربة الفهرين إلى الخلاف الداخلي الأسري حول السلطة، وحول الولاء لمن يكون، هل للشعب المغربي أو للخلافة العباسية، و إلى أن موقف آل عقبة جميعا من العلاقة مع الخلافة، أساء إلى وضعهم. أما جماهير السنة الذين بقوا ينظرون إليهم بأنهم شرعيين، وإلى أن حرصهم على إنشاء حكم وراثي في بلاد المغرب جعلهم يصطدمون بقوى إقطاعية في مدن وجهات من إفريقية، تحركها زعامات محلية رأت من مصلحتها إنهاك هذا النظام قبل أن يستفحل أمره ويفرض الوحدة والأمن والسلام على جميع القوى الصغيرة، والدليل على ذلك ثورة جماعة من العرب والبربر في وقت واحد ضد عبد الرحمن مثل عروة بن الوليد الصدي في تونس وعطاف الأسدي والبربر في الأماكن الجبلية الحصينة وثابت الصنهاجي في باجة، وإلى أن حرص الفهرين على الدفاع عن مذهب السنة والجماعة

¹ نفس المرجع، ص 71 فما بعدها من عدة صفحات.

جعلهم يصطدمون بفئات الخوارج الاباضية والصفورية الذين تمكنوا من القضاء عليهم بعد أن أنهكتهم فتنهم الداخلية، ومع ذلك فإن النظام الفهري، كما يرى د. لقبال ترك بصماته هنا وهناك، في بلاد المغرب حيث أعاد ابن حبيب ذكرى عقبة، بتلك الحملات العسكرية، واهتم بشؤون طرابلس الغرب فأعاد تجديد سورها، وبالأندلس، فعين ابنه يوسف واليا عليها، ولما دَوَّخ المغرب كله وهدأ مَنْ به، التفت إلى الغزو الخارجي، في كل من صقلية وسردينية وبلاد الافرنج، فغنى وسي الكثير وفرض هيبة الإسلام على تلك المناطق، ومن خدمات الفهريين أن فاطمة بنت محمد الفهرية المعروفة بأَم البنين اشترت أرضا بفاس الادريسية في عصر متأخر نسبيا، أي في سنة 245 هـ — ووضعت فيها أساس مسجد عرف بمسجد القرويين، وأضحى بمثابة جامعة إسلامية كبرى أدت خدمات ثقافية ودينية لسكان بلاد المغرب والسودان، ومن أحفاد تلك السيدة الأسر الفهرية في حاضرة فاس.

فأراء الأستاذ لقبال فيما أُلْفِه عن عقبة إذا يمكن تلخيصها في إعطاء تفسيرات أو القيام باستنتاجات أحيانا، وتحليلات أحيانا أخرى، قصد ملئ بعض الفراغات التاريخية التي تركتها المصادر عن قصد، مثلما حدث للفترة التي سيطر فيها كسيلة عن إفريقية، وعن غير قصد كما حدث أثناء وقوع الفتنة الكبرى، وفي الفترة التي تلتها، كأسباب تعيين عقبة على رأس ولاية بلاد المغرب والتغيير الاستراتيجي الذي أحدثته هناك وأسباب عزله من قبل مسلمة بن مخلد الأنصاري وتبريره ذلك أمام الخليفة معاوية بن أبي سفيان وأسباب رده إلى ولايته من طرف الخليفة يزيد بن معاوية وأسباب اتخاذ عقبة لبعض الإجراءات كإقحام فرسه في مياه البحر، وأمره لمعظم لرجاله بالإسراع إلى القيروان، عند حلوله بطبنة، وأسباب فشل المسلمين في هودة ونتائجها، ونشاط كسيلة في إفريقية أثناء سيطرته عليها، ومحاولة توضيح موقفه من الإسلام والمسلمين، وما إذا كان ارتد أم لم يريد، وأسباب عودة زهير بن قيس إلى المشرق، بعد قتله كسيلة، دون أن يترك من ينوب عنه في القيروان، وعما خلفه عقبة من تأثير على عقيدة الناس ونشاط العنصر الفهري بعده وما تركه من آثار في البلاد.

آراء وأفكار مستخلصة

من مقالات الأستاذ الدكتور: موسى لقبال

أ. موسى هيصام

المركز الجامعي "الدكتور يحي فارس" بالمدينة

يعد الدكتور الأستاذ موسى لقبال أحد أعلام الجزائر البارزين، ومفكرا من مفكرها الموهوبين، يشهد على ذلك تبوءه لمكانة الريادة بين كبار الباحثين، بحكم حصوله على درجة أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي بجامعة الجزائر، ورتبة أستاذ التعليم العالي و لا يجل هذه المكانة العلمية المرموقة والسامية إلا من تتلمذ على يديه، أو عاش بالقرب منه، أو حضر مناقشاته للرسائل الجامعية، أو اطلع بتمعن على مختلف مصنفاته العلمية، ومقالاته التاريخية، وأبرزها على الإطلاق كتابه الموسوم "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري الحادي/ عشر ميلادي" الذي يعد بحق باكورة ما كتب في تاريخ الفكر الإسلامي وتطبيقاته الميدانية في بيئة استوعبه وناصره سكانها لأغراض متعددة، اعتبر أستاذنا لقبال قيمتها التي تتجلى في عنوان "تقدير سكان المغرب الإسلامي لآل البيت واحتضانهم لسلالتهم".

تناول الدكتور لقبال، بالدراسة والبحث والتنقيب مواضيع وأغراض جمة، عملت هذه الدراسة على تناول بعض ما أنتجه ونشره من مقالات، سواء في مجالات وطنية أو عربية، جمع فيها بين الحديث عن الفكر الإسلامي وامتداده، إلى قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ثم تشريقها، مروراً بدور المغرب الأوسط بحواضره المختلفة في إرساء قواعد الوحدة المذهبية السنية به، وصولاً إلى إبراز دور البيئة في تحصين الأجيال المتعاقبة، وتنمية حس الانتماء الحضاري لوطنها وأمتها، في إطار البعدين العربي والإسلامي، وعليه انطلق في بناء هذا الموضوع من التساؤلات التالية:

ما الغايات التي كان يرمي إليها كاتبنا هل غطى بمواضيع هذه المقالات بعض أهدافه وطموحاته العلمية، ومن ثم احتياجاتنا نحن، وإلى مدى استفادة جيلنا من تراثه العلمي المكتوب والشفهي المنقول.

للإجابة على هذه التساؤلات قمت بحصر بعض ما كتبه الأستاذ الدكتور موسى لقبال في مجالات مختلفة وطنية وعربية .

وقسمت أعماله هذه منهجيا حسب طبيعة المواضيع المطروحة إلى ثلاث عناصر أساسية هي:

1- مواكبة أعماله لنجال تخصصه في التاريخ الوسيط الإسلامي عموما، والفاطمي خصوصا، وإبرازه لمواكبة المغرب الأوسط الإسلامي لحركية التاريخ وحيويته في العصر الوسيط.

2- تحليله لنظرية الفكر الإسلامي في نظام الحكم الإسلامي - الخلافة أمودجا -

3- توجيهه للدراسات التاريخية التي يشرف عليها، لتصبح أداة تخدم تحصين الأجيال بما يحمي هويتها وانتماءها .

1/ أ- مواكبة أعماله لنجال تخصصه في التاريخ الوسيط الإسلامي:

يبرز هذا الاهتمام الأساسي والأولي انطلاقا من تخصصه في الدراسات الإسماعيلية عموما، والفاطمية بالمغرب والمشرق خصوصا، معتمدين في دراستنا هذه على مقالين هامين:

الأول: بعنوان "أهداف الدعوة الإسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الإسلامي منذ عصر مبكر"¹

¹ مجلة تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، جاءت كمحاضرة لنشاط الجمعيات والمنظمات المهمة . لحقول التاريخية في الأقطار العربية ، المجتمع في بغداد في الفترة ما بين 15-18 ماي 1974م ، والتي أعلنت عن تأسيس " اتحاد المؤرخين العرب"، تحت شعار "(العلم، الحقيقة، العروة)، ومتخذة العاصمة العراقية بغداد مقرا دائما له ، مجلة " المؤرخ العربي" لللسان الناطق له، حيث صدر أول عدد منها سنة 1975م ، وضمن هذا العدد نشر أستاذنا الدكتور موسى لقبال مقال عنوانه بـ "أهداف الدعوة الإسماعيلية..." .

الثاني : بعنوان " المعز لله الفاطمي وجيل جديد من كتامة، من خلال وثيقة فاطمية معاصرة " نشره في مجلة "الأصالة"¹.

توجهت اهتمامات باحثنا للانشغال بالدراسة والبحث حول الفترة الفاطمية، لما بها من أهمية وأثر في التاريخ الإسلامي عموما، وتاريخ بلاد المغرب خصوصا، فقد عمل الإسماعليون على غرس البذور في هذه المنطقة البعيدة عن مركز الخلافة، لتحقيق جملة من الأهداف السياسية و المذهبية، حيث يجمع غالبية المؤرخين على أن جعفر الصادق هو أول من أرسل الدعاة إلى المغرب، مختارا في ذلك داعيين اثنين هما: الحلواني، وأبو سفيان، حيث أخذنا عنه وسائل الدعوة السرية، ثم ودعهما وأوصاهما بالقول : " قولوا لكل شيء باطن، واذهبوا فالمغرب أرض بور، فاحرثاها واکريها حتى يأتي صاحب البذور"².

وهو ما يصب في الممارسة الفعلية للسلطة التي كان منطلقها إنضاج الفكرة المذهبية أولا، ثم تحقيق هدف بعيد المدى كثيرا ما راود المؤسسين الأوائل لهذا التيار القائم على إصلاح المسار المنحرف لسلطة الخلافة في نظرهم، التي تم اغتصابها من أصحابها الشرعيين، فعملوا عبر تاريخهم الطويل على تصحيح هذا المسار انطلاقا من المغرب لتحصل الخلافة في المشرق، فكان البدء ببلاد كتامة بالمغرب الأوسط، فافريقية، فالقاهرة، فبلاد الشام، حيث تعثرت هذه المسيرة مجددا دون تحقيق أهدافها المنشودة.

ولقد تفتن أستاذنا إلى هذه الأهمية فراح يخوض تجربة البحث و التنقيب عما واکب مسيرة الفاطميين في مسعاهم هذا، فكانت دراسته الأكاديمية الجادة الموسومة بـ : " دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن

¹ مجلة كانت تصدرها " وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية " ثم "وزارة الشؤون الدينية" بالجزائر ، صدر العدد الأول منها في سنتها الأولى في محرم 1393هـ / مارس 1971م ، وكان أستاذنا بدوره سبقا لنشر أولى مقالاته بها، بمقال عنوانه بـ "البيئة وسير التاريخ الوطني " ، أنظر مجلة "الأصالة" ، السنة الأولى، العدد الأول، محرم 1393هـ / مارس 1971م ، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، ص.75، 69.

² سامي علي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام — نشأة التشيع وتطوره — ج2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، مصر ، ط1999، ص510.

(5/هـ 11م)،¹ من بين أبرز الدراسات المغاربية الرائدة التي خاضت في هذا الموضوع، إذا وظف بيئته في استطاق الأبعاد المختلفة لاختبار هذه المنطقة أرضية لمباشرة عمليات تنفيذ أهداف المشروع الإسماعيلي المذهبي، والسياسي، والفكري، والتي يعد أعلاها إسقاط نظام الخلافة العباسية السنية، وإحلال الخلافة الفاطمية العلوية الشيعية محلها، إحياء مجد العلويين في المشرق، وإنصافا لهم من مغتصبيها²، مستغلين في ذلك تبجيل سكان بلاد المغرب لآل البيت، والتي أصبحت سنة متبعة وقدرًا مشتركًا بين جموعهم، بل إن الانتساب إليهم يعد في نظرهم شرفًا ومفخرة كبرى³.

فتأثر العباسيين وضغطهم، دفع أئمتهم إلى التزول في هذه البقعة المعزولة عن مركز الخلافة، البعيدة عن الأنظار، فمهدت أمامهم السبل لإطلاق دعائهم وعمالهم يسرحون بحرية وأمان، بدءًا بالتبشير بالأفكار، مرورًا بنشر مبادئ الدعوة، وصولًا إلى تحقيق الهدف الأسمى المتمثل في إسقاط نظام الخلافة العباسية تحقيقًا لمبادئ وحدة الخلافة الإسلامية بالنسبة لهم.

وإنما لموضوع أطروحة دكتوراه الدولة الخاصة بأستاذنا، أتبعها بمقال هام بمجلة "المؤرخ العربي" عنوانه بـ: "أهداف الدعوة الإسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الإسلامي منذ عصر

¹ موضوع أطروحة الأستاذ الدكتور موسى لقبال تقدم بها لنيل شهادة دكتوراه الدولة بجامعة عين شمس (مصر)، والتي نوقشت في 11 جويلية 1972م، فنال بها الشهادة المذكورة، ومنحت له درجة الشرف الأولى، أمام لجنة علمية مؤلفة من خيرة أساتذة التاريخ في الوطن العربي وهم:

أ/د: عبد المنعم ماجد، أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي ورئيس هذا الفرع في كلية الآداب، جامعة عين شمس. أ/د: عبد الحميد سعد زغلول، أستاذ كرسي تاريخ المغرب ورئيس قسم التاريخ، وعميد كلية الآداب بجامعة القاهرة.

أ/د: سعد عبد الفتاح عاشور، أستاذ كرسي العصور الوسطى ورئيس هذا الفرع بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية. وهي رسالة تقع في (734) صفحة، طبعت في طبعة أولى ووحيدة، من طرف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1979م. قام بتصدير (تقديم) الكتاب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

أنظر: موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1979، ص9 وما بعدها.

موسى لقبال، "دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية"، مقال بمجلة "الثقافة"، مجلة تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر، العدد 12، ذو القعدة 1392هـ/جانفي 1973م، ص 107 وما بعدها.

² لقبال، دور كتامة، ص457.

³ نفسه، ص.ص 206، 205.

مبكر"¹، لما لهذه المرحلة من أهمية في استمرار الدولة الفاطمية، ومجال تحقيق أهدافها المعلنة والخفية، وكأني به يدفع غيره من الباحثين والطلبة الدارسين، إلى إتمام الشطر الثاني مما تناوله وفصله في أطروحته المذكورة، وهي من شيم الفطنة والنباهة التي يتميز بها أستاذنا الفاضل، فمن تتلمذ على يديه، أو لازمه، أو تقرب منه، يلمس فيه هذه الصفة العلمية الخاصة، توجيهها، وتكوينها، وبالمهام الكبيرة وباعه الطويل، في الإحاطة بالفكر الإسماعيلي وأبعاده المختلفة منذ بدايته، جعله أكثر دقة في تحليل توجهات دعاة الإسماعيلية، وتفضيلهم لبلاد المغرب عن بيئة الشام واليمن اللتين انطلقتا منهما هذه الدعوة في مراحلها السرية، اعتبارا لقرب المنطقتين من مركز الخلافة أولا، وفقر اليمن وتطرفها ثانيا، فكانت الأفضلية لصالح البيئة المغربية في التمكين للدعوة الشيعية والجمهور بها، نظرا لغناها، وسعة فضائها، وتفتحها على عالم فسيح إطاره البحر المتوسط، إلى جانب خصوصية وطبيعة وتركيبية سكان المغرب أنفسهم، التي ساهمت في احتضان الدعوة والدولة ابتداء - دور قبله كنامة وصنهاجة - ثم انقلبت عنها ولفظتها في المرحلة التالية، اعتبارا للدور الايجابي الذي قامت به افريقية والمغرب ممثلة بفقهاائها وعلمائها وعامتها في مقاومة الوجود الشيعي في بيئة سنية بطبيعتها، خاصة الدور المتميز الذي أداه تلامذة الشيخ سحنون، الجيل الذي دافع عن التوجه السني للمنطقة، وأبلى البلاء الحسن في صد الفكر الدخيل فكان ذلك سببا جوهريا من بين أسباب تشريق الفاطميين منذ وقت مبكر من نجاح دعوتهم وتأسيس دولتهم².

لقد ركز أستاذنا لقبال في مقاله هذا على فكرة الوجهة المشرقية للحركة الإسماعيلية منذ عصر مبكر من خلال دلائل مختلفة أجملها في :

¹ موسى لقبال، "أهداف الدعوة الإسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الإسلامي منذ عصر مبكر"، مجلة "المؤرخ العربي"، المكتبة الوطنية، بغداد، 1975، العدد 1، ص 221.

² أنظر: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وشركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط 1999، ص 41. وإبراهيم بن نور الدين بن فرحون المالكي (ت 799 هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1996، ص 423 وما بعدها. ومخلوف محمد بن عمر بن قاسم، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، إخراج وتعليق عبد المجيد الغيالي، المجلد 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2003، ص 157 وما بعدها.

تصريحات صاحب الدعوة وأول إمام فاطمي عبيد الله المهدي (297-322هـ/910-934م)، منها مخاطبته لأحد ولاته الذي خشي عليه من بطش العباسيين به نظرا لترصدهم الدائم له بالقول "طب نفسا وقر عينا، فو الذي نفسي بيده، لا وصلوا إلي أبدا، ولنملكن أنا وولدي نواصي ولد العباس، و لتدسن خيولي بطونهم"¹.

ودعم رأيه هذا عمليا بما قام به المهدي في وقت مبكر، من إرساله حملات متعددة ابتداء من سنة (301هـ/914م)²، كانت كلها ذات وجهة شرقية جازف فيها بحياة ابنه وولي عهده أبي القاسم لتنفيذ هذا المشروع البعيد المدى انطلاقا من المكتسبات المحققة مرحليا.

غير أن القفزة النوعية الفعلية نفذها رابع الأئمة الفاطميين المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ/952-975م)³، الذي كان له شرف نقل مقر مملكتهم من المهديّة والمنصورية بإفريقية إلى العاصمة الجديدة التي خلد بها اسمه "قاهرة المعزة"، حيث

¹ لقبال، "أهداف الدعوة الإسماعيلية.."، المقال نفسه، ص222.

² أنظر: محمد سهيل طقوس، تاريخ الفاطميين في شمال إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص104 وما بعدها.

³ هو أبو تميم معد المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ/953-975م)، ثاني شخصية بعد عبيد الله المهدي، من كبار رجال عصره، فاق أقرانه ومنافسيه علما وسياسة وحربا، كان يجيد لغات عدة منها اللاتينية والصقلية، ومولعا بالعلوم والآداب، داهية في حسن التدبير وإحكام الأمور، تولى السلطة وعمره لا يتجاوز 22 سنة، عاش في المهديّة والمنصورية حاضري الفاطميين بإفريقية، بلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها ببلاد المغرب، وعلى عهده أيضا كان تشريق الفاطميين بانتقال ملكهم من إفريقية إلى مصر، أنشأ الدواوين والنظم المختلفة فكان أهمها ديوان العمائر والموانئ، ودور الصناعة الحربية البحرية، وشجع النهضة العلمية والثقافية المذهبية الإسماعيلية، وزادت مداخيل الدولة خلال فترة حكمه من الأموال، فنعمت بالرخاء والاستقرار.

أنظر: القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، والشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1986، ص395 وما بعدها.

وأبو عبد الله محمد الصنهاجي أخبار ملوك بنو عبيد وسيرهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1984، ص48 وما بعدها.

وحسن إبراهيم حسن وشرف طه أحمد، المعز لدين الله الفاطمي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1947، ص23 وما بعدها.

وأحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، بلون تاريخ، ص.ص 279، 77. وطقوش، نفسه، ص.ص 150، 149.

دخلها في موكب مهيب باعتباره انجازا أو فتحاً عد في نظر المؤرخين الخطوة الثانية وما قبل الأخير لتحقيق الحلم الفاطمي المنشود¹.

وقد خص أستاذنا هذه الشخصية بمقال بمجلة "الأصالة" أيضاً، عنوانه بـ: "المعز لدين الله وجيل جديد من كتامة من خلال وثيقة فاطمية معاصرة"، أتم به الأفكار التي طرحها في المقال السابق الذكر، مستندا إلى هذه الوثيقة المتميزة وهي "كتاب المجالس والمسائرات" لصاحبه مؤرخ الفاطميين وقاضيه على المهديّة والمنصورية و سائر افريقية "القاضي النعمان"²، ابرز من خلالها حيثيات الأحداث وتدايعاتها حسب ما رواها هذا المؤرخ، ومنها الحركية الجديدة التي بثها المعز لدين الله الفاطمي في نفوس الكتامين، الذين تأثروا بأحداث سابقة أدت إلى تهميش دورهم وهم ومالهم من مكانة السبق في الدعوة والتمكين لها، في وقت كانت فيه الدولة في أمس الحاجة إلى سند يدعمها ويرعاها، بفعل الاختلال الذي ظهر في طبيعة العلاقة بين الكتامين والسلطة الفاطمية الجديدة، نتيجة لما أعقب حادثة تصفية الداعي أبو عبد الله الشيعي وأخوه أبي العباس وأنصارهم من قادة كتامة أمثال الأخوين عروبة وحباسة، والقريين أبو زكي وماكنون، إلى جانب عدد كبير من أنصارهما سنة (302هـ/914م)³.

¹ سعد زغلول، نفسه، ص279.

² هو القاضي أبو حنيفة النعمان بن حيون المغربي التميمي، دخل في خدمة عبد الله المهدي منذ نجاح دعوته سنة (296هـ/904م)، تحول من المذهب المالكي إلى المذهب الإسماعيلي.

تعددت كتبه بين مجالات الأخبار (التاريخ)، والفقه، العقائد، والوعظ والإرشاد، والرد على المخالفين، من كتبه: "دعائم الإيمان"، "دعائم الإسلام"، "المجالس والمسائرات"، "افتتاح الدعوة"، أنظر: الشيخ أبو عمران وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ط 1985م، ص.ص 176، 178.

وإسماعيل سامعي، القاضي النعمان حياته وجهوده في نشر الدعوة وتطورها في الدور المغربي (313-363هـ/925-973م)، موضوع رسالة دكتوراه، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، دورية علمية تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، العدد 04، رمضان 1425هـ/أكتوبر 2004م، ص.ص 277، 282.

³ أنظر القاضي النعمان، نفسه، ص 311 وما بعدها، وعماد الدين إدريس الداعي، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب — القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار — تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 2006، ص 2، ص 186، وبوابة بجاني، المذهب الإسماعيلي في بلاد المغرب، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط 2005، ص.ص 15، 14.

وقد عمل الدكتور لقبال من خلال مقاله المذكور و المعنون بـ "المعز لدين الله وجيل جديد من كتامة من خلال وثيقة فاطمية معاصرة"¹، على استنطاق ما كتبه قاضي قضاة البلاط الفاطمي عن شخصية المعز، وكيف عمل على تقويم مسار أسلافه بتجديد الثقة في أولياء نعمتهم ورد الاعتبار لكتامة وزعمائها، فانتقى مجموعة من النصوص جاءت على لسان المعز أبرز فيها محنتهم في عهد المهدي، وعدد فيها خصالهم، وحاجة الدولة إلى مزيد عطائهم، متعهدا بالعمل على ترجيح الكفة لفائدتهم، وإعادة وضع كتامة إلى ما كانت عليه في سيرتها الأولى، مظهرا إياها في هرم الترتيب القبلي، تليها صنهاجة وغيرها من القبائل الأخرى، وهذا لا ينم إلا عن دهاء وفطنة تميزت بها شخصية المعز في تخطي تداعيات الأحداث التي ألت بالدولة الفاطمية خلال فترة الثلاثينيات من القرن الرابع الهجري، وفي مقدمتها ثورة أبي يزيد الخارجي، والزعزعة التي أحدثها في أوساط المواليين أو المناهضين للدولة، فاعتماده لخطاب جديد وهو يتولى السلطة حسب ما جاء في المقال، تصب في إطار توظيف "المعز" لدهائه السياسي في إعادة ترتيب البيت الداخلي الفاطمي، بالتهوين مما أصابها، عاقدا العزم على جمع شمل حلفاء دولته، ووضع أسس سياسته الجديدة، الرامية إلى تحقيق انطلاقة نوعية في التمكين للمذهب الإسماعيلي، والزيادة في نشره، والتكفير الجدي في توسيع دائرته ليعم رقعة جغرافية أوسع، تكفل وزيره "جوهر الصقلي" في التمهيد لها بمشروع ضم مصر والشام على المديين القريب و المتوسط، وقد عول كثيرا على رجال كتامة في تحقيق ذلك، إدراكا منه بشجاعة رجالها وإخلاصهم ووفائهم للدعوة الإسماعيلية، التي احتضنوها ومكنوا لها في بلاد المغرب، وهم على أهبة تحمل المسؤولية ثانية في توسيع نطاقها، وعليه لجأ "المعز" من خلال النصوص الواردة في المقال إلى دغدغة شعورهم

¹ موسى لقبال، " المعز لدين الله الفاطمي وجيل جديد من كتامة من خلال وثيقة فاطمية معاصرة"، مقال مجلة " الأصالة " ، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، محرم — صفر 1396هـ/ جانفي — فيفري 1976م، ص 21 وما بعدها.

بعبارات التقدير لصنيعهم، وتمجيد تضحياتهم وتعظيم زعمائهم، بما يسمح له من أخذ بيعة جديدة تؤمن له جانبهم، وتعطيه دفعا في مسار تحقيق أهدافه، ومن هذه النصوص:

1- نص نعي والده المنصور وهو يخاطب جند كتامة بالقول: "أخص أولياء دولتنا، وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين بما اتسوجوه بطاعتك، وقضاء فروضك، وموالات أوليائك، ومعادة أعدائك"¹.

2- نص الترحيب بهم وهم يقدمون له التهانئ بمناسبة عيد الأضحى: "أنتم البنون والإخوة، والأقربون ما يعد لكم عندي أحد، ولا يبلغ من مبلغكم من قلبي بشر، وما ذلك إلا لما في قلوبكم... بارك الله فيهم، وكثر أعدادهم، فما أسرتي بهم وباحتفالهم، وما أحيا إلي أشخاصهم وأزين في عيني مناظرهم"².

3- نص خطاب في إحدى مجالسه يبرز الامتداد الطبيعي لإخلاصهم ووظيفتهم في تحقيق أهداف الدولة والانتصار لها فيقول: "ما نصر وليا من أوليائه قبلنا يمثل نصركم لنا، على ذلك مضى أولكم، وعليه أنتم"³.

هذه النصوص وغيرها التي ساقها أستاذنا في مقاله مستندا إلى ما صاغه "القاضي النعمان" في كتابه المجالس والمسائرات، و"جوذر" في كتاب "سيرة الأستاذ جوذر" إلا تُتف لما حاول بواسطته "المعز لدين الله الفاطمي"، تجنيد الجيل الجديد من كتامة بما يضمن لهم تحقيق حقبة ازدهار جديدة في تاريخهم خاصة، وتاريخ الدولة الفاطمية عامة.

4- ولم يتوقف المعز عند حد إبراز مكانتهم، بل تعداه إلى الاعتذار ضمنيا عما بدر من أسلافه وأن ما قاموا به إنما يصب في مصلحتهم، "وإن قتلنا منكم من نقتله ممن

¹ نفسه، ص.ص 24، 23.

² نفسه، ص 25.

³ نفسه، ص 26.

يجب القتل عليه، ولا يسعنا أن نبقيه فما ذلك منا فيه إلا تطهير له، وتمحيص لذنوبه، وكل ما تجري به أمورنا فيكم فهو صلاح لعامتكم¹.

وهو نص يعبر عن اطمئنان حكام الفاطميين الجدد لما أنجزه أسلافهم، في ترسيخ فكرة الإمام وفضله المرتبطة بالدين، وقد عمل المعز في هذه المرحلة على توظيف أرضية ذلك العمل لتحقيق المكاسب المرجوة، فقد غرس أبو عبد الله الداعي، ومن بعده صاحب الدعوة الأولى عبيد الله المهدي، على ربط كتامة لهذه القيم، وتربية ناشئتها على التضحية والبذل لدعوتهم، والقبول بالخطوب التي تحمل بهم، وهي ابتلاءات ومحن يتقدم بها أصحابها ترضية للإمام المعصوم الذي يجمع بين الظهور تارة والغيب تارة أخرى. كما نسجت عنه الكرامات وسوقت بين الناس على أنها بشائر الإمامة ودلائلها².

5- وخلص المعز إلى بلورة هذه المعاني كلها بالتصريح لهم: "أنتم خاصتنا وبطانتنا وأحب الناس إلينا، لو أعنتمونا بسمع وطاعة وامثال أمر، وإن كنا لا نشك في حسن اعتقادكم لولايتنا وصفو نياتكم لنا، ولكن الدنيا ربما استمالت كثيرا منكم بخطامها، والهوى والحمية ربما مال بكثير منكم عن أمرنا، لاسيما ما يتعرى بعضكم لبعض من الحسد والمنافسة، حتى تصيروا في مواضعكم إلى الحروب، والقتل وهتك الحرم، بما يشفي به بعضكم من بعض، فإنه مما يغمنا، وينكينا فيكم، وكان من الواجب أن ندعو ما تحبونه من شفاء غيظكم، لما نحبه من حقن دمائكم وصلاح أمركم، وبقاء نعمة الله عليكم"³.

فهذه العبارات الرنانة، توحى في ظاهرها للدارس بأن المعز عمل على نقل سكان المغرب من ولائهم للقبيلة، إلى ولائهم للدولة والمذهب، وفي باطنها ومن خلال مقارنة

¹ نفسه، ص 29.

² أنظر : القاضي النعمان، نفسه، ص 27، 48.

³ لقبال، " المعز لدين الله .."، ص 32، 31.

النصوص ببعضها، نراه يعمل على إحداث التوازنات القبلية خاصة بين كتابة وصنهاجة، بما يضمن التنافس بين القبليتين حول من يقدم منهما ولاء أكثر من الآخر¹.

وخلص الدكتور لقبال إلى جملة من الاستنتاجات اعتبرها ميزات تميز الجيل الجديد من كتابة عن غيره:

- اعتزازه بفضل أسلافه في نشر الدعوة الإسماعيلية الفاطمية والتمكين لها.
- حاجة الدولة الفاطمية لهم في تحقيق الأهداف النهائية للدعوة الإسماعيلية، التي اعتبرت بلاد المغرب منطلقا لتحصيل واسترجاع الحق الضائع بالنسبة لهم، والذي لا يمكن نيله إلا بالتضحيات الجسام التي يبذلها الجيل الجديد.

وهو ما تحقق عمليا بمرافقة الكتامين للمعز في رحلته إلى مصر، واستقراره بها ابتداء من سنة 361هـ / 972 م، حيث أقطعهم أملاكا واسعة هناك، وقرّبهم منه، وهو ما يصب في إطار تعويضهم عما فاقم في سابق العهود، "وفيه تبسطت المغاربة في نواحي القرافة والمعافر، فترلوا في الدور ... وركب المعزّ بنفسه حتى شهد المواقع التي يتزلون فيها، وأمر لهم بمال يبنون به، وأسكن أكثرهم في المدينة مخالطين لأهل مصر"².

انطلاقا مما ذكر يتبين للدارس أن المعزّ بدهائه وحنكته في إدارة الأحداث، أراد أن يعطي نفسا جديدا لدولته، ومشروع أسلافه بفتح آفاق جديدة لجيشه ورعيته، بنقل الأوضاع من حالة الركود والصراع الهامشي الذي بدد طاقته في بلاد المغرب، وشحن الهمم بالجديد المتمثل في التحضير للإجهاز على مركز الخلافة السنية في المشرق، وهو ما ظهرت ملامحه جلية بفعل الانتصار المحقق في مصر المركز الجديد

¹ أنظر شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24، تحقيق حسان نصار، ومراجعة عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1983، صص170، 169، والقاضي النعمان، نفسه، ص48.

² المقرئزي، نفسه، ص145.

للفاطميين، فعمل على تعبئة جميع الفئات الشعبية على اختلاف مشاربها، مستندا أساسا إلى قبيلة كتامة لعلمه بقدرتها على بذل التضحية من أجل تحقيق الأهداف النهائية للمشروع الإسماعيلي الفاطمي، تجلّى ذلك في ما أقدم عليه خليفة المعز، "العزیز بالله" بتعيين جعفر بن فلاح الكتامي نائبا القائد حملته على الشام، وهو أحد أبرز القادة السياسيين والعسكريين الذين تفتن المعز لدين الله قبل وفاته لكفاءته وقدرته الحربية، وتبين له حسن إخلاصه واستيعابه للمشروع التوسعي الفاطمي بأهدافه السياسية والمذهبية منذ الفترة المغربية¹، وهو من يكون قد اقترحه لتولي هذا المنصب قبل وفاته، وهو ما يظهر ثمرة الجهود التي بذلها المعز في تكوين الجيل الجديد لكتامة، وإعداده من مرحلة لأخرى لتولي المهام الصعبة خلال الفترات الحاسمة في تاريخ الدولة الفاطمية، وهو ما يشير إلى إخلاص الكتاميين الثابت للفاطميين خلال العهدين المغربي والمشرقي.

1/ب. إبرازه لمواكبة المغرب الأوسط الاسلامي لحركة التاريخ وحيوته في العصر الوسيط:

واهتم الدكتور لقبال بموضوع آخر مكمل لما دونه في كتابة " دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية "، وفي مقاله عن "الإسماعيلية وأهدافها" والمتمثل في رد فعل أهل السنة الإيجابي في الحيلولة دون تغلغل الفكر الشيعي في أوساط سكان افريقية وبلاد المغرب، وسعي علماءهم وفقهاءهم لتعبئة العامة للاستماتة في سبيل الدفاع عن معتقداتهم وقناعاتهم، وذلك باعتماد أشكال متعددة للمقاومة، تبوأ فيها الفقهاء مكانة السبق في التصدي لكل محاولات النظام الجديد في فرض سياسة ومذهبه، وقد أسهب الدكتور لقبال في إبراز مظاهر المقاومة السنية للفاطميين وخاصة المالكية منها، منذ المهلة الأولى لسيطرتهم على الوضع في إفريقية والمغرب الأوسط، بإفراد جزء كبير من الفصل الثالث من كتابة "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية"، للحديث عن توضّحات هؤلاء في الإبقاء على المنطقة خالصة لأهل السنة، مستخدما مصطلحات عدة تعبر إلى جانب موضوعيته في تناوله على أهميته، عن تشييعه الشديد لأهل السنة،

¹ لقبال، دور كتامة، ص.ص 486، 485.

وقراء التاريخ قراءة صادقة، باستنطاقه لنصوص المصادر التي أرّخت لأحداث تلك الفترة، سواء كانت سنّية أو شيعية، ومن المصطلحات التي استخدمها في هذا المجال، "محنة السنّة المالكية"، "الضحايا والشهداء"، "النضال عن المذهب المالكي"، "جماهير المالكية"، "الذين فتنوا في مذهبهم"¹. وهي مصطلحات منتقاة بدقة للتعبير عن طبيعة الصراع المرير الذي تطوّر مع مرور الزمن، وتسارع الأحداث في المنطقة منذ سنة (296هـ/904م)، تاريخ استيلاء الفاطميين على رقادة عاصمة الدولة الأغلبية.

فمقالات أستاذنا ركزت على إتمام ما كان قد بدأه في كتابة "دور الكتامة"، بتشريحه لواقع الصراع ومظاهره على مستوى إفريقية، ليتّمه بالحديث عن الصراع نفسه على المستوى المغرب الأوسط وما تلاه، بمقالات ثلاث على سبيل المثال لا الحصر وهي :

- 1- مقال "الحلف بين أهل السنّة والنجارية في القرن 4هـ/10م"².
- 2- مقال "طبنة مدينة الزاب، والأوراس في العصور الوسطى"³.
- 3- مقال " زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط"⁴.
- 4- مقال " ميزات بجاية وأهميته ودورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى"⁵.

¹ نفسه ، ص 412 وما بعدها.

² موسى لقبال ، " الحلف بين أهل السنّة والنجارية في القرن 4هـ/10م ، وأثره في تطور أوضاع مدن إفريقية والزاب والحضنة والأوراس " ، مقال مجلة " الأصالة " ، عدد خاص عن " تاريخ منطقة الأوراس " . بمناسبه انعقاد الملتقى 12 للفكر الإسلامي بباتنه، السنّة السابعة، العدد 60/61، رمضان — شوال 1398هـ/أوت — سبتمبر 1978م ، ص 55 وما بعدها.

³ موسى لقبال ، " طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى " ، مقال مجلة " الأصالة " ، العدد 60/61 السنّة السابعة ، رمضان — شوال 1398هـ/أوت — سبتمبر 1978م، ص 83 وما بعدها.

⁴ موسى لقبال، "زناتة و الأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط" ، مقال مجلة " الأصالة" ، رجب — شعبان 1395هـ/ جويلية — أوت 1975م، السنّة الرابعة، العدد 26، (عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحضارتها) ص 91 وما بعدها.

⁵ موسى لقبال، " ميزات بجاية وأهميته دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى " ، مقال مجلة " الأصالة ، السنّة الرابعة، العدد 19، (عدد خاص ببجاية عبر العصور)، ص 3 وما بعدها.

وهي مقالات ثرية بمادتها العلمية التي ركز فيها أستاذنا الفاضل على إبراز دور حواضر المغرب الأوسط في مواكبة تطور الأحداث تأثيراً وتأثراً، بالتفاعل الذي نلمسه في شكل مظاهر متعددة، مست الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في حركية متميزة تعبر عن عمق وأصالة المنطقة في الحفاظ على خصوصية ذاتها، باعتبار أن البيئة المحلية تمثل عنصراً أساسياً تحتضن في طياتها الأفكار، فتتمو أو تضمّر حسب طبيعتها، ومجال قوتها، أو بمدى تمكنها من نفوس من اعتنقوها .

والفكرة العامة التي دارت حولها آراء أستاذنا في المقالات المذكورة هو تشبث سكان المغرب الأوسط بحبهم واحتضانهم لمذهب أهل السنة والجماعة، وحبهم المفرط لآل البيت، ولكن على طريقتهم الخاصة، طريقة أهل السنة والجماعة، اعتبار لخصوصية سكان المغرب الذين ألفوا الحرية، رافضين الخضوع تحت طائلة القوة والقهر، مع المحافظة على الروابط الدائمة مع السلطة المركزية، التي كان منطلقها المشرق غالباً، كنتيجة للتلاحم الذي حدث بين طرفي البلاد الإسلامية، وضمن إطار التواكب الحضاري والتاريخي بين المشرق والمغرب الإسلاميين¹، رغم بعض الطفرات التي تميز بها تاريخ المغرب الإسلامي في بعض فتراته، ونجاح الحركات الخارجية في إقامة دول مستقلة بذاتها، على غرار دولة بني مدرار في سبلماسة، والدولة الرستمية في تاهرت، وكذا الحركة الإسماعيلية الشيعية بعد ذلك، وقد تفاعل سكان المغرب الأوسط بشكل أو بآخر مع هذه المتغيرات والغالب أنهم أخضعوا عنوة للقبول بالأمر الواقع، ودليل ذلك عدم استمرارية وديمومة تأثير الأفكار الخارجية والشيعية في واقع المغرب الأوسط أو غيره، مقارنة بتجذر الفكر السني خاصة المالكي منه في الأوساط الشعبية المغربية، حيث كان الفكر الفقهي المالكي أكثر تأثيراً وانتشاراً ودواماً من كل الأفكار المذهبية الأخرى التي تغلغت في ربوع المنطقة².

¹ محمد زنيير ، " ظاهرة التواكب بين المشرق والمغرب العربيين " و مقال مجلة "المؤرخ العربي"، المكتبة الوطنية، بغداد، العراق ، 1978، العدد6، ص160.

² محمد أركون، "وجوه ازدهار الفكر العربي في المغرب الإسلامي"، ترجمة مروان الفتواحي، مقال مجلة"الأصالة"، ربيع الأول-ربيعالثاني1398هـ/ فيفري-مارس1978، السنة السابعة، العدد54/55، ص ص16/15.

هذه الهوية التي حاول أستاذنا الدكتور موسى لقبال إبراز دور أهل السنة الفعال في التمكين لهذا التوجه، والدفاع المستميت عنه، فساق نموذجاً عنه بالخلف الذي جمع بين أهل السنة بزعامة القراء والفقهاء والعلماء وأتباعهم من العامة، والنكارية الخارجية بزعامة "مخلد بن كيداد"¹ وأنصار مذهبه، مما شكل عقبة كبرى حالت دون استقرار النفوذ الفاطمي بالمنطقة، وأحدث القطيعة بين العامة المتشعبة بالمبادئ السنية عموماً، والمالكية خصوصاً، حيث عبث القوى السنية بالخطب الحماسية التي كانت تلقى في المساجد لدفع الجماهير المختلفة للتجند جماعياً، وإعلان الجهاد المقدس ضد الروافض²، وقد أبلى سكان المغرب الأوسط إلى جانب نظائريهم في إفريقية البلاء الحسن، بتحالف قبائل زواوة وعجيسة وغيرهما، واتسعت دائرة الثورة بشكل كبير في المغرب الأوسط، وقد أشار أستاذنا إلى دور أمير "الزاب" جعفر بن علي بن حمدون" صاحب المسيلة وعامل الفاطميين في قمع الثورة، إذ ألقى على بعض زعماء القبائل المناهضة للوجود الفاطمي والتي تشمل مناطق الأوراس وبسكرة وعموم الحضنة، وخاصة فحص (طاقة، ويلزمه، ونقاوس، ومقرة، وطبنة)³.

هذه الأحداث والمظاهر تعبر بشكل واضح عن تجذر المذهب السني المالكي ببلاد المغرب الأوسط، وعن التضحيات الجسام التي قدمها سكانه عبر التاريخ سواء

¹ هو أبو يزيد مخلد بن كيداد، المعروف "براكب" أو "صاحب الحمار"، ينتسب إلى المذهب الخارجي الصفري النكاري، من الذين ثاروا على الدولة الفاطمية بالمغرب الأوسط وإفريقية، بتحالف مع أهل السنة، دامت ثورته من 333-336هـ/944-947م، هاجم المهدي أيام الخليفة الفاطمي القاسم، كما استولى على القيروان، فتكر لفقهاء المالكية، ساعداً للشيعنة بالتنكيل بهم بعد أن أمر جنده بالتخلي عنهم حتى يضرهم ويقضي عليهم بأيدي خصومهم، ليتمكن من السيطرة على جزء معتبر من أملاك الدولة الفاطمية إلى أن تمت محاصرته والقضاء عليه في مكان تحصنه بقلعة أبي طويل التي تسمت فيما بعد بـ "قلعة بني حماد" بعد أن هدد الكيان الشيعي بإفريقية والمغرب.

أنظر إسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الإسلامي — ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا — دار العودة، بيروت، لبنان ومكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط 1976، ص 5؛ الشيخ أبو عمران وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ط 1995، ص. ص 560، 562.

² لقبال، "التحالف بين أهل السنة والنكارية..." المقال نفسه ص. ص 57، 58.

³ نفسه، ص ص 61، 62.

على العهد الفاطمي أو الزيري أو الحمادي وما بعده، في التمكين للوحدة المذهبية في ربوع المنطقة، وهو ما عمل أستاذنا الدكتور لقبال على إبرازه بشكل جلي في الدراسات المختلفة التي قدمها، سواء في شكل أطروحات جامعية، أو كتب أو مقالات على تنوعها.

⁴ ومن النماذج البارزة التي ساقها أستاذنا عن مقاومة وصمود سكان المغرب الأوسط للمذاهب والأفكار التي لا تتوافق والتوجه السني، نموذج "مدينة طبنة" التي اعتبرت في نظر أهل السنة والموالين للخلافة العباسية السنية في المغرب الأوسط، قلعة سياسية ومذهبية حصينة للدفاع عن السنة، وعن الخلافة، ووحدة جميع سكان بلاد المغرب الإسلامي في إطار الاعتراف بالسيادة الشرعية للخلافة العباسية، التي عمل الشيعة الفاطميون على تقويض دعائمها، والنيل منها، بعد الإطاحة بالدولة الموالية لها في المنطقة ألا وهي دولة الأغالبة سنة 246هـ/ 909م¹، والتي شهد عهدها ازدهارا كبيرا للفقهاء المالكي، استنادا إلى دور رواد هذه المدرسة في نشر مبادئ المذهب بين أوساط سكان إفريقية ثم المغرب الأوسط، أمثال الإمام عبد الله فروخ (ت210هـ)، والإمام محمد بن سحنون (ت256هـ)، وابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ)، ممن مكنوا للمذهب أو دافعوا عنه في فترات تعرضه للتضييق عليه، ومحاولة الحد من انتشاره خاصة أيام محنة أهل السنة عموما، والمالكية خصوصا على العهد الفاطمي²

2— تحليله لنظرية الفكر الإسلامي في نظام الحكم الإسلامي — الخلافة أعوذجا—

إلى جانب هذه الدراسات المختلفة التي تصب في مجال تخصص أستاذنا وضمن نطاق اهتماماته المتميزة، دعمها بمواضيع أخرى لا تقل أهمية عن الأولى على

¹ نفسه ص.ص 89، 90.

² أنظر إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة — دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس — دار الرسالة، الجزائر، 2002، ص 145 وما بعدها. ونجم الدين اهتاني، المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، دار تير الزمان، تونس، ط2004، ص 107 وما بعدها.

غرار "فكرة الخلافة واعتبارها أساساً للفكر السياسي والحزبية في المجتمع الإسلامي في عصور الإسلام الأولى"¹، حيث يبدأ هذا الفكر عند المسلمين بما وقع في سقيفة بني ساعدة، وكيف أرسلوا قواعد نظامهم السياسي انطلاقاً من الأسس التي اتفقت عليها أطراف هذا المؤتمر، من أهل الحل والعقد الذين جنبوا الأمة الانقسام والصراع، رغم ما ترتب عنه لدى البعض آخر من اغتصاب للسلطة من طرف البعض على حساب البعض الآخر، مما ولد بذور النواة الأولى للحزبية في الإسلام²، حيث ظهرت الفرق الإسلامية التي تولدت حتماً عن اختلاف وجهات النظر بين أطراف مختلفة حول فكرة القرشية ومدى الأخذ بها كشرط من شروط تولي الخلافة، أو كنتيجة لتداعيات الأحداث المترتبة عن ممارسة السلطة في الواقع العملي، وما سبقت حوله من آراء حول شرعية تلك الممارسات من عدمها، يظهر ذلك جلياً من تباين وجهات النظر حول أحقية علي بن أبي طالب دون غيره من الصحابة بالخلافة، مروراً بسياسة الخليفة عثمان بن عفان إيجابياً وسلبياتهما، وصولاً إلى مقتله وما تبعه من أحداث، كان أبرزها على الإطلاق حادث التحكيم سنة 37هـ، والانقسام الذي حدث بعده، حيث تبلورت الاتجاهات السياسية الحزبية بشكل واضح، تجلّى في فريقين بارزين: الخوارج من جهة، والشيعة من جهة ثانية، وهو ما عبر عنه أستاذنا بمصطلح الفرق كنواقريسية للحزبية في الإسلام³، حيث طرح وجهة نظره ضمن هذا النطاق، بالحديث عن هاتين الفرقتين ومبرراتهما فيما ساقا الأمة إليه، بظهور مصطلحات جديدة في الفكر السياسي، منها بذرة الجماهيرية، أو الجمهورية التي تمسك بها الخوارج، وبذرة الملكية الوراثية، التي استمد منها الشيعة نظريتهم، إضافة إلى مصطلحات "الأغلبية" التي تبلورت في جماعة أهل السنة، وكذا "الأقلية الرافضة" التي لازمت الشيعة، أما الواسطيون المعارضين لتوجه

¹ 39- عنوان مقال نشره الأستاذ الدكتور موسى لقبال في "مجلة الدراسات التاريخية"، العدد الرابع، السنة 1408هـ/1988م، ص 21 وما بعدها.

² أنظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، و الاجتماعي، ج 1، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 7، 1964م ص. ص 204، 205.

³ لقبال، "الخلافة أساس الفكر السياسي" المقال نفسه، ص 23 وما بعدها.

هذا الطرف، أو ذاك وهم المحكمة الخوارج¹، فطرحوا فكرة الديمقراطية الإسلامية، ورأوا بأحقية كل مسلم في هذا الأمر، ما دام كفؤا له القدرة على إدارة شؤون الأمة².

ويذهب أستاذنا إلى استخلاص فكرة هامة رآها تصب في إطارها الطبيعي بالنسبة لنظام عالمي كاخلافة، لما له من قوة، وبريق وهيبة، تطلع لنيل شرفه الكثير من الأفراد والجماعات منذ قيام هذا النظام وإلى يوم الناس هذا، رغم ما واكبه من نزاعات وصراعات حادة، قادت إلى المواجهة الدموية بين تلك الأطراف على اختلاف مشاربها وتوجهاتها عبر فترات التاريخ الإسلامي كله.

3- توجيهه للدراسات التاريخية بما يخدم الهوية والانتماء:

ويعمل أستاذنا الفاضل منذ وقت ليس بالقصير في توجيه طلبته للاهتمام بالدراسات التاريخية المختلفة لتصبح أداة لتحسين الأجيال المتعاقبة بما يخدم هويتها، ويصب في تمتين تمسكها بمقومات انتمائها، من خلال إشرافه ومتابعته الدائمة لطلبته عبر كل المستويات خاصة الماجستير والدكتوراه، وبحضوره لفعاليات الملتقيات والندوات العلمية، بدءا بملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنظمها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية منذ السبعينات، مروراً بالملتقيات المنظمة من قبل الجامعة الجزائرية، ومؤسسات ومراكز البحث الوطنية، وصولاً إلى الملتقيات الدولية، إن على المستوى الوطني أو الخارجي خاصة في كل من مصر تونس.

¹ نفسه، ص 28، وموسى لقبال ملحمة إلى عبد الله الإكحاني (مذهبية وتوحيد)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1990م، ص ص، 11، 14.

² محمد جلال شرق، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ط1982م، ص 75.

ولا تزال حيويته العلمية متمثلة في عطاءاته المتميزة، تعطي مصداقية للكثير من هذه النشاطات العلمية التي تعقد غالبا في شكل ملتقيات، فهو يحرص دائما على توجيه تدخلاته بما يصب في مواصلة مسار ما بناه أجدادنا عبر التاريخ، انطلاقا من بيئتهم الخاصة التي احتضنت الحضارة ومظاهرها منذ ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا¹، بما يدفع الأجيال الجديدة إلى المحافظة على المكتسبات الوطنية المحققة، والمساهمة في الانطلاقة الواعدة التي نلمس بوادرها في الكثير من مظاهر الحياة العامة في وطننا المفقدي.

وختاماً نقول لقد أبلى أستاذنا الفاضل الدكتور موسى لقبال البلاء الحسن، أطال الله في عمره، وأبقاه أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي في الجزائر بدون منازع، وقدوة لطلبته، وذخرا للجزائر، بما قدمه من إنتاج علمي نوعي وافر، على غرار جيل كامل من نظرائه الذين نفتخر بما قدموه لهذا الوطن وبما بذلوا من جهد لإصدار المئات بل الآلاف من العناوين العلمية المتميزة، التي وضعت الأسس لأجيال كاملة تتلمذت على أيديهم، فحق لنا أن نقول أنه اكتمل بناء "مدرسة الجزائر التاريخية"، التي غطت مراحل تاريخ الجزائر الأربع: ما قبل التاريخ، التاريخ القديم، الوسيط، الحديث والمعاصر، بما يضمن لأبنائها الافتخار بتاريخهم، والتحصن الدائم من مختلف الضربات التي تحاول النيل من تماسك شعبنا، ووحدته الوطنية والترايبية.

وأملنا كبير في أن تكون هذه المبادرة التي فتحت الباب لقراءة تراث أستاذنا، خطوة أولى تليها خطوات تشمل إنجازات أساتذة آخرين.

¹ أنظر موسى لقبال، "البيئة وسير التاريخ الوطني" مقال بمجلة "الأصالة"، السنة الأولى، العدد الأول، محرم 1391هـ/

مارس 1971م، ص 69 وما بعدها

بذور التشيع، وإمارات العلويين ببلاد المغرب

من خلال دور كتامة / أ.د موسى لقبال

د. إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية قسنطينة

توطئة:

الأستاذ الدكتور موسى لقبال أحد الرجال العلماء الذين جمعني بهم علاقة علمية امتدت طول مشاوري العلمي فيما بعد التدرج " ماجستير ودكتوراه"، وقد توطدت هذه العلاقة بمرور الأيام، وعرفنا بعضنا جيدا، ولعلي من القلائل الذين فهموه، وتكيفوا معه، ذلك أنه من الصعب على أي كان أن يربط علاقة معه لأن طينة تكوين الرجل تختلف عن الكثير، فظروف الحياة الصعبة التي عاشها الأستاذ، وصرامة التقاليد، والوسط التربوي والاجتماعي الذي نشأ فيه كلها عوامل تتحكم في سلوكه وتوجهه.

إن الأستاذ الدكتور موسى لقبال كان من أوائل رجال التربية والتعليم غداة استرجاع السادة الوطنية الذين أسهموا في التأسيس لمنظومتنا التربوية التعليمية لاسيما في مرحلة التعليم العالي والبحث العلمي مدرسا، وباحثا، ومسيراً، وناشرا للعلم والمعرفة، وحريصا على مقومات الأمة خاصة الجزائر، والإسلام، والعربية، ومهتما ببعث التراث العربي الإسلامي بما قدمه من أبحاث ودراسات، وما ألفه من كتب، وكتيبات، وما كونه من إشارات هي اليوم تسهم في البناء، وفي البحث العلمي في شتى المجالات لاسيما التعليم العالي.

لهذا كله، ولغيره من العطاء الذي ميز حياة الأستاذ الدكتور موسى لقبال استحق منا تكريمه، وذكر مناقبه، كما يستحق من الباحثين والدارسين دراسة عطائه

بروح نقدية، ومنهج علمي تقويمي بعيدا عن العواطف، والمواقف الطرفية، وفي هذا السياق يأتي عملي الذي أقدمه ليس لأستاذي فحسب، إنما للباحثين لاسيما في مجال التاريخ عموما، والتاريخ الإسلامي والوطني خصوصا).

البذور الأولى للتشيع ببلاد المغرب:

لم تأت حركة التشيع في بلاد المغرب صدفة، ولا من فراغ، ولم يكن كذلك مخططا لها من مراكز القوة والنفوذ في المشرق، بل ثمة بذور زرعت فأتت أكلها، وأسباب وعوامل سهلت لهذه البذور النمو والانتشار في بلاد المغرب حتى ازدهرت في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي عصر الدولة الفاطمية الأول.

وقد كتب الكثير من المؤرخين القدامى، والحديثين عن حركة التشيع في بلاد المغرب، لكن القلة منهم ممن تعمقوا في فهم خلفياتها لاسيما من أبناء المغرب، ومنهم أستاذنا الفاضل الدكتور موسى لقبال الذي وقف على عمق خلفيات بذور التشيع، وعلى الأسباب التي سهلت له الانتشار مستقصيا أخبارها، ومستقرئا مصادرها، ومستلهما جزئياتها من الواقع المغربي الاجتماعي والفكري، مستنهضا ما اكتثرته الذاكرة الجمعية في هذه البلاد.

وقبل أن نأتي على تفصيل هذه البذور، والأسباب المسهلة رأيت أنه من الأفضل الوقوف عند معنى التشيع، ومفهومه لاسيما عند المغاربة في تلك العصور، فالتشيع بمعناه العام هو حب آل البيت إلى حد التقديس، وليس هو التشيع بمعناه العقدي المذهبي السياسي، جاء في لسان العرب: "وَأَصْلُ الشَّيْعَةِ الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ وَيَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْاِثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنَى وَاحِدٍ وَقَدْ غَلَبَ هَذَا الْأِسْمُ عَلَى مَنْ يَتَوَلَّى عَلِيًّا وَأَهْلَ بَيْتِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ حَتَّى صَارَ لَهُمْ اسْمًا خَاصًّا فَإِذَا قِيلَ فُلَانٌ مِنَ الشَّيْعَةِ عُرِفَ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَفِي مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ كَذَا أَيْ عِنْدَهُمْ وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الْمُشَايَعَةِ وَهِيَ الْمُتَابَعَةُ وَالْمُطَاوَعَةُ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ وَالشَّيْعَةُ قَوْمٌ يَهْوُونَ هَوَى عِثْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَيُؤَالُوهُمْ"¹، وقال أبو الحسن الأشعري في ذلك: " الشيعة ثلاثة أصناف وإنما قيل لهم الشيعة لأنهم شيعوا علياً رضوان الله عليه ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"²، كما أن الكاتب الشيعي النوبختي لم يتعد عن هذا التعريف كثيراً فقال: "الشيعة وهم شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام ومنهم افرقت صنوف الشيعة كلها"³، ومن ثم فالمغاربة لما شايعوا آل البيت فهم في الحقيقة جسدوا حبههم لرسول صلى الله عليه وسلم وآله منهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ابن عمه، وزوج ابنته، وذريته، وبني هاشم.

وإذا قصد بالتشيع اتجاه يقوم على حب آل البيت فمرجعه عصر الرسول صلى الله عليه وسلم⁴ وقد اقتبس لقبال تعريفه مما قاله ابن خلدون: "تاريخ الشيعة لغة هم الصاحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام"⁵، والشيعة بالمفهوم المذهبي السياسي فرق متعددة أكبرها: (خمس فرق كيسانية، وزيدية، وامامية، وغلاة، وإسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه)⁶، وبالتالي فهي اتجاه عقدي مذهبي سياسي معروف، ومعارض لأهل السنة والخوارج.

¹ لسان العرب، 8 / 188

² مقالات الإسلاميين، (المكتبة الشاملة الإلكترونية)، 1 / 2.

³ النوبختي الحسن بن موسى، فرق الشيعة، (بيروت: دار الأضواء، 1404)، 2/1.

⁴ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (ط، 3، بيروت: دار الثقافة، 1989)، 220/1،

لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (111م)،

(الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979)، 193.

⁵ ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، (ط، 3، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1968)، 348 / 1

⁶ الشهرستاني أحمد، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1980/1400)،

147 / 1.

والأستاذ الدكتور موسى لقبال عندما يتتبع في بحثه بذور التشيع، يريد أن يبرز هذا الفرق بين التشيع العقدي المذهبي السياسي، والتشيع الذي هو حب آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم انطلاقاً مما تمتعت به شخصية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عند جميع المسلمين في المغرب من محبة وتقدير كمجتهد في الرأي، وكولي من أولياء الله، وفارس مظفر¹، وإن كان في رأينا أن الصيغتين الأخرتين هما الأظهر في بلاد المغرب، وخاصة لدى عامة الناس إذ تغنى بهما المسلمون المغاربة طول هذه القرون، ومازالوا في السهرات، والأعياد، والمناسبات، وفي الأسواق، بل صارت سيرة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ملحمة يرددوها ملايين المسلمين في هذه البلاد حبا في الفروسية، وإعجابا بالفرسان².

والأستاذ الدكتور موسى لقبال رصد الخوارق التي نسبها العامة إليه في بلاد المغرب إذ يروون إن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أو علال الذي خلع عليه لقب حيدر³، يسمون فرسه "سرحان" الذين يعتقدون أنه لا يغلب، وأن مصدر نبات النرجس لعبه، وصورته وحده، أو مع أبنيه الحسن والحسين، ثم هو راكب على جواده، كل هذا شكل لوحة فنية، كانت تباع نسخا منها في الأسواق، وتشتري لتعلق على جدران البيوت، والمحلات ليتبرك بها⁴.

لقد وحدت الاعتبارات هذه حب الناس لعلي وتقديرهم لآل البيت، فأصبح ذلك شرفا ومفخرة لسكان المغرب⁵، ومن هنا تعددت أسماءه، وأسماء آله، فعلي هو أعلول، وعلول، وعلال، وعليو، وعلولة، وفاطمة هي فطومة، وفطيمة، وفطيطة، وفطوم، وفاطيمة...

¹ لقبال، دور كتابته، 205.

² نفسه.

³ هامش، 49 ص، 205.

⁴ لقبال، دور كتابته، 205.

⁵ نفسه، 205.

ويؤكد محبة المسلمين في بلاد المغرب لعلي وآله قول ابن أبي الضياف : " وأهل أفريقية يدينون بحب علي وآله يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم جيلة في طباعهم " ¹.

وهذا الحب هو الذي حدا بالمؤرخين المغاربة كما يقول الأستاذ الدكتور موسى لقبال في عدم قبول الطعن في نسب الفاطميين منهم الباجي المسعودي الذي ذكر نسب المهدي الفاطمي على الصورة العلوية الصحيحة وعقب قائلا : " ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب، ولا بالخضر الذي كتب في عهد القادر بالله " ² لكن قضية النسب هذه لم تكن مطروحة بالنسبة لآل البيت في بلاد المغرب إلا عندما أحدث الفاطميون تبديلا في بعض العقائد، فبدأ رد أهل السنة بالتشكيك في نسب الفاطميين، ومن ثم فيمن أدعى هذا النسب، ولم يكن ذلك شائعا بين سكان المغرب منذ عهد بني إدريس، والأسر العلوية الأخرى .

ومن آثار هذا الحب لآل البيت ما ظهر من أثار الطرق الصوفية، والتي مازالت حتى اليوم في بلاد المغرب منها أن أبا الحسن الشاذلي الإمام المتصوف، وصاحب الطريقة الشاذلية كان يوصي أصحابه ومريده بقوله: " إذا اشتد عليكم كرب فقولوا: يا محمد يا علي "، ومنها أن النساء الحوامل كن إذا اشتد عليهن الوضع يقلن " يا محمد يا علي، ويلاحظ الأستاذ الدكتور موسى لقبال أن العاطفة الجياشة نحو علي وآله لا تعتبر تشيعا أو رفضا ³.

¹ ابن أبي الضياف أحمد، اتخاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، (تونس/ الجزائر : الدار التونسية للنش، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1396 / 1976)، 154/1.

² المسعودي محمد الباجي، (ت 1880/1297)، الخلاصة النقية في أمراء لإفريقية، مخطوط دار الكتب بتونس رقم، 16041، و 30 أ. هـ 206، دور كتامة، 206؛ أما الخضر المذكور فأهم المصادر التي أوردته هي : ابن الأثير عز الدين ابو الحسن، الكامل في التاريخ، تحقيق نخبة من العلماء (ط، 3، بيروت : دار الكتاب العربي، 1980/1400)، 263 / 7، ابن كثير الحافظ أبو الفداء، البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتية، (ط، 5، القاهرة : دار الحديث، 1998/1418)، 370/11، المقرئزي تقي الدين، اتعاط الحفء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد علي محمد أحمد، (القاهرة : مطابع الحجار التجارية، 1996/1416)، 43/1.

³ ابن أبي الضياف، اتخاف، 154/1، دور كتامة، 206.

وينبهننا الأستاذ الدكتور موسى لقبال إلى قضية مهمة، وهي أن البعض قد يرجع هذه الآثار إلى محلفات الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب، ونشاط الدعاة الذين توغلوا داخل جمهور المغاربة ويقول: " لكن يبدو من المقبول أن تكون أيضا رواسب قديمة من عصور الإسلام الأولى احتفظت بها بيئة المغرب التي أخذت مبادئ الإسلام على بساطتها الأولى"¹.

وهكذا يعود بنا الأستاذ الدكتور موسى لقبال إلى الجذور الأولى للتشيع في بلاد المغرب، الذي يختلف تماما في معناه ومحتواه عما عرف بالتشيع المذهبي السياسي في المشرق في نفس هذه الفترات، فالتشيع لم يكن من آثار الدعوة الإسماعيلية الشيعية ببلاد المغرب خلال القرن الثالث الهجري التي أدت إلى قيام دولة الفاطميين، وإظهار التشيع المذهبي السياسي، ويبدو أن الكثير من المؤرخين المذهبيين قديما وحديثا إما أن يكونوا قد فسروا التشيع بالمغرب حسب آراء مذاهبهم، أو أن بعدهم المكاني والزمني قد أدى بهم إلى لقيام بإسقاطات اختصروا فيها مسافات زمنية، وطووا فيها مراحل تاريخية، وبذلك انحازوا أو انحرفوا عن الحقيقة، ولم يعطوا لسير الأحداث وتطورها معناها الحقيقي، و الأستاذ الدكتور موسى لقبال الذي هو من بيئة المغرب نشأ فيها، بل وفي منطقة شهدت أحداثا تاريخية منذ الفتح الإسلامي لاسيما الوجود العلوي، والدعوة الإسماعيلية، وبالتالي فإن فهم هذا النوع من التشيع قد يزيح شيئا من هذا اللبس، ويعيد كثير من الأحداث والحقائق التاريخية إلى مكانها.

أسباب انتشار التشيع:

المتبع لدراسة الأستاذ الدكتور موسى لقبال يستنتج مجموعة من الأسباب الخاصة بهذا الانتشار في بلاد المغرب وعوامله نحوصلها فيما يأتي:

¹ دور كرامة، 207.

1 — شخصية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: تمتعت شخصية علي بن أبي طالب عند المسلمين في بلاد المغرب بمحبة وتقدير، فكانت المحور الذي دارت عليه ملاحظتهم البطولية كما أشرنا إلى ذلك آنفا، بل أصبحت رمزا يقتدى به، وعامل توحيد للمشاعر، والعواطف، وساق الأستاذ الدكتور موسى لقبال مثالا على ذلك مفاده: "أن الكثير من الناس يعتقد أن علامة الخمسة، وهي صورة الكف، التي ترمز فيما يبدو إلى لآل البيت أو أصحاب الكساء مفيدة في الوقاية من شر العين والحسد"¹.

2 — حادث قتله : وقد رفعت هذه الحادثة من قدره، بل أن ما صاحبها من أساطير شحنت هي الأخرى عواطف السكان.

3 — تقدير علي وآله وسائر بني هاشم : حيث أصبح ذلك سنة متبعة، وقدرا مشتركا بين جموع سكان بلاد المغرب السنيين، بل أن الانتساب إليهم يعد شرفا ومفخرة كبرى كما سبق ذكره، وكما يقول الأستاذ الدكتور موسى لقبال².

4 — رواسب الإسلام الأولى : يرد الأستاذ الدكتور موسى لقبال على الآراء القائلة أن للإسماعيلية دور كبير في إرساء دعائم بعض العادات والتقاليد الشيعية، فيقول: "يبدو من القبول أن تكون أيضا رواسب قديمة من عصور الإسلام الأولى احتفظت بها بيئة المغرب قبل أن يدخلها تحريف أهل الأهواء والفرق الإسلامية"³.

5 — المذهب المالكي: لقد أخذ أهل المغرب — ما عدا جماعة الخوارج — بمذهب إمام دار الهجرة " المدينة المنورة" مالك بن أنس، كما أن منطلق الشيعة كان المدينة المنورة، ومن ثم فكل ما جاء من هذا المكان المقدس، فهو معظم لدى المسلمين في بلاد المغرب.

6 — صلة الإمام مالك بالإمام بجعفر الصادق : المعروف أن المدينة كانت معقل الكثير من العلويين، لاسيما وأن مالك كان على صلة فيما يبدو بجعفر بن محمد الباقر أحد

¹ دور كتابة، 206.

² نفسه، 206.

³ نفسه، 207.

أئمة الشيعة الإسماعيلية، إذ أخذ عنه وتأثر به، وكان من المقربين إليه، ومن المؤيدين لنشاط العلويين ولنضالهم من أجل حقهم الشرعي، حتى امتحن في سبيل ذلك على يد أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي¹.

7 — المعتزلة المغاربة وتأبيدهم للأداسة : لقي إدريس بن عبد الله العلوي الناجي من موقعة فخ²، تأييدا من بعض الزعماء المغاربة الذين كانوا على رأي المعتزلة منهم أبي ليلى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوري لأنه تأثر بالزيدية عن طريق تأثر زيد بن علي إمام الزيدية، وهو مذهب الأداسة برئيس المعتزلة وعالمهم واصل بن عطاء (ت797/181)³.

8 — تقارب المذهبين السني واليزيدي : إن صفة الاعتدال هي التي جمعت بين المذهبين السني واليزيدي، ولذلك لم يتخرج أهل السنة في بلاد المغرب من مساندة الأداسة لأنهم أولا علويون من أهل البيت، ولأن زيدا كان معتدلا في قضية الإمامة الكبرى، ويوجد تقارب بين المذهبين في طريقة اختيار الإمام، وهي عوامل مشجعة على مناصرة

¹ لقبال، دور كتامة، 207. = يروى أن الإمام مالك لم يكن راضيا عن الحكم العباسي بدليل موقفه من ثورة العلويين التي قامت في المدينة المنورة سنة 145/762 بزعامة محمد النفس الزكية حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد أفق أنه ليس على مكروه يمين طلاق، وهذا يعني أن بايع العباسيين مكروها يمكنه الخروج عنهم، انظر القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكير محمود، (بيروت : دار مكتبة الحياة، ودار الفكر، د. ت)، 1/228.

² المسعودي، مروج الذهب، (المكتبة الشاملة الإلكترونية)، 480/1. = "ظهر في أيامه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو المقتول بفخ، وذلك على ستة أميال من مكة، يوم التروية وكان على الجيش الذي حاربه جماعة من بني هاشم: منهم سليمان بن أبي جعفر، ومحمد بن سليمان بن علي، وموسى بن عيسى، والعباس بن محمد بن علي، في أربعة آلاف فارس، فقتل الحسين وأكثر من كان معه، وقد أفلت إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب من وقعة فخ في خلافة الهادي، الطبري، تاريخ الرسل والملوك - (ج 4 / ص 493).

³ ابن الفقيه أبي بكر أحمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان، (لیدن: مطبع بريل، 1302/1884 "تصوير در صادر"، 84، ابن خلكان أبو العباس شمس الدين، وفیات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، (بيروت : دار صادر، 1414/1994)، 6/7؛ الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، (بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر، 1400/1800)، 1/207 و 3/1 المكتبة الشاملة الإلكترونية.

الزيدية أو أهل البيت الذين لقوا عنتا واضطهادا من الخلافتين الأموية والعباسية، باغتصباهما الحق الشرعي لهؤلاء.

9 — الحب والتقدير لآل البيت جمع بين البتر والبرانس : هذا العامل كان مهما في تكاتف القبيلين الكبيرين ببلاد المغرب لمناصرة آل البيت، يقول الأستاذ الدكتور موسى لقبال " ويتحمسون لقضية إدريس بن عبد الله ويقدمون مساعدتهم له حتى تمكن من تأسيس ملك وراثي يعتبر أول تجربة سياسية ناجحة للعلويين على مستوى العالم الإسلامي مشرقه ومغرب¹".

10 — نجاح الإدارة عامل جذب لآل البيت : أدى النجاح الكبير الذي أحرز عليه الإدارة في بلاد المغرب خاصة الأقصى، وقيام دولة علوية على تراب المغرب لأول مرة في العالم الإسلامي شجع آل البيت على الهجرة نحو بلاد المغرب، كما أتاح للدعاة من بعض رجال الفرق القدوم إلى هذه البلاد كدعاة الإسماعيلية منهم الحلواني، وابو سفيان، لاسيما وأن اختلاط العلويين ومنهم الإدارة بالسكان عن طريق المصاهرة، والجوار، واحتفاظهم بمذهبهم الزيدي مع ترك رعاياهم في إطار المذهب السني، ثم سلوكهم سبيل الدعوة السلمية الهادئة لآل البيت²، قد زاد من رغبة هؤلاء في الانتقال إلى بلاد المغرب أين سيجدون قبولا، وحماية لم يحصلوا عليها في بلاد المشرق.

النتائج :

كان لدخول الإسلام ببلاد المغرب، ولحركة التشيع في زيتها العلوي منذ الفتح الإسلامي أثارا هامة غيرت الكثير من السلوكات، والعادات، والقيم التي كانت قائمة، وساعدت على إحلال محلها سلوكات، وعادات، وقيم جديدة إسلامية في عمقها عربية في ميسمها، وكيفت الكثير أيضا مما كان قائما ليتماشى وتعاليم الدين الجديد مشكلة بذلك مجتمعا جديدا هو المجتمع المغربي العربي الإسلامي.

¹ لقبال، دور كتامة، 208.

² نفسه، 208.

والأستاذ الدكتور موسى لقبال سلط الضوء على كثير من هذه الجوانب كما رأينا في أعماله العلمية لاسيما دوركتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية التي سبق أن قدمنا حوصلة عن أسباب حركة التشيع في بلاد المغرب التي تركت أثارا نحاول فيما يأتي استخلاصها مما كتبه الأستاذ الدكتور لقبال وهي:

1 — الاختلاط السريع للوافدين من المشرق من العلويين بسكان المغرب لاسيما عن طريق المصاهرة ليشكلوا بذلك لحمة واحدة.

2 — تحول العلويون إلى مواطنين مغاربة " بلديين " أي من أهل البلد، وذلك عن طريق أمهاتهم وزوجاتهم، كما يقول الأستاذ الدكتور موسى لقبال¹.

3 — انتشار فروع العلويين في المغرب الأقصى والأوسط : سهلت المصاهرة بين الوافدين العلويين، وأهل البلد من البربر، وتحول هؤلاء إلى مواطنين مغاربة وانتشار فروعهم في بلاد المغرب لاسيما الأقصى والوسط، و في هذا يقول الأستاذ الدكتور موسى لقبال: " وهنا يفهم لماذا انتشرت فروعهم في أرجاء من المغرب الأوسط والأقصى بين مضارب البتر ومضارب البرانس أيضا"².

4 — سيادة العلويين على بلاد المغرب: مما سبق لاسيما تحولهم إلى مواطنين مغاربة يتبين "لماذا تصدوا للفاطميين وللأمويين أيضا، ونازعوهم في السيادة على المنطقة لفترة غير قصيرة"³.

5 — تكوين أسر كبيرة ظلت تفتخر حتى الآن بنسبها الحسيني الشريف، وتتخذ السمات والأسماء التي تدل على ذلك⁴.

¹ دوركتامة، 208.

² نفسه.

³ نفسه.

⁴ نفسه.

6 — فتحت هذه البذور الأولى حركة التشيع الطريق واسعا للدعوة الإسماعيلية الشيعية التي قام بها دعاة إسماعيليين محنكين في بلاد المغرب منهم الحلواني، وأبي سفيان كما أشرنا إلى ذلك سابقا، والداعية الكبير أبو عبد الله الشيعي الصنعاني المعلم الإيكجاني الذي تمكن من انجاح الدعوة في ظروف ضعف نفوذ الخلافة العباسية في بلاد المغرب، وضعف تابعها الأغالبة، وكثرة النزاع في الأسرة الأدرسية بالمغرب الأقصى، يقول الأستاذ الدكتور موسى لقبال: "ويبدو أن عمل الأدارسة في هذا الميدان، سهل مهمة الفاطميين الذين وجدوا النفوس مستعدة لتقبل أية حركة جديدة تنتسب إلى آل البيت، والبيئة صالحة للبذر الطيب الذي زرعه ورعاه الأدارسة الحسينيون"¹.

7 — قيام دولتين للعلويين في بلاد المغرب، وفي بلاد الإسلام كلها هما دولة الأدارسة سنة 172 / 788، والدولة الفاطمية سنة 296 / 999.

إمارات العلويين ومراكزهم بالمغرب الأوسط :

لقد تمكنت الدعوة العلوية من المغرب، وانتشرت بين سكانه انتشارا كبيرا لاسيما في المغربين الأقصى والأوسط، وكان للعلويين وفق هذا الانتشار مراكز ومدن ونواحي عرفت بهم، وقد توصلوا إلى إقامة إمارات لهم آتت على ذكرها العديد من المصادر، وقام الأستاذ الدكتور موسى لقبال بمحصر قائمة لها تنسب إلى بني سليمان، أو لبني محمد من إخوة إدريس، وهم أبناء عبد الله بن حسن²، أو لأقربائهم الأدارسة، وتبدأ بانتهاء حد أقليم الزاب حتى المغرب الأقصى³، وهو أقصى حدود انتشار العلويين في بلاد المغربين الأوسط والأقصى، والإمارات والمراكز هذه هي كما يأتي:

¹ نفسه، 209.

² البكري أبو عبيد عبد الله، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، (بيروت : دار الكتب العلمية، 2002/1424)، 308/2؛ ابن عذاري، البيان المغرب، (المكتبة الشاملة الإلكترونية، 298/1، لقبال، دور كتامة، 209.

³ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002/1422)، 191، ابن عذاري، البيان المغرب، (المكتبة الشاملة الإلكترونية، 156/1.

1 — إمارة هاز : التي سميت بأحدى مدنه الزاب " هاز " والتي تقع قرب المسيلة، وكان يسيطر عليها الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي، وقد امتدت في مضارب عدة فروع لبني يرنيان من بتر زناتة، وعناصر من زواوة وصنهاجة من البرانس¹.

2 — إمارة تمطلاس : في غرب المغرب الأوسط نواحي تلمسان، في مضارب مطماطة من فروع البتر، وقد جمعت فرع الحسنيون من بني محمد بن سليمان، ولها مراكز هي ايزرج، والمدينة الحسنة، ومدينة العلويين، ومدينة فالوسن، وهي الحد الذي ينتهي عنده مراكز العلويين.

3 — إمارة نكور : والتي تلي مركز فالوسن وهي لبني سعيد بن صالح من عرب حمير².

4 — بالإضافة إلى ذلك توجد مراكز للعلويين في المغرب الأوسط منها:

◆ ارشقول على ساحل تلمسان، وهي جزيرة صخرية وسط البحر.

◆ مدينة حمزة "البويرة" التي نسبت إلى من نزلها من بني سليمان العلويين وهو حمزة بن الحسن بن سليمان، وتعرف أيضا بسوق حمزة.

◆ حوض الشلف وبه عدة مراكز أهمها مذكورة بالقرب من مليان، ومدينة الخضراء وهي منفذا لمدينة تنس، وأغزر في متيجة إلى جانب مراكز أخرى صغيرة.

◆ مدينة سوق إبراهيم والتي سيطر عليها فرع علوي من بني الحسن، ومراكز أخرى على الطريق المؤدي من إمارة هاز إلى تاهرت³.

¹ لقبال، دور كتامة، 209.

² البكري، المسالك والممالك، 273/2، ابن عذاري، البيان، 43/1 و 105، ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، (بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1998)، 6/ 213؛ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، (الدار البيضاء/ المغرب : دار النشر المغربية، 1985)، 136، لقبال، دور كتامة، 211.

³ لقبال، دور كتامة، 210، 211، 212.

مدخل عن المذهبية في فكر الأستاذ الدكتور موسى لقبال

د. إبراهيم بكير بحاز

جامعة منتوري قسنطينة

اقتضت إرادة الله ومشيئته أن يخلق الناس من ذكر وأنثى وأن يجعلهم شعوبا وقبائل، قال تعالى: «يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»¹.

كما اقتضت مشيئته ألا يبقى الناس أمة واحدة فقال: «ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»²، فهذا التنوع بين الذكر و الأنثى، وبين الشعوب والقبائل، يقتضي حتما أن يفرز الاختلاف، ويخلق التعدد ويؤدي بالتبع إلى التنافس، ويفضي هذا كله إلى تنافس إيجابي هو البناء، أو تنافس سلبي هو التناحر والافتتال وتبادل التهم.

وفي التاريخ الإسلامي، ومنذ خير قرونه، عرفنا جهود الرسول (ص) في التوحيد بين القبائل بما يعرف في سيرته بالمؤاخاة، ذلك العمل الذي حوّل العرب في جزيرتهم من شتات إلى وحدة، ومن ضعف إلى قوة، ورغم ما أصابهم بعد وفاة النبي (ص) من شبه تمزق بما يعرف بحركة المرتدين، إلا أن خليفته أبابكر الصديق (ض) استطاع مع المخلصين من المسلمين، وهم الأكثرية آنذاك، أن يعيد توحيد الأمة المحمدية في ظرف عام من وفاة الرسول (ص)، الأمر الذي حوّل له أن يوجه قوة الوحدة الجديدة، إلى خارج حدود الجزيرة العربية، إلى بلاد العراق وبلاد الشام، فخرج المسلمون إلى

¹ سورة الحجرات، آية 13

² سورة هود، آية 119

الفتوحات كتلة واحدة وشحنة إيمانية عظيمة، لم تستطع أن تقف أمامها، وفي آن واحد، لا جبروت الفرس وقوتها ولا سياسة الروم وقوتهم، فتقدموا زحفا نحو بلاد فارس وخراسان والسند والهند شرقا ونحو بلاد مصر والمغرب والأندلس غربا.

وحيث أن عرب شبه الجزيرة العربية، دخلوا بلاد عرب العراق وعرب الشام وأعاجم الإقليمين، فلا بد أن تحتاج وحدة العرب إلى علاج جديد وهو الأمر الذي لم يتم، فأدى إلى تصدع في جسم الأمة الواحدة، مباشرة بعد عشرين عاما فقط من وفاة الرسول (ص) وبداية الفتوحات، إذ بدأت القلاقل في النصف الثاني من خلافة عثمان (ض)، أدت إلى اغتياله واستشهاده، فخلفه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ض)، ليلقى نفس مصير سلفه بعد أقل من ست سنوات من خلافته قضاهما في محاولات يائسة لرأب صدع الأمة، وفي تسوية الخلافات مع زعامات من أصحابه وأصحاب الرسول (ص)، فلم تشفع فيه عزمته وشجاعته وحكمته، ولا قرابته من الرسول (ص)، بل ربما أدت هذه الأخيرة إلى شدة التنافس والتنافر بين الطائفتين من المسلمين الذين اقتتلوا في الجمل، وفي صفين وفي النهروان، وثبت عمليا وتاريخيا، قضاء الله وقدره بأن الناس خلقوا مختلفين ولكي يختلفوا، وأنه لذلك خلقهم، فلو أن قوما يستثنون من هذا القضاء الصعب، لكان صحابة رسول الله (ص) هم الأولى، فهم رعية خير القرون، ومع ذلك تنافسوا وتقاتلوا وسالت دماؤهم وتمزقت وحدتهم، ولا تزال ممزقة رغم بعض المحاولات في إعادة توحيد الأمة الإسلامية، ولكنها باءت بالفشل، وثبت قوله تعالى لنبيه «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم»¹.

ومنذ ذلك الافتراق، وأمة الإسلام مذاهب وفرق تتقاتل طورا وتتنافس على السلطة أطوارا، تتبادل التهم وتتفاخر مرارا بل دوما ولا تزال.

¹ سورة الانفال، آية 63 .

هذه هي الأمة الواحدة التي قال الله فيها : «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»¹. رغم اختلافاتها ونزاعاتها المستمرة، فهذه سنة الله في خلقه لمن فهمها وأدرك مغزاها، من علماء الإسلام وحاول قديما وحديثا أن يرى الإيجابيات ويتفادى السلبيات، يثمن جانب البناء والحضارة، ويتجنب معاول التهديم والتقزيم لأدوار الفرق الإسلامية في التاريخ الإسلامي.

ومن بين هؤلاء العلماء الذين رأوا فعلا إلى المذهبية في الإسلام بأنها عامل ثراء وحضارة في الفكر الإسلامي، أستاذنا الدكتور موسى لقبال، أطال الله عمره، فقد قرأت عبارته البديعة في المذهبية، منذ أكثر من ربع قرن²، والحقيقة أنه كان قد نشرها قبل ذلك التاريخ بكثير حيث يقول: «إن المذهبية في المشرق وفي المغرب دليل على خصوبة نصوص الإسلام، وحيوية المسلمين واستعدادهم للتطور»³.

فهذا هو شأن العالم الذي يبحث عن مكان القوة والوحدة و التقارب في المذاهب، يجدها ويلتمسها ويدعو إلى استثمارها، فالوحدة الإسلامية إنما تتشكل بمجموع المسلمين، وصناعة الحضارة إنما تمت بمجموع الفرق، وبالتالي لا يستقيم التطلع إلى وحدة المسلمين وقوتهم المستقبلية إلا من خلال جمع المذاهب الإسلامية دون إقصاء، أي هي وحدة ضمن التعدد والتنوع، ومن طلبها في غير هذا التعدد، فلن يجني سوى الفشل، وقد أكد التاريخ الإسلامي الطويل فشل هذا المنحى الإسلامي الإقصائي.

لقد كان الدكتور موسى لقبال، مهتما كثيرا بالمذاهب الإسلامية في البلاد الإسلامية بعامة وفي بلاد المغرب بخاصة، لذلك نجده دوما، يختار عناوين كتبه بإيحاءات مذهبية: "المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج"⁴,

¹ سورة الانبياء آية 92.

² مجاز : الدولة الرسمية، 341—342 مبحث المناظرات الكلامية .

³ لقبال: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج: سياسة ونظم، مطبعة البعث، قسنطينة 1969، 246.

⁴ انظر معلومات النشر في الهامش السليق.

"دوركتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية"¹، "الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشأتها وتطورها"² كما يساهم حتماً ويقينا في اختيار عناوين أطروحات تلامذته في الدراسات العليا، من المنحى نفسه: فهذا الدكتور محمد بن عميرة في أطروحته للماجستير بعنوان: "دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي"³، وهذا الدكتور إسماعيل سامعي في أطروحته للماجستير أيضا بعنوان "دور المذهب الحنفي في الحياة الثقافية والاجتماعية ببلاد المغرب الإسلامي: ق2—5هـ/8—11م" أما أطروحته للدكتوراه، ففي المنحى نفسه وهي بعنوان: "القاضي النعمان ودوره في الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب الإسلامي".

فهذه نماذج من عناوين أطروحات أشرف عليها وهو الذي أشرف على العشرات منها وناقش العشرات، ذكرت التي أعرفها أما التي لا أعرفها ولم أطلع عليها فكثيرة جدا ، وإنما أردت الإشارة لا الإحصاء والمسح.

لقد كان الدكتور موسى لقبال ، مهتما فعلا بالمذهبية يسبر أغوارها من خلال كتبه وتلامذته، تأليفا وإشرافا، لذلك تجمعت عنده ثروة معرفية ثقيلة، بدأت بمنطلقه الاهداف في رؤيته للمذهبية، وهو ما أشرنا إليه سابقا، وانتهت إلى نصوص بديعة وتحليلات موفقة لسيرورة التاريخ المذهبي ببلاد المغرب الإسلامي.

وإذا أردنا أن نقدم نماذج من رؤيته المذهبية هذه من خلال نصوص كتبه في المذهبية وهي منطلقه، قرأنا في كتابه الحسبة المذهبية، مدى التقارب المذهبي بين المالكية والاباضية، ففي معرض حديثه عن المصادر المعتمدة في بحثه هذا، يقول بأنه اعتمد "كتاب النيل وشفاء العليل" للشميني عبد العزيز ويضيف: "وهو في الفقه الإباضي. وقد لاحظت تشابها كبيرا بين هذا الأخير وبين مختصر خليل بن إسحاق الجندي المصري المالكي. سواء في عرض المصطلحات أو في كيفية الصياغة مما جعلني أرجح بأن إباضية

¹ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1971.

² الشركة القطنية للنشر و التوزيع. 1979.

³ المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984.

إفريقية أعجبوا بالمختصر المالكي، وهالهم عدم وجود كتاب مذهبي يماثله بالنسبة لهم، فانبرى عالمهم الثميني بعد دراسة عميقة للمختصر وألف كتاب النيل، وقد رجعت إليه في قضية حكم التسعير عند الإباضية، فلاحظت عدم وجود فرق بين ما يروونه وما يذهب إليه المالكية في هذا الموضوع، وكتاب النيل عند الإباضية معتمد حياتهم ومجمع لأصول مذهبهم الأخرى¹.

وفي الكتاب نفسه، يلاحظ الدكتور أن نظام العزابة في عهدنا استمرار لنظام الحسبة المذهبية، الذي عرفه الإباضية في عصر الرستميين ويقول: "والسبب أن أحد أفراد هذه الهيئة الدينية (أي العزابة) يهتم بحركة الأسواق و الهيئة بكامل أفرادها تسهر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل نظيرتها في المملكة السعودية"².

ويعود الدكتور إلى المصادر وما أخذ منها من نصوص ووضعها ملاحق بعد خاتمة كتابه، اقتبسها من كتب النوازل والأحكام، ومن بعض مهمات الفقه الإباضي، وأثبت بإزائها بعض المقتطفات من بعض أمهات الفقه المالكي، كل ذلك يقول الدكتور: "لتيسر المقارنة، وتظهر حقيقة ما أكدته من تقارب المذهبين المالكي والإباضي..."³.

كان الدكتور لقبال يبحث عن التقارب ويلج باستمرار عليه، وينظر باستمرار إلى المذاهب بأنها ثمرات لجهود رجال مخلصين فيقول عن التيار المذهبي والسياسي الذي رافق فتح بلاد المغرب: "والذي يلفت النظر حقا في مسيرة حركة الفتح بشقيها العسكري و الثقافي، أنها كانت خير فرصة استغلها أرباب المدارس الفكرية والمذاهب الدينية والدعاة إلى آرائهم في فلسفة الحكم وتنظيم المجتمع وضبط علاقاته المختلفة".

¹ لقبال الحسبة المذهبية. 9، 15.

12 نفسه، 18.

³ نفسه. 19.

ويضيف "والدعوة المذهبية أو التيار المذهبي في أرض المغرب الإسلامي من أعظم ما شهدته المنطقة في القرن الثاني للهجرة، كمحطة لانتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية، وكأثر من آثار اختلاف المسلمين حول موضوع الإمامة الكبرى (الخلافة) وتعتبر أيضا ثمرة حسنة لجهود رجال مخلصين لدينهم، ولآرائهم، ولأمتهم، وهم الدعوة"¹.

ويتناول الدكتور أول داعية للإباضية في بلاد المغرب وهو سلمة بن سعد بالذكر ويسجل قولته المشهورة "وددت لو يظهر هذا الامر (أي المذهب الإباضي) ولا أبالي بعدها أن تقطع عنقي"²، ويعلق الدكتور على بقاء الإباضية ببلاد المغرب عكس الفرق الصفرية والأزارقة والنجدات اللاتي لم يبق لها أتباع في العالم الإسلامي، ويبرز ذلك بكون الإباضية "...قريين من أهل السنة، إن لم يكونوا مثلهم، فآثارها الأدبية و المادية، وأتباعها يوجدون في جهات من المغرب و المشرق الإسلامي"³ ويعلق الدكتور على هذه الفكرة بفكرة بديعة أخرى قوله: "ومن حسن حظ سكان المغرب الإسلامي أنهم لم يعرفوا من نحل الشراة غير المعتدلين في الفكر، وفي النظرة، الميالين إلى المعاشة والسلم مع مخالفيهم"⁴.

ويبقى الدكتور يتحدث عن اعتدال الإباضية في انتصاراتها وهزائمها ضد السلطة العباسية ببلاد المغرب، لما كانت الإباضية تسعى لإقامة إمامة لها في هذه الربوع، وقد فشلت مرارا في مسعاها، ويعلق الدكتور على انتصار أبي الخطاب المعافري الإباضي ضد ورفجومة الصفرية في مدينة القيروان، وتعيين عبد الرحمن بن رستم واليا وقاضيا في المدينة من قبل الإمام أبي الخطاب المعافري، و"منها يشرف (أي عبد الرحمن بن رستم) على شؤون المجتمع الإسلامي السني، الذي لا يعترف بغير

¹ لقبال موسى وآخرون. الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني. المجلد 3. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984. ص 33.

² المقولة في النص جاءت مبتورة وتماها هو: وددت لو يظهر هذا الامر (أي المذهب الإباضي) من أول النهار إلى آخره، ولا أبالي بعدها أن تقطع عنقي، أنظر ص 33.

³ لقبال، الجزائر في التاريخ. 33/3.

⁴ نفسه، 34/3.

الخليفة العباسي إماما ورئيسا وراعيا روحيا، فيضيف الدكتور، ورغم أن السياسة الإباضية في هذه المرحلة تجاه المجتمع الإسلامي في إفريقية، و مدينة القيروان، تميزت بالحكمة والتعقل و الاعتدال كما هي طباعهم، الأمر الذي ساعد على إيجاد نوع من الهدوء و السلام، فإن جماهير السكان استمروا يضغطون على الخليفة أبي جعفر المنصور الذي ساءه أيضا أن تنفصل إفريقية عن سلطانه السياسي و الروحي وتصبح تحت توجيه المعارضين لخلافته من الإباضية..."¹.

ولما استعاد العباسيون القيروان وإفريقية من يد الإباضية عام 145هـ — بعد هزيمة سرت واستشهاد الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، يقول الدكتور لقبال: "وهذه الهزيمة التي وضعت حداً لأكبر نظام إباضي ناجح في إفريقية، لم يتقبلها الإباضية فاستمروا يناضلون ضد ولاة الخلافة العباسية..."².

وكان زعيمهم في هذه الفترة، عبد الرحمن بن رستم الذي وعى الدروس الماضية، فترك القيروان وإفريقية واتجه نحو المغرب الأوسط حيث بنى مدينة تيهرت التي يقول عنها الدكتور لقبال: "وغدت تاهرت (معسكر ابن رستم) عاصمة لأكبر دولة إسلامية إباضية، شملت بنظرها إباضية المغرب الأوسط، وطرابلس، وجبل نفوسة والجريد و نفزاوة وجربة مع ما كان يربطها من علاقات حميمة مع إباضية المشرق وصفرية سلجماسة.

وهذه الدولة تعتبر أيضا، أقدم الدول المستقلة سياسيا ومذهبيا في إطار المغرب الإسلامي، سبقت في الظهور نظام الإدارة في المغرب الأقصى، ونظام الأغالبة في تونس (المغرب الأدنى)"³.

¹ نفسه 36/3 — 37.

² نفسه، 3 / 37.

³ نفسه، 3 / 38.

أتوقف هنا من الاقتباسات من مؤلفات الدكتور موسى لقبال، لكي أؤكد على استمرار الدكتور في نظريته للمذاهب الإسلامية بأنها دليل على خصوبة نصوص الإسلام، وحيوية المسلمين واستعدادهم للتطور، فأقواله كلها تنضح كلماته بهذا التوجه، وتؤكد احترامه لرؤى المذاهب، وتعترف للمذاهب باعتمادها ودورها وتصف تلك الدول بالحكمة والاعتدال طورا وبأفكار أكبر دولة إسلامية إباضية وأقدمها استقلالا سياسيا ومذهبيا في إطار المغرب الإسلامي، فليس من السهل على الباحث أي باحث أن يعطي التفضيل بأكبر وأقدم لدولة لا تمثل مذهبه، لو لم يكن منصفاً ومعتدلاً: دولة وُصف مذهبها دوماً بأنه من مذاهب الخوارج.

وأود أن أتوقف في سطور، بهذه المناسبة الخالدة مناسبة تكريم مؤرخ من علماء جزائرتنا الحبيبة، أستاذنا الدكتور لقبال موسى، لأسأله أمن الإنصاف أن توصف الإباضية بأنها من الخوارج، وقد انقضت فرق الخوارج جميعها، فهل يُعقل أن تبقى فرقة واحدة من عشرين فرقة للخوارج أو أكثر، كلها وُصفت بالتشدد، فما معنى تفرد هذه الواحدة بمنهجها، واستقلالها برؤيتها؟

إن الإباضية تنتمي إلى المحكّمة فعلا، ولكن ليس إلى الخوارج الذين ظهرُوا ابتداء من عام 64 هـ — لما افترق المحكّمة إلى غلاة ومعتدلين، عُرف الغلاة بالخوارج وعُرف المعتدلون عند الخوارج بالْقَعْدَة، إلا أن سياسة بني أمية اعتبرت كل معارض لها من الخوارج لتحطيم بريقه أمام رعيّتها، وتلك حبائل السياسة الأموية ثم العباسية التي سايرها مؤرخو الحكم ولا يزالون، فمتى تصل صيحة عبد الله بن إباض في رسالته إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ببراءته من ابن الأزرق وأفعاله إلى أسماع مفكرينا ومؤرخينا؟ ومتى يُعترف للإباضية بسنيتها وقرآنيّتها وإن عادت جذورها إلى المحكّمة والتي بدورها شوّهتها أقلام السلطة قديما وحديثا؟.

جهود الدكتور موسى لقبال

في الارتقاء بالبحث العلمي بجامعة الجزائر

(من خلال رسائل الإشراف في مرحلتي الماجستير والدكتوراه)

(بين سنتي 1978 و 2007)

أ.عبد القادر بوعقادة

جامعة محمد بوضياف المسيلة

يحق في شأن الأستاذ موسى لقبال أن نلقبه بعميد مؤرخي التاريخ الوسيط بالجزائر وذلك لما لهذه الشخصية من جهود وإسهامات في حركة البحث العلمي الجاد، ذلك أن بصماته في هذا الميدان لا يمكن أن تُغفل وأن استنتاجاته وتحليلاته التاريخية لا يمكن أيضا أن يتحاشى الخوض فيها أي مؤرخ يخوض غمار الحديث عن بلاد المغرب الإسلامي من عهد الفتوح إلى نهاية العصر الوسيط، وهذا لعدة مميزات تخصه دون غيره منها على سبيل الاختصار :

1— قوة الملاحظة للأشياء والدقة في تمييزها عن بعضها البعض وهذا حينما تختلط المواضيع والأفكار عند تلامذته أو مناقشيه وهو ما يظهر على مستوى تفصيل المواضيع وتحديد الأفكار اللائقة بشأنها.

2— القوة في طرح مضامين المواضيع وإشكالاتها، وتوجيه الباحث إلى كنه الموضوع حتى لا يتيه في أتون الأحداث التاريخية التي ترمي بكلكلها على الباحث المبتدئ، وبذلك يزيل له الغموض وتنكشف لهذا الباحث طريق الجادة للوصول إلى الحقيقة التاريخية دون كبير عناء أو وقت مهدور .

لقد قدّم الأستاذ الدكتور أعمالا جلية في ميدان التاريخ عامة والوسيط خاصة يمكن تلخيصها في الآتي:

1— عمله منذ التحاقه بالجامعة الجزائرية على توجيه أجيال لا حصر لها من خلال الدروس والمحاضرات التي كان يشرف عليها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجزائر وخارجها.

2— إلقاء المحاضرات في المناسبات المهمة على مستوى الإذاعة والتلفزة الجزائرية بحيث صار المرجعية التاريخية المدققة التي يستند إليها الرسمىون في توجيهاتهم للعامة والخاصة في المناسبات وغير المناسبات .

3— حضور الملتقيات العلمية ذات المستوى الوطني والدولي لمناقشة المسائل التاريخية الخاصة بشأن المغرب الوسيط .

4— يعتبر الأستاذ الدكتور الضابط العلمي لكثير من المجالات التاريخية التي تصدر بداخل الوطن، حيث يعتبر من أبرز أعضاء لجائها العلمية مثل المجالات التي تصدر في أقسام التاريخ على المستوى الوطني و مجلة المسجد التي تصدرها وزارة الشؤون الدينية ومجلات مماثلة .

5 — جهوده في الكتابة التاريخية التي تعتبر ذات نوعية في تحليل الظواهر التاريخية ببلاد المغرب، حيث يعد كتابيه (المغرب الإسلامي، ودور كتامة في قيام الدولة الفاطمية) عصار الجهود الذي إنتهى إليه، مثلما يبرزان القيمة العلمية الحقيقية لأستاذنا .

6— كتاباته التي تناولها على مستوى الصحف اليومية والأسبوعية لأجل توجيه الرأي العام أو الرد متى وجب الرد.

7— استقبال الطلبة الباحثين القادمين من أنحاء الوطن للاستشارة أو الاستزادة من الفهم للتاريخ الوسيط، وكذلك الطلبة القادمين من خارج الوطن، إذ يعدّ واجهة الجزائر في مجال البحث عن تاريخ المغرب الوسيط .

8 — الإشراف على الرسائل الجامعية بالنسبة للباحثين لنيل شهادتي الماجستير والدكتوراه على المستوى الوطني، مما يبرز جديته في البحث العلمي، وقيمه التي لا

تخفى على أحد، وقد وجدناه يتابع طلبته الذين يشرف عليهم مباشرة عبر تقارير يقدموها دوريا وسنوياً، فهو يتابع ويوجه الباحث فينتقد الخطأ ويصوب الأفكار ويصحح الأخطاء ويحثّ على المزيد من الاجتهاد، ويحرص على الوقت إذ الوقت عنده هي مقياس الباحث الجاد الذي يرتاح إليه.

والجدول المائل أمامنا يبيّن الجهود التي بذلت من قبل الأستاذ الدكتور في مجال الإشراف على رسائل الماجستير والتي عرفت سابقا بدكتوراه الدرجة الثالثة على مستوى جامعة الجزائر العاصمة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابتداء من سنة 1978 إلى سنة 2007م

عنوان الرسالة	الطالب	تاريخ المناقشة	قرار اللجنة
دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي	محمد بن عميرة	1978	جيد جدا
دور أسرة البرامكة في الخلافة العباسية	قويدر بشار	1986	مشرف جدا
العصبية القبلية وأثرها في النظم والعلاقات بالمغرب في ق6 و7هـ	بوزياني الدراجي	1988	مشرف جدا
نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي ميزاب	صالح أسماري	1987	جيد جدا
التجارة الخارجية بتلمسان في	لطيفة بشاري	1987	مشرف جدا

			عهد الإمارة الزيرية من ق 7 إلى 10هـ
مشرف جدا	1988	رشيد تومي	العلاقات الخارجية لدولة النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية
مشرف جدا	1989	أحمد شريفي	علاقات مغول تركستان مع القوى السياسية في القرن 7هـ
" "	1991	شنايت العيفة	دولة بني مدرار بسجلماصة ودور تجارة القوافل وازدهارها الحضاري في القرنين 2 و 4هـ

عنوان الرسالة	الطالب	تاريخ المناقشة	قرار اللجنة
نشاط هيئة الداوية في بلاد الشام وغرب أوربا 513هـ - 710م	قمعون عاشوري	1995	مشرف جدا
دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي بين ق 2 و 5هـ	إسماعيل سامعي	1995	مشرف جدا

" "	2001	الطاهر بن علي	ابن حزم و ظاهرة التجديد
" "	2001	سامية سليمان	النشاط الصليبي لهيئة الأستارية 1099-1522م
مشرف جدا	2002	زكية كربال	إمارة كييف في العصور الوسطى
مشرف جدا	2002	الطاهر سبع	دور مدرسة المدينة في الكتابة التاريخية من خلال أبرز مؤرخيها في مطلع ق2هـ / 8م
مشرف جدا	2002	السعدي شخوم	الحياة العلمية في قرطبة من خلال كتاب المقتبس لابن حيان
" "	2002	موسى هيصام	الجيش. في العهد الحمادي
" "	2004	حسية عبدوني	الحياة العمرانية في عهد المرابطين ق5هـ / 11م
مشرف جدا	2004	عبد القادر بوعقادة	المذاهب الفقهية المندثرة وأثرها في التشريع الإسلامي في القرنين 2 و3هـ / 8 و9م

عنوان الرسالة	الطالب	تاريخ المناقشة	قرار اللجنة
التربية والتعليم عند الإباضية بالمغرب الإسلامي بين القرنين 3 و5هـ/11 و9م	صلاح الدين شعباني	2005	" "
علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية ق4-9هـ/ 10-15م	نور الدين شعباني	2006	" "

كما برزت جهود الدكتور موسى لقبال في مجال البحث العلمي من خلال مناقشاته لتلك الرسائل التي كان يقدمها طلبة الماجستير أو دكتوراه الحلقة الثالثة تحت إشراف أساتذة آخرين بقسم التاريخ على مستوى جامعة الجزائر العاصمة، وذلك بتوجيهاته العلمية القيمة وتصويباته التربوية التي تنم عن حسن إطلاع وتمكّن علمي بارز، وقد لاحظنا من خلال هذا كلّ أنه أراد تكوين مدرسة مغربية واضحة المعالم بتوجيه الباحثين إلى مكمن الداء 'الذي يجب أن يتدارك بدواء وبوصفة محلية علية بأوضاع بلاد المغرب الإسلامي في جميع الميادين .

ومن هذه الرسائل التي ناقشها لطلبة تحت إشراف أساتذة آخرين، وقد كان رئيسا للجنة المناقشة أو عضوا فيها نذكر ما يلي :

عنوان الرسالة	الطالب	تاريخ المناقشة	قرار اللجنة
المساجد العثمانية (دبلوم الدراسات المعمقة)	مبروك مهريس	1985	
التطور السياسي والاقتصادي في نواميديا	محمد الهادي حارش	1986	مشرف جدا
الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و4هـ	جودت عبد الكريم يوسف	1986	جيد جدا
مساجد أثرية في منطقتي الزاب ووادي ريغ	عبد العزيز شهبي	1986	جيد

عنوان الرسالة	الطالب	تاريخ المناقشة	قرار اللجنة
الربط بالمغرب الإسلامي ودوره في عصر المرابطين والموحدين	محمد الأمين بلغيث	1987	مشرف جدا
التبادل التجاري بين المغرب القديم وإيطاليا خلال العهد الإمبراطوري الأول ق1، 3م	آسيا مسعودي	1989	مشرف

مشرف جدا	1996	عبد السلام همال	قضاء الجماعة بقرطبة الإسلامية من قيام الإمارة إلى نهاية الخلافة الأموية 138—422هـ/ 756—1031م
مشرف جدا	1996	خالد علال الكبير	الحركة الحنبلية وأثرها في بغداد 241—500هـ
" "	1999	نبيلة حساني	القضاء والقضاة في عهد الدولة الزيانية 633هـ / 961هـ
" "	2000	محمد الحبيب بشاري	دراسة تاريخية لمقاطعة موريطانيا السطايفية
مشرف جدا	2001	الطاهر بونابي	الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال ق 6 وق 7هـ
قريب من الحسن	2002	نعيمة عميروش	نظام الخلافة والتشريعات عند الموحدين من خلال كتاب المن بالإمامة على المستضعفين لابن صاحب الصلاة
" "	2006	نور الدين غرداوي	جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في ق 8 وق 9هـ من خلال نوازل المازوني (الدرر المكنونة)

الاقتصاد في المغرب الأقصى في عهد الموحدين 524—668هـ	رضا رافع	2007	قريب من الحسن
--	----------	------	------------------

لقد قدّم الأستاذ موسى لقبال مساهمات جمة لم تقتصر على مجال تخصصه الأساسي فحسب بل وجدناه يشارك في مناقشة رسائل في خارج تخصص التاريخ الوسيط، وهذا ما يظهر عدّة أمور أهمها :

- 1— بذل الجهد الجهد لأجل الارتقاء بالبحث العلمي وإيجاد ثلة من الباحثين المحليين المتميزين الذين يمكن الاعتماد عليهم في المستقبل العاجل.
- 2— سد النقص الملاحظ وبالأخص في الفترات الأولى للجامعة الجزائرية، وقد كانت تعتمد على أساتذة خارجيين في شأن البحث العلمي، ولذا وجدناه يشرف على مناقشة رسائل ذات أهمية في التاريخ القديم والحديث .
- 3— ويظهر إشرافه مدى الشجاعة العلمية على تحمّل المسؤوليات وقت الحاجة، ووطنية صادقة في القيام بأعباء رسالة العلم الجادة في زمن الحاجة الماسة إلى رجال من أمثاله .
- 4— ويظهر هذا الإشراف والمناقشة للرسائل ذات التنوع في حقب التاريخ مدى الإلمام العلمي بمجال تخصصه، أو خارج تخصصه المعهود . وهو ما يبرز ضرورة ألا يكون الباحث المجد حبيس مجال الزمان الذي عُرف به، بل المؤرخ الحق ذلك الذي يبرز في تخصصه ولا يهمل الحقب الأخرى باعتبار أن التاريخ كلّ متكامل لا نستطيع التفريط في أي جزء منه جزئياته سواء تباعدت زمانا أو اختلفت تأثيرا .

أما في مجال الإشراف على الباحثين في مجال التحضير لنيل رسالة دكتوراه الدولة، فإن الأستاذ يعد من القلائل الذين تصدروا هذا الشأن في بلادنا مع ثلة من الخيرين الآخرين، وكان عمدة الباحثين في التاريخ الوسيط، ومن الذين لا يمكن

تجاوزهم من قريب أو بعيد لنيل الحقيقة التاريخية . وقد وجدناه يشرف على مجموعة من خيرة أبناء الجامعة الجزائرية الذين يعدّون اليوم ركائز البحث العلمي وهو جهد غير مقل .

و الجدول الآتي يظهر بعض الرسائل التي أشرف عليها الأستاذ الدكتور في سبيل نيل أصحابها شهادة دكتوراه الدولة في تخصص التاريخ الوسيط :

عنوان الرسالة	الباحث	تاريخ المناقشة	قرار اللجنة
تلمسان في العهد الزياني دراسة اجتماعية وسياسية وعمرانية وثقافية	عبد العزيز فيلاي	1996	مشرف جدا والتوصية بالطبع
الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين	محمد بن عميرة	2005	مشرف جدا والتوصية بالطبع
العلاقات الخارجية لمملكة صقلية في عهد النورمان منذ وفاة الملك روجر الثاني إلى سقوط المملكة	رشيد تومي	2006	" " "
العلاقات الخارجية للدولة الخوارزمية مع القوى السياسية المعاصرة (الإسلامية والوثنية)	أحمد شريفي	2006	" " "

منهجية ابن الأثير في التأريخ للقوى المعارضة للخلافة العباسية في الداخل والخارج (دراسة مقارنة)	قويدر بشار	2007	مشرف جدا مع التهنئة
عالم الحوض الغربي للبحر المتوسط والقوى السياسية والدينية والاقتصادية قبل وأثناء الحركة الصليبية	عبد العزيز بوكنة	2007	مشرف جدا مع التوصية بالطبع

هذه جملة من الرسائل التي تمّ الإشراف عليها من قبل الأستاذ الدكتور والتي تعتبر باكورة جهوده من خلال هذا الإشراف، وهي رسائل في قمة الأبحاث الجادة التي انبرى لها باحثون قدوة في العطاء، حيث لم يدخروا جهدا ولم يُقلوا وسعا في التغلب على المصاعب التي كانت تعترضهم في كل مراحل البحث والتنقيب عن المادة العلمية، وهم الذين أخذ بأيديهم الأستاذ المشرف نحو قطف ثمار الجهود التي بُذلت من قبلهم لفترة ليست بالقليلة .

كما ساهم الأستاذ الدكتور في دفع حركة البحث العلمي من خلال المشاركة في قراءة ومناقشة رسائل الدكتوراه التي قُدمت من قبل بالحثين تحت إشراف دكاترة زملاء له في ميدان الإشراف، ومن هذه الرسائل على مستوى جامعة الجزائر نذكر ما يلي :

عنوان الرسالة	الباحث	تاريخ المناقشة	قرار اللجنة
النشاط التجاري في نوميديا وموريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني	شافية شارن	2002	مشرف جدا
الحياة الفكرية بالأندلس في عهد المرابطين	محمد الأمين بلغيث	2003	مشرف جدا
الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين	لطيفة بشاري	2007	مشرف جدا مع التهنئة

وما نخلص إليه بعد هذا التقديم للرسائل الجادة التي أشرف عليها أستاذنا المحترم أو التي ساهم في مناقشتها وتوجيهها بعض الملاحظات نجملها في الآتي :

1 — إنه رغم تخصصه في التاريخ الوسيط إلا أنه كان يستدعى إلى مناقشة رسائل تهتم بالتاريخ القديم أو الحديث أو تلك المهمة بعلم الآثار، وهذا بالأخص في المراحل الأولى للبحث العلمي بالجامعة الجزائرية.

2 — أن مجمل الرسائل التي أشرف عليها لا تختص بمكان معين بل وجدناها تدرس بلاد المغرب بجميع مكوناته الجغرافية من أفريقية إلى المغرب الأقصى ومن الأندلس إلى صقلية وحوضي البحر المتوسط، مثلما وجدنا بعضها يدرس أحوال بلاد المشرق بما فيها مصر في جميع المجالات، كما اهتمت الرسائل التي أشرف عليها ببلاد ما وراء النهرين وبلاد أوربا في العصور الوسطى وبلاد السودان الغربي وعموم أفريقيا جنوب الصحراء واهتمت بعض الرسائل بأوروبا الشرقية وأخرى بآسيا الوسطى .

3 — كما شملت الرسائل التي أشرف عليها مواضيع مهمة درست جوانب من العصية القبلية وحياة الأسر وأثرها على قيام الدول أو سقوطها وشملت مواضيع النظم الاجتماعية والاقتصاد والثقافة والعلاقات السياسية والداخلية للدولة والخارجية بين الدول والأثر الحضاري لقيام الدول، ودور الحركات المذهبية، وتطوّرت إلى الحياة العلمية في بعض الأماكن مثلما تطوّرت إلى الأربطة والثغور والقضاء والفقه والتصوف وغيرها مما يثبت التنوع في الطرح للمواضيع مع اختلافها زمانا ومكانا ومجالا .

4 — ومن خلال هذه الرسائل يبرز إلينا منهجه في التأريخ والذي يتمثل في المزج في الكتابة التاريخية، إذ يجتدّ الامتزاج في الموضوع بين التاريخ والعلوم الأخرى كالآداب والفقه والآثار، وكثيرا ما كانت كتاباته ومداخلته يصبغها هذا التنوع من شعر وفتاوى فقهية وملح وطرائف وطرح المجادلات .

5 — ويبرز موضوع اللغة العربية التي تعتبر اللسان والرسول بين القارئ والباحث إذ نجده دوما يشدّد على اللغة كأداة يجب الاهتمام بها، ويبيدي حساسية مفردة تجاه الأخطاء اللغوية، كما يتذوّق الشعر فهو — الشعر — كالملاح في كتاباته ومناقشاته للرسائل.

وتلك هي ميزة كلّ عربي مسلم ووطني غيور على دينه وعروبه ووطنه، وهذا ما عهدناه في أستاذنا أطل الله في عمره .

المحور الثالث

أثر المغاربة في التفاعل الحضاري

دور المغاربة في تحرير بيت المقدس من الصليبيين

أ. د/ بوبة مجاني

جامعة منتوري قسنطينة

مقدمة:

إن الهدف من هذه الدراسة ليس البحث في الظاهرة الصليبية من حيث أسبابها الخفية والمعلنة أو أحداثها العسكرية واستراتيجيتها لأن هذه المواضيع كتب فيها الكثيرون، عرب وغربيون. وكل ما تتطلع إليه هذه المحاولة هو الكشف عن دور المغاربة في تجسيد الوحدة الإسلامية لرد الخطر الصليبي. فهذه الحرب التي شنها الغرب اللاتيني باسم الدين على الإسلام وقادتها البابوية، وحدثت أوروبا حول هدف واحد هو تحرير قبر المسيح واسترجاع الأماكن المقدسة في فلسطين وبلاد الشام مستغلة حالة الانقسام والضعف والصراعات التي يعيشها العالم الإسلامي. ولأن هدف هذه الحرب الأساسي هو استرجاع السيطرة الغربية على الفضاء المتوسطي فلقد شن الغرب ثنائي حملات على بلاد الإسلام ثامتتها كانت على بلاد المغرب لأنه لم يكن مستبعدا من الأهداف الصليبية بصفته يمثل عمقا استراتيجيا لمصر وانتهت هذه الحملة التي قادها الملك الفرنسي لويس التقي "سان لوي" بموته.

وإذا كانت هذه الحرب التي خططت لها وقادتها المؤسسة البابوية والطبقة الإقطاعية العسكرية فإن المواجهة الإسلامية كانت على مستويين الرسمي والشعبي وهذا المجال الأخير هو الذي كانت للمغاربة مساهمات فيه لأن الشعور الذي تكون لديهم هو أن ديار الإسلام واحدة وأن الدفاع عنها هو عبادة وفضيلة في نفس الوقت. لهذا انخرط المغاربة في المجهودات العامة لمواجهة التحدي الصليبي، إضافة إلى ذلك أن المغاربة سبق لهم وأن عانوا من الخطر الصليبي فجذور هذه الحرب تمتد وتعود إلى

الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس منذ فتحه على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد، وبالتالي المغاربة ويقدرّون جيدا مدى الخطر الذي يهدد المسلمين في ديارهم.

الفقهاء المغاربة والرحلة إلى بيت المقدس:

لقد تعددت أغراض رحلة الفقهاء المغاربة في العصور الوسطى إلى بلاد المشرق أهمها رحلة الحج، التي كان الحاج فيها يعرج على بيت المقدس لزيارة ثالث المسجدين الشريفين ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرجه إلى السماء. كما ارتبطت فريضة الحج كذلك بالتجارة وطلب العلم، وكان من الحجاج جمع بين الأهداف الثلاث.

ولم يكن كل الذين يخرجون للحج يعودون إلى بلادهم فممنهم من يفضل جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من أقام في بيت المقدس طلبا للعلم أو الزهد والانقطاع وتحفل المصادر العائدة إلى هذه الفترة بأخبار المغاربة الذين استقروا ببيت المقدس أو إحدى مدن بلاد الشام.

وفي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وبعد أن بدأ الصليبيون يشنون حملاتهم على العالم الإسلامي، مشرقه ومغربيه كانت ردود فعل المغاربة عليها هو الجهاد، وأصبحت السلطة في بلاد المغرب منذ العصر المرابطي - خصوصا السلطنات التي ورثت الموحدين - تسعى لتسوغ حكمها وأخذ شرعيتها بالجهاد في الأندلس والوقوف في وجه المد الصليبي النصراني. ولم تكن عملية الجهاد مقتصرة على الجبهة الأندلسية فقط بل كانت بلاد الشام جبهة أخرى خرج إليها المغاربة لخاربة الصليبيين. وإذا كان وجود المغاربة كمحاربين في هذه المنطقة يعود إلى عصر الخلافة الفاطمية الذي تكتف في حركته تنقل المغاربة بانتقال الخلافة إلى مصر سنة 358 هـ/ 969 م فكانوا هم جيشها الذي فتح لها مصر وبلاد الشام¹ فإن هذا الوجود ازداد على المستوى الشعبي مع الحركة الصليبية ليصبح جهاد الصليبيين دافعا

¹ تقي الدين المقرئ: كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ب 294/1987 -

آخر من دوافع انتقال المغاربة إلى بلاد الشام وما ينهض دليلا على ذلك شهادة الرحالة المغربي ابن جبير الذي زار بلاد الشام في الفترة ما بين 581-583 هـ/1185-1187 م وهي الفترة التي كان يستعد فيها صلاح الدين الأيوبي لتحرير بيت المقدس فقال أصبح كثير من المغاربة يخرجون إلى المشرق للحج وطلب العلم والتجارة والجهاد والانقطاع والعبادة والزهد. ومن القرائن على كثرة ترحال المغاربة إلى بلاد الشام ما جاء على لسان ابن القلانسي عندما كتب عن أخبار بلاد المغرب في عصره فقال: انه يأخذ أخباره من الفقهاء المغاربة المقيمين ببلاد الشام وكذلك المكاتبات التي ترد عليهم من ذويهم في بلاد المغرب وصرح في ذات الوقت أنه يتحاشى أخذ هذه الأخبار من أفواه التجار والسفار¹.

ومن القرائن على كثرة عددهم وكثافة تنقلهم في العصر الوسيط، ومكانتهم، وجود حارة خاصة بهم في عهد الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي، كما كانت لهم زاوية تعرف بهم وجامع حمل اسمهم. ونظرا لمكانتهم كانوا هم الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة المقدسة في بيت المقدس وهم الذين يتولون فتحها للحجاج المسيحيين.²

أما أوقافهم فمما حبس بيت المقدس على المغاربة، وقف للشيخ القطب أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري (ت 594 هـ/1197-1198 م) وظل هذا الوقف موجودا إلى أن هدمه الإسرائيليون عندما احتلوا بيت المقدس عام 1967، ففي سنة 1952 قام القاضي الشيخ شعيب الطالب التلمساني بتكوين لجنة لحماية هذا الوقف. وعندما حج أحد الشيوخ المدرسين في مدينة سطيف، السيد محفوظ لونيبي، سنة 1955 زار بيت المقدس بعد أدائه فريضة الحج، وقف على هذا الوقف المتكون من زاوية موقوفة على أبي مدين شعيب ودار أعدت لتزول المغاربة القاصدين بيت المقدس³.

¹ تقي الدين المقرئ: كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987/294-296.

² عيلة المهدي: أقدس تاريخ و حضارة، دار نعمة للطباعة، بيروت، 2000/284 وعن احتفاظهم بمفتاح الكنيسة

راجع: رحلة الراهب الألماني فيلكس فابري، (القدس في التاريخ للدكتور سهيل زكار ج6/211-212)

³ عبد الرحمان الجيلالي: تلمسان و القدس الشريف، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، السنة 4،

عدد 26، الجزائر، 1975/109-110

ومن المغاربة الذين عاصرو وأخذوا على من يحمل هذا الوقف اسمه - القطب أبي مدين شعيب - وزاروا بيت المقدس ودفنوا بها ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الهاشمي القرشي أدرك أبي مدين بإفريقية قبل أن يستقر به المقام ببجاية وفي آخر عمره نزل بيت القدس وبها توفي سنة 599هـ / 1202 م وكان قبره يقصد للدعاء أيام الشدائد¹.

ومن معاصري أبي مدين شعيب الذين أقاموا بيت المقدس كذلك ، عم شيخ أبي مدين شعيب ، أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم الفاسي حج وزار بيت المقدس وانقطع بإحدى القرى القريبة منها والتقى بمسجدها بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي².

لقد كانت بيت المقدس ملاذا للصوفية والمنقطعين بسبب مكانتها وفضلها الديني الذي يأتي بعد المدينتين المقدستين مكة والمدينة ولم ينقطع المغاربة عن الترحال إليها خصوصا المتصوفة فهذا يعقوب المغربي (ت 698 هـ / 1298 م) انقطع بالمسجد الأقصى وكان الناس وطلبة العلم يجتمعون به في هذا المسجد طلبا للإجابة على أسئلتهم³. وبالإضافة إلى هؤلاء المتصوفة الذين اختاروا بيت المقدس للعبادة والانقطاع والزهد، هناك الفقهاء الذين اختاروا هم كذلك الإقامة في بيت المقدس للأخذ على علماء المشرق وبعد ذلك الجلوس لتدريس المذهب المالكي وتولي خطة قضاء هذا المذهب. ومن بين هؤلاء الفقهاء ، احدث المفتي سالم بن إبراهيم بن عيسى الصنهاجي من مشدالة إحدى قرى ببجاية (ت 873 هـ - 1468 م) وقع في أسر النصارى وظل عندهم مدة ناظر فيها أساقفتهم ثم أخلى سبيله⁴.

¹ أحمد التادلي الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق أحمد الجاوي، منشورات جامعة أكادير، المغرب، 192/1996.

² نفسه/321، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، عرف بابن زيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، الرباط، 94/1984 - 95.

³ ابن كثير: البداية و النهاية، ط6، مكتبة المعارف، بيروت، 1985، ج5/4.

⁴ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، بيروت 196/1980.

ومن المغاربة المستقرين في بيت المقدس في ذات القرن - التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي الفقيه إبراهيم بن منصور التلمساني، برهان الدين أبو إسحاق كبير فقهاء المالكية في عصره تولى قضاء المالكية بها سنة 858هـ/1454م¹

ومن الفقهاء التلمسانيين كذلك الذين زاروا بيت المقدس وجلسوا للتدريس بها ومناظرة فقهاء الفقيه القاضي سعيد العقباني (ت 811 هـ/1408-1409م)²

لقد أحرز بعض فقهاء تلمسان الذين رفعوا راية المذهب المالكي عاليا في بلاد المغرب على شهرة علمية واسعة في المشرق وفازوا بتقدير علماء بيت المقدس مثل ابني الإمام، عبد الرحمان (ت 743هـ/1312م وأبو موسى عيسى (ت 749 هـ/1348م) وكانا خصيصين بالسلطان المريني أبي الحسن، ويذكر المقرئ الجد أنه عندما زار بيت المقدس كانت له مناظرات مع علمائها وطلبة العلم بها، فأتاه بعض المغاربة المقيمين بها وحفاظا على المكانة والسمعة التي يحظى بها في نفوس علماء بيت المقدس طلبوا منه أن ينتسب إلى أتباع ابني الإمام بسبب ما عرفا واشتهرا به وهو ترك التقليد والأخذ بالاجتهاد³.

إن هذه الشهرة والمكانة العلمية لفقهاء المغرب هي التي جعلت أحد الفقهاء يتولى مشيخة المدرسة المالكية بالقدس وهو أبو بكر جمال الدين الشرشبي الأنندلسي (ت 685 هـ/1286م)⁴.

¹ نفسه/64.

² محمد ابن أبي عمران المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1335، ورقة 163ظ.

³ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 123/1986.

⁴ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأنندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1988 ج 2/217.

دور المغاربة في محاربة الصليبيين:

إن ما سبق ذكره من أخبار بعض العلماء المغاربة الذين استقروا بيت المقدس وكانت لهم آثار بها ولعبوا دورا هاما في التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب هو من أجل استجلاء الدور العسكري الذي قاموا به للدفاع عن مقدسات الإسلام وأراضيه في بلاد الشام عندما غزاها الصليبيون ابتداء من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وهو الخطر الذي داهم كذلك بلاد الأندلس وواجهه المغاربة وقدروا خطورته على المسلمين لهذا حاربوا الصليبيين وجاهدوهم سواء كانوا فقهاء منقطعين أم محاربين . وعلى الرغم من أن المصادر التي أرخت للحركة الصليبية لا تسعف الدارس بأخبار وافية عن الدور الذي قام به المغاربة في محاربة الصليبيين وطردهم من بيت المقدس، إلا أن الدارس لا يعدم فيها إشارات غاية في الأهمية تنبأ عن مساهمتهم في محاربتهم في كثير من مدن وحصون بلاد الشام قبل تحرير بيت المقدس وبعدها. ومن الفقهاء الذين قاموا بهذا الدور نذكر على سبيل المثال، الفقيه الصالح المسن حجة الدين يوسف الفندلاوي الذي قاتل الفرنج عندما هاجموا مدينة دمشق سنة 543هـ/1148م، وبسبب كبر سنه طلب منه عدم حمل السلاح فكان رده "قد بعث واشترى مني"¹. وقصد بذلك شراء آخرته بالجهاد في سبيل الله.

لقد كانت مشاركة المغاربة في جهاد الصليبيين والدفاع عن أراضي الإسلام في بلاد الشام من قبل الأفراد والجماعات على حد سوى ويعود ذلك إلى كثرة عددهم في هذه البقاع ومما ينهض دليلا على ذلك ما جاء في رحلة الرحالة المغربي ابن جبير الذي بدأ زيارته لبلاد الشام سنة 580 هـ/1184م، بعد أن أدى فريضة الحج وقبل أن يحرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من أيدي الصليبيين، أعطانا معلومات غاية في الأهمية عن الأسرى المغاربة لدى الصليبيين وكان عددهم كبير جدا سخرخوا في الخدمة الشاقة

¹ ابن القلانسي: المصدر السابق/ 298، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985، ج9/20.

وعوملوا معاملة العبيد، رجالا ونساء ولقد شاهد النساء الأسيرات و القيود في أسوقهن من الحديد.¹ ولأنهم لا مخلص لهم لبعدهم عن أوطانهم تكفل ملوك وأمراء بلاد الشام وأهل اليسار والتجار بافتدائهم بالنفقة من أموالهم.²

ومن الأمراء الذين افتدوا الأسرى المغاربة بأموالهم نور الدين زنكي، الذي استطاع أن يجمع من حوله المقاتلين المسلمين بفضل السياسة التي وضعها من أجل استرجاع الأراضي التي استولى عليها الصليبيون، لقد تكفل بافتداء الأسرى المغاربة لكي لا تضعف حمية الجهاد في نفوس من بعدت أوطانهم ومن بين هؤلاء المغاربة وكان إذا سيق معهم عند افتدائهم من ليس منهم يأمر بإعادتهم ويقول: "هؤلاء يفتكهم أهلهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم".³

بعد عهد نور الدين زنكي منعظا هاما في تاريخ الصراع الإسلامي المسيحي أيام الحروب الصليبية، لقد شعر بمدى خطورة هذه الحملات فتجاوز الخلافات السياسية والمذهبية من أجل إعادة بناء الوحدة الإسلامية وتوحيد جبهتها لكي يتمكن من رد هذا الخطر، فقام بتجنيد فئات شعبية واسعة وحاول تجميعها مهما بعدت أوطانها مستغلا في ذلك وجود هذه العناصر في المشرق، كما شجع كذلك على الانتقال إلى بلاد الشام باتباعه سياسة افتداء الأسرى الغرباء، كما قرب منه الفقهاء وبنى للمالكية منهم المدارس، ورعى الصوفية فألفت حوله وناصرته فئات المجتمع على اختلاف انتماءاتها ومستوياتها الاجتماعية.⁴

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي ازداد الاهتمام بالوحدة الإسلامية من أجل تحرير بيت المقدس وبلاد الشام هذا ما تحدثنا عنه الوقائع التاريخية، فللكي لا يقل ترحال المغاربة

¹ ابن جبير: الرحلة، الجزائر 280.

² نفسه.

³ نفسه.

⁴ حول هذه السياسة راجع: محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت 164/2000 وما بعدها.

وتستمر إقامتهم ببلاد الشام قام بإنشاء مدرسة للمالكية خارج بيت المقدس وهي المدرسة الصلاحية، أسندت مشيختها لمغاربة من قبيلة زواوة¹. وفي مدينة دمشق أوقف زاوية عند مسجد دمشق على المالكية وتولى مشيختها كذلك مغاربة من قبيلة زواوة².

وفي عصر المماليك اشترط الظاهر بيبرس على الفرنج المستولين على مدينة صور أن يفكوا أسر المغاربة مقابل توقيع هدنة³.

إلى جانب الأمراء قام بعض التجار المياسير الدمشقيين الذين كان نشاطهم التجاري هو المسيطر على الساحل الشامي الذي استولى عليه الصليبيون، بافتداء الأسرى المغاربة بأموالهم، بل أن معظم الأسرى المغاربة هم الذين قاموا بفك أسرهم، وبأموالهم⁴.

ومن هؤلاء الأسرى من عمل في جملة الصبيان الذين يقومون بخدمة قوافلهم التجارية الرغم من تركه الدين الإسلامي واعتناقه النصرانية بسبب صحبته للنصارى مثل أسير من مدينة بونة بالمغرب الأوسط⁵.

لقد استخدم الصليبيون بعض الأسرى المغاربة في السفارات التي يبعثون بها إلى الأمراء المسلمين للتفاوض فابن جبير أورد خبر أسير مغربي أرسل من قبل الصليبيين إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما كانوا محاصرين لمدينة عكا سنة 578هـ/1182م وعندما علم صلاح الدين أنه مغربيا حرره⁶.

¹ أبو عبد الله محمد بن علي بن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سلمي الدهان، دمشق 253/1956.

² نفسه 254/.

³ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض 347/1976.

⁴ ابن جبير: المصدر السابق/282.

⁵ نفسه.

⁶ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين دار الجليل، بيروت، ج2/186.

وإمعانا في الانتقام من المغاربة وإذلالا لهم بسبب محاربتهم قام الصليبيون بفرض المكس على كل من يدخل مدينة عكا منهم وهذه شهادة ابن جبير على ذلك فيذكر كشاهد عيان أن " أكثر المتعرضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنما ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم"¹.

لقد كان الصليبيون يرون في جهاد المغاربة لهم في بلاد الشام أذى لهم لقد أرادوا بهذا المكس أن يفرقوا بين المسلمين مشاركة ومغاربة والحد كذلك من تنقل المغاربة إلى الشرق وهو في الواقع إضعاف للجهة الإسلامية ووحدها. لقد أرادوا بهذا الإجراء ألا يتعدى وجود المغاربة إلى الجهاد بل ينحصر في التجارة فقط وهذا ما أفضى به ابن جبير فقال : فإنهم يروغهم تجارا فقط كما يروغهم في بلادهم، ولما تعرضوا لحربهم وجب فرض هذه الضريبة عليهم"².

واستمرارا وتأكيدا على الوحدة الإسلامية من أجل تحرير الأراضي الإسلامية أقدم صلاح الدين الأيوبي على إسقاط المكس الذي كان يفرضه صاحب مكة على الحجاج فكان" يأخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه وإذا كان فقيرا لا يملك فهو يحبس ولا يترك فتفوته وقفة عرفة ولا يدركها " مقابل هذا الإلغاء أعطى صلاح الدين أمير مكة غلة تحمل إليه كل سنة وأوقف على ذلك ضياعا في مصر."³

لقد أقدم صلاح الدين على اتخاذ هذا الإجراء لاستمرار تدفق المغاربة على بلاد الشام وتوفير الأمن لحجاجهم وهذا في حد ذاته حفاظ على الأماكن المقدسة بتشجيع

¹ ابن جبير : المصدر السابق/274 .

² نفسه .

³ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج2/3.

الحجاج على زيارة بيت المقدس التي كان الطريق إليها محفوفا بالمخاطر بسبب سيطرة الصليبيين على بلاد الشام. وفي ذات الوقت هو تعزيز لقوة المسلمين لجهاد الصليبيين.

لقد اشتهر المغاربة بقدراتهم القتالية وشهد بذلك السلطان صلاح الدين ذاته في رسالة بعث بها إلى دار الخلافة في بغداد وصف فيها ما قام به البحارة المغاربة عندما واجهوا غزو الصليبيين لعكا وانتصارهم عليهم قال: " وهذا مما لم يعهد في الأسطول الإسلامي مثله في سالف الدهر لا في حالة قوة إسلام ولا ضعف كفر"¹.

عندما شدد الفرنج الحصار على عكا ووصلت الإمدادات عن طرق البحر عام 587هـ/1191م وعلى الرغم من كثرة عدد وعدة الفرنج إلا أن صلاح الدين وجيشه لم يفر ولم يضعف ولم يتراجع إلى الخلف بل ظل ينتظر لكي يبرزوا إليه لمقاتلتهم معولا في ذلك على البحرية المغربية التي كما قال "عاديتنا به ترد وعاديتنا به تشتد"².

ظل المغاربة يقودون الأساطيل في عصر المماليك، ففي عهد الظاهر بيبرس لم يكن يوصف البحارة المغاربة إلا بالشجاعة³. لقد كان يقوم بجمعهم من كل أنحاء بلاد الشام ويملاً المراكب التي تقاتل الصليبيين وتغزوهم في بلادهم، لقد اشتركوا في قيادة الحملة البحرية التي أرسلها لغزو جزيرة قبرص عام 669هـ/1271م ووقع بعض رجالهم في الأسر من بينهم الفقيه شهاب الدين أبو العباس المغربي⁴.

ومن المغاربة الفقهاء الذين وقعوا في أسر الصليبيين، القاضي والحدث والفقيه المالكي الذي أسلفنا ذكره، سالم بن إبراهيم بن عيسى الصنهاجي المشدالي وهو من الذين استوطنوا بيت المقدس ('ت 873هـ/1468م) وتولى بها قضاء المالكية وقع في

¹ نفسه/ 13.

² نفسه ج 2/ 188.

³ سيرة الملك الظاهر بيبرس، الجزائر 1988/ 217.

⁴ أحمد حطيط: مكانة المغاربة بدمشق في زمن الصليبيين، أعمال الملتقى الدولي، التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، جامعة منتوري، قسنطينة، 2002/ 92.

الأسر سنة 884 هـ/1479م وظل عندهم مدة ناظر فيها أساقفتهم وأفحمهم¹.

إن ما تمتع به المغاربة من قدرة وتمرس في القتال مرده إلى التحرش النصراني الذي لم ينقطع منذ استقرار المسلمين بالأندلس بعد فتحهم لها وازداد هذا الخطر مع حركة الاسترداد التي نشطت و اشتدت في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بسبب ضعف المسلمين وانقسامهم إلى إمارات وطوائف مما أدى إلى سقوط مدينة طليطلة في أيديهم.

إن الذي يشهد للمغاربة بالقدرة القتالية كذلك فعالية المنجنيق المغربي في ذلك حصون الفرنج وقلاعهم في عهد الملك الظاهر بيبرس عندما فتح حصن صفد سنة 663هـ/1265م².

لا مرء في أن المغاربة ازداد انخراطهم في العملية الجهادية بفضل المسلك الذي اتبعه كل من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وهو تشجيع العلماء ورعايتهم بإنشاء الدرس الخاصة بالمالكية وإسناد، مشيختها للمغاربة وكذلك بناء الزوايا للمتصوفة والنفقة عليها مما أوقفوه عليها من أموال. كما أن افتداء الأسرى المغاربة شجع على استمرار المغاربة في التنقل إلى المشرق للجهاد أصبح جزء من العبادة والانقطاع في الأماكن المقدسة.

¹ عادل نويهض : المرجع السابق /196 .

² أحمد حطيط : المرجع السابق

الزاوية المالارية

تأثير شيوخها الروحي والديني على الدولة والمجتمع

د. عبد العزيز فيلاي

جامعة منتوري - قسنطينة

تميزت بلاد كتامة عامة، وهذه البلدة على وجه الخصوص بثلاث محطات تاريخية هامة. أحدثت انقلابا في تاريخ المنطقة الفكري والسياسي فقد احتضنت هذه الولاية الإسلام مبكرا واعتنقه أهلها منذ منتصف القرن الأول الهجري، أي في عهد أبي المهاجر دينار (55-62)، الذي قام بنقل عاصمة ولايته من ذكرور أو القيروان، إلى مدينة ميلة، سنة 59 هـ، ومكث فيها ما يزيد عن سنتين كاملتين، يبعث منها السرايا والحملات الجهادية إلى المناطق القريبة من بلاد كتامة، والبعيدة عنها ويدير منها شؤون الولاية.

وكان الكتاميون أول من رفعوا راية الجهاد من أهل الجزائر تحت قيادة أبي المهاجر، وكان لهم شرف الدفاع عن الإسلام ونشره إلى أن أوصلوه إلى تلمسان.

أما الخطوة الثانية، فهي التي كانت لها صدى كبيرا أيضا في بلدة فج مزالة ونواحيها أو فج الأخيار أو فرجوة، كما أطلق عليها بعض المؤرخين. فقد استقبل سكان هذه البلدة وضواحيها أبا عبد الله الشيعي، ورحب أعيانها وأعلامها به واسكنوه بين ظهرائهم، وقاموا بحمايته، وساعدوه على نشر دعوته غير مبالين بسلطة بني الأغلب وعماله في ميلة ربما لأنه يدعو إلى أحد أفراد البيت النبوي الشريف من جهة، أو لأنهم (أي الكتاميون) كانوا متضمنين من تجاوزات السياسة المالية والإدارية التي أثقلت كواهلهم. وسياسية الإقصاء والعنصرية التي كانوا يتعرضون لها من قبل السلطات المركزية والمحلية من جهة أخرى.

فكان سكان هذا الإقليم. السبب المباشر في إبراز حدث هام غير مجرى تاريخ المغرب الإسلامي، بأحداث ثورة سياسية ومذهبية نتجت عنها قيام دولة إسماعيلية

شيعة فاطمية على أنقاض دولة الأغالبة السنية، وبالتالي انفصل المغرب الأدنى والأوسط والأقصى عن الدولة العباسية.

ولعل "فج الأخيار"، التي نزل فيها الداعي الشيعي، في بداية دعوته هي "فج مزالة" أو "فرجية" وهو المكان الذي يلتقي فيه "خيار الناس"، أي نخبة المجتمع، وهم العلماء والطلبة والحجاج القادمين من أطراف المغرب الأوسط والأقصى، ومن بلاد الأندلس والمتجهين نحو البقاع المقدسة، لأداء مناسك الحج، وبلاد المشرق للرحلة في طلب العلم من مضانه الأساسية، وكذلك التجار الذين كانوا يجوبون الأصقاع والأوطان.

والظاهر أن أبا عبد الله الشيعي (ت 298 هـ) هو الذي اختار هذا المكان وأطلق عليه اسم "فج الأخيار" لأنه مكان استراتيجي يحتك فيه، بهذه النخبة القادرة على التأثير والإقناع، ولأنه مكان يتميز عن غيره على أساس رواه وزواره، وربما يقصد من وراء ذلك تحفيزا لهم على قبول الدعوة والجهاد في سبيلها، لأنها تدعو إلى أحد أفراد بيت الرسول (ص)، والذي هو محل محبة وتسجيل لدى سكان بلاد المغرب، ولأنه يدعو أيضا إلى العدالة والمساواة بين المسلمين، في كافة المجالات، ومن ثم بثها في مدغم وقراهم وكان له ما أراد، في الوقت الذي عجز غيره من الدعاة، في إقامة دولة شيعة في بلاد المشرق وبلاد الأندلس.. إذن فقد انطلقت رياح التغيير من هذه البلدة العريقة إلى ربوع بلاد المغرب، حتى وصلت إلى الديار المصرية والشامية، بفضل رجال كتامة وسيوفهم وأموالهم، ومن أبناء هذه المنطقة .

وأما المخططة الثالثة وهي التي أريد أن أقف عندها مطولا، فهي الزاوية الملاحية، بتسدان¹ والتي كان لشيخوها تأثير صوفي وروحي على الأوساط الشيعية منها والخاصة، وكذلك على الأمراء والسلاطين الذين كانوا يعتقدون في شيخوها جميعا.

¹ تسدان : بلدة تبعد عن بلدة فرجية ولاية ميلة بأكثر من 20 كلم، ولا تزال آثار هذه الزاوية مهمة في هذه البلدة.

لقد برز التصوف في بلاد المغرب مع ظهور الزوايا وانتشارها خلال القرنين السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وأصبح معروفا وشائعا، والتصوف عبارة عن تجربة ذاتية روحية، واتجاهها فكريا يبحث في العلاقة بين الإنسان وربّه، ويحكم على الأشياء من هذا الكون، والعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن الدنيا وزينتها وبهرجها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه والخلوة للعبادة¹.

ويطلق عليه أيضا علم الباطن أو علم الحقيقة، مع الإمام بعلم الظاهر، وهو الشريعة الإسلامية، لم يقتصر تدريسه على سالكي الطريقة أو على المريدين فحسب، بل أصبح علما، يدرس على الطلاب جميعا كالعلوم الأخرى، وكان الإقبال على دراسته كبيرا وأن مدرسيه يحظون بتقدير خاص لدى المجتمع والدولة. ولذلك لا نجد خلافا كبيرا بين الفقهاء أصحاب علم الظاهر، وبين المتصوفة أصحاب علم الباطن. وإن وجد هذا الخلاف بينهما فحالته محدودة، على خلاف ما ظهر في بلاد المشرق، وربما يعود السبب في ذلك، إلى تغلب المذهب المالكي في بلاد المغرب، وإلى غياب نزاعات فكرية وفلسفية متطرفة كما هو الشأن في بلاد المشرق، وتدعم هذا التعايش بين الفقهاء والمتصوفة في بلاد المغرب، بعد زوال الدولة الموحدية².

أخذ التصوف ينتشر، في الأوساط الشعبية ونخبة القوم، غازيا عقولهم وأرواحهم ووجدانهم. فقد أخذ سلاطين بني حفص في القرن 7هـ/ 13 م يعتقدون بالأولياء ويقدرونهم ويحترمونهم ويتقربون منهم بمختلف الوسائل والطرق بنيل رضاهم وبركاتهم ومن بين هؤلاء الأولياء، يعقوب بن عمران البويوسف، شيخ زاوية ملارة ببلدية تسدان (فرجوة) الذي سار على درب أسلافه، في التصوف السني الميمني على الاعتدال مقتديا بأبي مدين شعيب الغوث (ت 595-1198) وأبي الحسن الشاذلي (ت

¹ ابن خلدون : المقدمة ص 864 - 865

² بوداود عبيد : ظاهرة التصوف، ص 83 - 243

656 هـ / 1285) وتعد طريقة هذين القطبين امتدادا لتصوف أبي حامد الغزالي (ت 505)¹.

فقد تتلمذ يعقوب بن عمران البويوسفي (ت 1317/717) على الشيخ أبي مسعود بن عريف، أحد أصحاب القطب أبي مدين، الذي ينحدر من جبال الشلف بالغرب الجزائري. تأثر به الشيخ يعقوب تأثرا كبيرا لدرجة أن الشيخ أبا مسعود ورث لتلميذه الطريقة وأمره بالعودة إلى بلدته، وبناء زاوية بها تكون مكانا للإشعاع الصوفي السني وذلك في النصف الثاني من القرن 7 هـ / 13 م².

والحقيقة ليست لدينا معلومات دقيقة عن النموذج الهندسي للزاوية المالارية لأن المؤرخين والرحالة لم يتركوا لنا وصفا لها، بل حتى ابن قنفذ القسنطيني الذي كان يزورها كثيرا، أهمل وصفها، ولم يذكر لنا إلا اسمها.

ويبدو أن الشكل الهندسي لزاوية ملارة لا يختلف عن غيرها من زوايا بلاد المغرب في القرن 7م/13، من حيث أقسامها وغرفها ومرافقها³. وأن الزاوية المالارية تنتسب إلى نمط الزوايا المعروف بالزاوية الحصينة، وهي التي تكون خارج الحواضر الكبرى تحتوي على مسجد للصلاة أو قاعة كبيرة وغرفة لأهل الحزب، يجلسون فيها للقراءة والذكر، ثم أصبحت للزاوية في العقد الثاني من القرن 8م/14م، غرفة تأوي قبر الشيخ يعقوب المالاري الذي توفي سنة 717هـ/1317م، وقبره يوجد في الخلوة التي كان يختلي فيها عن أنظار الناس، وينظم فيها مواعيد الرقائق، كما تحتوي الزاوية أيضا، على عدة غرف للنوم، لأن الزاوية أصبحت وظائف أخرى، كإسكان الفقراء وابن السبيل وإطعامهم وكذلك قراءة القرآن فيها⁴.

عبد العزيز فيلاي : تلمسان في العهد الزياني، جزء ، ص 4
ابن قنفذ : أنس الفقير، ص 40.

³ نللي سلامة العامري: الولاية والمجتمع، ص 147.

⁴ نفسه، ص 148.

أما عن نشاطها الأساسي، فهو تربية المريدين والتلاميذ وتنظم فيها مجالس الذكر والتدريس، يكثر فيها الإجهاد والعبادة والحزن والبكاء، والصيام والإقلال من الكلام ولا ينام فيها أثناء الليل إلا قليلاً¹.

حرص يعقوب المالري على العمل بالكتاب والسنة، والاعتناء بالجانب التربوي العملي من التصوف في زاويته، والابتعاد عن تيار التصوف الفلسفي الذي يأخذ من الشطحات والرقص برنامجاً له، وهي الطريقة التي سلكها أبو مدين الغوث، والتي يرى فيها بأن التصوف ليس بالرهبانية، ولا بأكل الشعر والنخالة ولا بلبس الصوف الخشن والخرقة، وإنما يكون بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية، فالتصوف عنده إذن ليس بالرسوم والإشكال، وإنما هو بالنوايا والأعمال²، بعيداً عن التكلف والمصانعة لا تحتاج إلى جهود ذهنية، ولا عناء فكري كبير، وهي الأفكار التي تنسجم مع عقلية أهل المغرب، وتثير انفعالاتهم وتستجيب لثرواتهم الفطرية³.

وقد التزم شيخ الزاوية المالرية بهذه المبادئ والأفكار، وبما تحلى به نظام أبي مدين الغوث في زاويته، بحيث يخضع المريد إلى تربية قاسية من خلال تكليفه بمجمل من الأوراد والأذكار، التي يمكن أن تجعل المريد أثناء تأديتها بإخلاص إلى الكشف⁴.

فكان شيخ الزاوية لا يتسامح في المجاهدات القاسية، التي يقوم بها المريدون، كما كانوا يلزمون بحفظ النظريات الصوفية عن ظهر قلب، والاطلاع على مختلف العلوم النقلية، الأخرى ولا سيما الفقه، الذي يحصنهم من البدع والخرافات، فضلاً عن الجولات السياحية (السياحة الروحية)، التي كان ينظمها يعقوب بن عمران المالري ويعمد فيها على اصطحاب المريدين، حتى يقتدوا به فيما يتعرض إليه من مواقف⁵.

¹ نفسه، ص 148.

² عبد العزيز فلالي، ج 2، ص 385.

³ عبد العزيز فلالي، ج 2، ص 386.

⁴ أنس الفقير، ص 94.

⁵ أنس الفقير، ص 42.

والشيخ يخدمه متطوعون نذروا أنفسهم لخدمة شيخهم، ويقيم الطلبة في الزاوية التي تتكفل بمعاشهم مقابل التزامهم بنظامها التربوي والتعليمي¹.

فقد كان لزاوية ملارة، تأثير روحي كبير في المنطقة وفي المغريين الأدي والأوسط، حتى صارت قبلة للناس، يطرحون فيها أفكارهم وآرائهم وقضاياهم كما صارت ملاذا يلجؤون إليها وقت الشدائد، طالبين دعوات الشيخ يعقوب الملاري، ثم من ابنه فيما بعد.

فقد وضع لنا ابن قنفذ حفيد الملاري، الإحترام والتقدير اللذين كان يوليه الأمراء والسلاطين لوالد جده يعقوب ولجده يوسف بن يعقوب الملاري، بسبب الاعتقاد فيهما من جهة ولأنهما ينتميان إلى طريقة أبي مدين الغوث. وهو العامل الذي جعل الزاوية الملارية تستمر إلى ما بعد القرن 8هـ/14م، بحيث كانت العلاقة متينة بين زاوية الملاري وزاوية العباد بتلمسان، بحيث كان الشيخ يوسف بن يعقوب الملاري كثير التردد على ضريح أبي مدين، وهو ما جعل الشيخ أبو العباس بن مرزوق القائم على ضريح العباد، (741هـ/1341م) يهدي للزاوية الملارية جزءا من عكاز أبي مدين كعربون لهذا الانتماء².

وكان الأمراء والسلاطين، يقدرون الشيخ يوسف الملاري ويعتقدون فيه ويتبركون بمجالسته، ويكتبون إليه باستمرار، بدافع الرغبة في زيارتهم، وكانوا لا يرفضون له طلبا، إذا ما تدخل من أجل مسجون أو مظلوم، أو طالب حاجة من الرعية، وفي هذا الصدد يقول حفيده: "ووضع الله له القبول عند الأمراء، وأعانهم

¹ تللي سلامة: المرجع السابق، ص302.

* - فر المؤرخ والقاضي ابن قنفذ إلى زاوية جده للاحتماء بها عندما عزله حاكم مدينة قسنطينة "نبيل"، من خطة القضاء، عندما ثار الحاكم على السلطة المركزية. ولم يعد إلى مدينة قسنطينة، إلا بعد أن كتب له السلطان أبو فارس في العودة إلى منصبه ومدينته بعد أن قضى على عمرد "نبيل" سنة 1403/804 أنظر الفارسية صفحات 139، 194،

على ما يرضاه عنهم وعند ولائهم، في قضاء الحاجات وقبول الشفاعات، وكف المدعى عليهم بالجنايات"¹.

فقد وقعت ليوسف بن يعقوب الملاري (ت764هـ/1363م) مرة مع الأمير أبي العباس حاكم مدينة قسنطينة، أن طلب منه قضاء بعض الحاجات، أثناء صلاة الجمعة بالجامع الأعظم بالقصبة بقسنطينة، ففضى له ما طلبه ماعدا تسريح أحد المساجين، تردد الأمير في إطلاق سراحه، فانصرف الشيخ مترعجا غاضباً بغير سلام، لكن الأمير لما رآه في هذه الحالة، التمس منه العذر وقال له: "لا تأخذ علينا ياسيدي نحن أولادك" ثم أطلق سراح السجين².

ويتضح مما سبق قوة الشخصية، لهذا الولي الصالح والضغط الذي شكلتها على الأمير، وعلى المجتمع أيضاً.

إن السلطة التي شكلها الولي على الأمير في الواقع ما هي إلا مظهر من مظاهر السيطرة الكاريزماتية، التي أصبح الولي يمارسها في المجتمع، وخاصة في علاقته بالسلطة، والتي يمكن أن نعتبرها علاقة جدلية وتنافس وتعاون في نفس الوقت، تحركها المصالح المشتركة بين الولي والسلطة، وكان الشيخ الملاري يوسف بن عمران قد بشر الأمير أبي يحيى أبي بكر (718هـ/748هـ-1318-1348م)، بأن مدة حكمه ستطول، وبأن وفاته ستكون على سرير العافية، فسر بذلك الأمير سروراً عظيماً، وطلب منه أن يختار له لقباً من ألقاب الخلافة، فاختر له "المتوكل على الله". فقدم له السلطان ولاتباعه ألف دينار رفضها الشيخ وتعفف عن قبولها³.

¹ الفارسية، ص164.

² أنس الفقير، ص44.

³ الفارسية، ص164. أنس الفقير، ص40-41.

وكان الولي الصالح يعقوب الملاري الجد، إذا استأذن للدخول على السلطان
ينتهي هذا الأخير للقاءه بالطهر كالتهنئة للصلاة¹.

إذن فهناك علاقة وثيقة وجدلية بين نفوذ الأولياء في تلك الفترة وبين رجال
السلطة من جهة، ولدى العامة من الناس، وهو الأمر الذي جعل السلطة، تتقرب منهم
وتعتقد فيهم، بتنفيذ طلباتهم وقضاء حاجتهم، لأن السلطة من مصلحتها، اكتساب
ودهم والتحالف معهم، بل كانت تعمل على تركيز سلطتهم بين الناس، من خلال
تنفيذ رغباتهم وتجسيد طلباتهم وإقرار حرمة الزاوية واحترامهم لها².

وكان السلطان أبو العباس أحمد الأول (750/1350م) على وجه الخصوص
يذكر الولي الصالح يوسف بن يعقوب الملاري، بخير وفي كل المناسبات ويقول عنه: "ما
رأيت بعد سيدي يوسف أحدا³ ولا يكتب إليه أحد من الأمراء والسلطين إلا
ويخصونه بالسيادة والتقدير⁴ علما بأن لقب "سيدي"، كان يعد من ألقاب الخلفاء
المنحدرين من عبد المؤمن في حين أن لقب "الشيخ" اختص به الموحدين في الدولة
المؤمنية⁵ وكان السلطان أبو يحيى أبو بكر (718-747/1318-1347م) قد كلف الولي
يوسف بن يعقوب الملاري بمهمة دبلوماسية، إلى السلطان الزياني أبي هو موسى الأول
(707-718/1307-1319م) بتلمسان، لأن الشيخ يحظى باحترام بني زيان
وتقديرهم.

وقد تمكن الشيخ من إبرام معاهدة هدنة بين الدولتين الجارتين مدتها عشر
سنوات⁶. وكان للشيخ يوسف الملاري تلاميذ في مدينة قسنطينة. وفي ملارة وبجاية

¹ الفارسية، ص 164.

² نللي سلامة، المرجع السابق، ص 33.

³ أنس الفقير، ص 44.

⁴ نفسه، ص 45.

⁵ نللي سلامة العامري، المرجع السابق، ص 265.

⁶ أنس الفقير، ص 53.

وتونس وتلمسان، تتلمذوا عليه وعاهدوه على طريقته، نذكر منهم على سبيل الذكر لا الحسر:

1. الشيخ الولي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد الله الصفار (ت 5749هـ / 1349م) المدفون بمسجد الصفصاف، حيث كان يدرس ويؤم الصلاة، بداخل باب القنطرة بمدينة قسنطينة، فقد كان هذا الشيخ كثير الزيارة للملار، حيث يلتقي بشيخه وأستاذه، قدمه يوسف الملاري لتدريس تلاميذه بمدينة قسنطينة كما انتخبه لتدريس حفيده من بنات ابن قنفذ ومن تلاميذه أيضا والد ابن قنفذ.

2. الخطيب حسن بن الخطيب (ت 750هـ / 1349م)¹ الذي قام بمصافحة الملاري ومعاهدته، ولشدة إعجابه واعتقاده فيه قصد مصاهرته، فتزوج من ابنته الملارية، وقد استفاد من هذه المصاهرة علميا وأديبا، فكانا مسرورين منسجمين، بهذه المصاهرة التي وصفها ابنه أحمد بن قنفذ أنها قلم وقعت مثلما، فانتقلت ابنة الشيخ إلى دار الزوجية بمدينة قسنطينة. وشاءت الأقدار أن يتزوج الخطيب حسن بن قنفذ من امرأة أخرى، واسكنها في مسكن آخر، إلا أن المؤرخ ابن قنفذ الابن لم يذكر اسمها ولا نسبها في مؤلفاته العديدة، ربما لأنها ضرة والدته الملارية، بينما نجده يتحدث كثيرا عن أمه وجدته لأمه، إلا أنه فيما يبدو أن أم ابن قنفذ الملارية، هي المفضلة عند الأسرة وعند الأصدقاء، وشيوخ المدينة، لأنها ابنة الولي الصالح يوسف الملاري، والدليل على ذلك، ما ذكره ابنها بأنه عندما قدم والده من البقاع المقدسة، خرج إلى لقائه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد الصفار (ت 5749هـ) السالف الذكر، هو صديق العائلة، فهمس لبعض أصدقائه وهو يرقب قدوم الوالد غرضي أن يتزل الخطيب عند بنت

¹ الفارسية، ص 47 كان من فقهاء المالكية بمدينة قسنطينة تبوء منزلة العلماء بالمدينة وتعلم بها ثم ببجاية ورحل إلى بلاد المشرق لطلب العلم وأداء فريضة الحج من مؤلفاته، المعتدون في أحكام الطاعون والمسائل المسيطرة في الفوارق الفقهية" أنظر: ابن قنفذ "الوفيات" ص 355.

الشيخ الملاي، فكان يتبعه ويرمقه، حتى رآه قد توجه إلى دار والدي، عند ذلك قال لمن كان معه "الآن طابت نفسي".¹

ولم ينس ابن قنفذ ذكر جدته لوالدته أيضا، فقد وصفها هي الأخرى بأنها امرأة صالحة فاضلة، توفيت بعد جده الملاي بشهرين فقط، بعد عشرة دامت نحو سبعين سنة، سادتها علاقة طيبة ومودة وطاعة عظيمة.²

3. ومن تلاميذه أيضا المؤرخ ابن قنفذ القسطيني، حفيد الملاي (ت 810هـ — 1407م) فقد تأثر بثقافة جده لأمه الصوفية، وتلمذ عليه، لأنه كفله بعد وفاة والده، وعلمه منذ نعومة أظفاره، واعتنى بتربيته تربية خاصة وتدرسه علوما شتى، فتعلق الصبي بجده تعلقا شديدا، حتى كان له تأثير كبير، على سلوكه وأفكاره، فبعث فيه الزعة الصوفية، التي أفاضت على كتبه، ولا عجب أن نجده يكثر من الحديث عن جده الملاي، ويفتخر به وبدينه وورعه، فقد قال عنه:

'أقام خمسين سنة لا يطلع عليه الفجر إلا في المسجد'...³ وكانت صفاته التي دوام عليها الملاي يعرفها العام والخاص، فكان يغشي السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام حسب تغبير حفيده.⁴

4. ومن أكابر أصحاب يوسف الملاي الشيخ الإمام العالم الصالح قاضي الجماعة ببجاية، أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المسفر (744هـ / 1348م) صاحب المجلس العلمي ببجاية، الذي يؤمه الفقهاء والفضلاء والصلحاء. كانت له علاقة متميزة بشيخه يوسف الملاي، اندرج في سلك الفقراء على يده، عاشره ورافقه إلى ضريح أبي مدين بالعباد، سنة 730هـ / 1330م وكانت بينهما مراسلات عديدة ومكاتبات

¹ ابن الفقير، ص 46.

² نفسه، ص 44.

³ نفسه، ص 44.

⁴ انس الفقير، ص 54-55.

كثيرة وكان المسافر كثير الزيارة لزاوية ملارة، حيث كان شيخه يتحفه بمبالغ مالية، يستعين بها على ظروف العيش.¹

5. ومن أصدقائه أيضا الولي أبو هادي مصباح (ت 748هـ/1348م) وهو من المقربين للملاري، كان يتردد كثيرا على حواضر بلاد إفريقية، وكان استقراره بمدينة قسنطينة التي فضلها على غيرها من الحواضر، فبني زاوية بها، وتعد هذه الزاوية من النوع الصوفي، أي من يجلس إليها بهدف سلوك آداب الصوفية كالزاوية الملارية، لأن طريقة كل منهما تحدد بواسطة عدد الطقوس التي عرف بها أهل التصوف، من مصافحة ومعاهدة ولبس الخرقة.²

فقد طلب مرة من يوسف الملاري، بعد أن زاره بملارة، أن يتحرك معه إلى السلطان المريني أبي الحسن، الذي غزا إفريقية سنة 748هـ/1348م ليطلب منه التوقف والعودة إلى دياره، إلا أن الملاري رأى بجنكته وثاقب بضره، بأن المهمة مستحيلة فلم يستجب لطلب أبي هادي.³

كان أبو هادي موقرا ليوسف الملاري، وضع يده يوما على كتفه أمام أعين الناس وجهور من التلاميذ وقال لهم: "هذا أحد أشياخي".⁴

فرد عليه يوسف الملاري، أمام التلاميذ يخاطبهم، من عاهديني فليجدد عهده مع أبي هادي، وما زالت بينهما المودة والمداولة، كان يقضي معه الليالي في زاوية ملارة والأيام، وكان يعتزل معه الناس في المسجد بالليل، ويشهدان مع بعضهما الليالي ويريان الأحوال العجيبة والأمور الغريبة، التي تدخل في مجاهدتهما وكرامتهما في زاوية ملارة.⁵

¹ انس الفقير، ص 51.

² نفسه، ص 51.

³ نفسه، ص 51.

⁴ نفسه، ص 52.

⁵ توفي أبو هادي بمدينة قسنطينة بعد مرض أصابه سنة 1384/748 ودفن بالزاوية المعروفة باسمه بمدينة قسنطينة، ترك أموالا ولم يترك أولادا أنظر ابن الفقير، ص 52.

6. وكان ليوسف الملاري علاقة طيبة أيضا مع العالم الشهير أبي علي ناصر الدين المشدالي (توفي 731) البجائي، وكانت بينهما مراسلات واستشارات، حتى أن الملاري.

7. ومن إخوان يوسف الملاري ومريديه أبو الحسن علي بن محمد الأنصاري الأندلسي (توفي 1946/746م) المشهور بلقب السراج، نسبة إلى المهنة التي كان يمتثلها، وهي صناعة السروج وخياطتها وصيانتها بمدينة قسنطينة.

كان أبو الحسن مريدا نقيًا متميزًا، يكثر من زيادة شيخه بزاوية ملارة، وكان كلما زاره يقصد بينه ليفقد سرحه يعد من الأصفياء، واسع المعارف، له دراية بالتربية، يتصف بالفراسة والكرامات، له مكانه معتبرة عند خاصة الناس، توفي بمدينة قسنطينة سنة 1346/746م، دفن بالكدية، خارج أسوار المدينة وقبره كان معروفًا ومزارًا.¹

يكثر من ترديد بيت شعري يعجبه: لأنت مني قلبي وغاية مطلبي وأقصى مرادي واختياري وخبرتي.²

إذن فقد كانت للملاري علاقات عديدة ومتنوعة مع العلماء والصلحاء والأمراء والسلاطين، في بجاية وقسنطينة والقيروان وتلمسان وتونس وفاس وتدل هذه العلاقة على اتساع دائرة شهرته العلمية والصوفية وكثرة الاعتقاد فيه.

كان شيوخ التصوف عامة، يختلفون في نمط حياتهم وطريق معيشتهم، فمنهم من اتخذ التقشف والزهد، والابتعاد عن ملذات الحياة ونعيمها منهجا لهم، فاقترضوا على المرقعات واللباس الخشن والصوف، واكتفوا بأكل الشعير والنخالة واختاروا المسكن البسيط مأوا لهم.³

¹ ابن قنفذ: انس الفقير، ص 49.

² قصيدة طويلة للإمام المصري أبي القاسم عمر بن علي السعدي المعروف بابن الغارض توفي سنة 732-1332م جاور بمكة نحو 20 سنة أنظر ابن قنفذ، المرجع السابق، ص 49.

³ الدولتلي عبد العزيز: المدن العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة، ص 81.

إلا أن نظرة أسرة الملاري تختلف عن طريقة معيشتهم عن هؤلاء، وخاصة في الزهد والتقشف، بل نجد هذه الأسرة اقتتدت بأسرة المرازقة في تلمسان، كما اتبعت أيضا طريقة أبي الحسن الشاذلي، وأبي مدين، الغوث، والغزالي، في هذا المجال، بحيث اتخذوهم قدوة لهم فقد كانوا يرون بأن التصوف لا يعني التخلي عن ملذات الحياة أو التحرر منها، ودعوا إلى التعم بالملبس والمأكول والمركب، ولا يعجبهم الزي الذي اصطلح عليه الفقراء، ولا يتخذون المرقعات الخشنة¹.

ويذهبون إلى أن طريق السير إلى الله، يتجلى في أتباع الكتاب والسنة وسلامة القبل من الأمراض الباطنية²، ولهذا يمكن القول بأن لباس أفراد أسرة الملاري، لا يخرج عن المألوف بل كانوا يلبسون الثياب الحسن، ولا يتخرجون من وضع المسك والطيب كما كان يفعل قدوتهم.

وبهذا يكون متصوفة زاوية ملارة وشيوخها قد ثاروا على المعنى السطحي للتقشف والزهد، وعلى المفهوم الجامد للأوراد، وكثرة الوظائف الصوفية، ويكرهون المريد الجامد العاقل.

فكانوا للفرائض حافظين وللمعاصي رافضين³، لأنهم أهل وجاهة وعلم وصلاح ودين وتصوف، اتخذوهم في ذلك رغبتهم القوية في جعل التصوف تصوفا شعبيا سنيا ونشره على نطاق واسع والنظر إليه بالمنظار الإسلامي السني المتكامل.

كما كان ينظر إليه أبو الحسن الشاذلي وأبو مدين وأبو العباس السبتي، والغزالي والقشيري⁴.

وصفوة القول:

¹ علي سالم عمار: الزاوية، العرائش، جـ 1، ص 144

² الدولاتلي: المرجع السابق، ص 81

³ عبد العزيز فيلاي، تلمسان، جـ 2، ص 400.

⁴ ألفريد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 393.

إن الاتجاه العام للتصوف في ملارة بتسدان (ميلة) يمكن أن نلخصه فيما يلي:

يتميز التيار الصوفي في ملارة، بالاتجاه السني، اعتنقه شيوخ الزاوية ومريديها ويظهر جليا في معتقداتهم وممارساتهم وأفكارهم، المتشعبة بأفكار وطرق الرعيل السابق مثل: المدينية والجيلالية والغزالية.

ويتسم بالصفة الأخلاقية، التي تتجلى في سلوكات شيوخ الزاوية وطلبتها ومريديها وهو الأمر الذي يؤكد أصالة منبع مبادئ الزاوية الملارية، وارتباطها بالسنة، والسلف الصالح، وابتعادها عن الأفكار الفلسفية والرقص والشطحات التي يعتنقها بعض شيوخ التصوف.

ارتبط شيوخ زاوية ملارة، بمشاكل المجتمع، وانشغالاته واهتماماته، لأنهم يعيشون في وسطه وبين ظهراي أفراد، يتأثرون ويؤثرون في الوسط الذي يعيشون فيه، ويقومون بتقديم خدمات جليلة لجمهورهم وأتباعهم.

عملت الزاوية الملارية، على توسيع ظاهرة التصوف في الأرياف وبين الأوساط الشعبية على الطريقة المدينية، بل نجدها قد تمكنت من التأثير على بعض بيوتات قسنطينة وبجاية وتونس، حيث كانوا يعتقدون في شيخ الزاوية الملارية وهو الشيخ يعقوب بن عمران (ت 717 هـ/1363م)، الذي ورث الطريقة ومشيخة الزاوية لابنه فصار الناس والحكام، يجلون الشيخين ويقدرونهما ويرغبون في مجالستهما والتبرك بلقائهما على الرغم من بعد زاوية ملارة عن مدينة قسنطينة وبجاية وتونس، وهذا يدل على أن التصوف، ساد القرى كما ساد المدن.

أما عن علاقة رجال التصوف برجال السلطة والحكم، فيبدو أنها كانت في الغالب الأعم، علاقة ود واستحسان، علاقة وثيقة وجدلية بين الطرفين، وخاصة عند

تعاظم نفوذ الأولياء لدى المجتمع. فتصبح طلباتهم لدى الحكام مستجابة، ورغباتهم منفذة وحاجاتهم مقضية، وكلما هم مسموعة لدى الجميع.¹

فقد كان الحكام يسعون إلى التقرب منهم، ويخطبون ودهم، سواء كان ذلك عن اعتقاد فيهم، أو تظاهرا لاكتساب الشرعية وطاعة الرعية عند البعض. ولم نجد كثيرا ما يؤكد، بأن هذه العلاقة كان يشوبها التشنج أو التوتر أو التصادم، أو ما يدل على أن السلطة، قد اضطهدت رجال التصوف من الأولياء الصالحين، أو أهانتهم أو انتقصت من مكانتهم أو اقتصت منهم²، بل اعتبر الحكام أن التقرب منهم وتلبية طلباتهم ورغباتهم، يحقق لهم مآرب دنيوية هامة، وهي ضمان الاستقرار والشرعية وكسب ولاء الرعية، ومآرب أخروية بالتبرك بهم والتقرب منهم حتى يحاطون بالأمان والبركات والرعاية الإلهية، لأن البعض من الحكام لا يختلفون عن عامة الناس، في فكرة الاعتقاد في الأولياء.³

ولاسيما أن المتصوفة روجوا أفكارا وشعارات مؤثرة تدعم سلطتهم على الناس وتدعوهم إلى التقرب منهم واللجوء إليهم وقت الشدائد.

تقول: "إذا غلت أسعاركم، وقلت أمطاركم وضعفت ثماركم، وتنكرت قلوبكم، وعميت عن الرشد مسامعكم، وكثرت النميمة والغيبة في خياركم، وجارت عليكم ملوككم، فالتجئوا إلى الله، بالأولياء، الذين خلف ظهوركم يؤمنكم الله مما تخافون".⁴

فصار هذا المعتقد، سائدا عند العامة من الناس وعند خاصتهم وكذلك عند الحكام وعلى الرغم من هذه العلاقة المتميزة بين رجال التصوف والسلطة، فإن بعض الأولياء اشتهروا بالدعاء على الحكام المستبدين وهم قليلون وهو الأمر الذي جعل

¹ نللي سلامة: المرجع السابق، ص 303

² بونابي الطاهر: المرجع السابق، ص 303

³ مناقب أولياء تونس، ص 10 - أ

⁴ ابن قنفذ: انس الفقير، ص 116

الفقيه القاضي المالكي ابن قنفذ القسنطيني (1407/810م) مؤرخ الدولة الحفصية وصاحب كتاب أنس الفقير، الذي جمع فيه أشهر أولياء المغرب الإسلامي، ثار ضدهم، وأنكر الدعاء على السلطان في حد ذاته مخالف لتعاليم السنة النبوية.

واستشهد ببعضها قائلا: "إن عدل فاشكروا، وإن جار فاصبروا"

وقال أيضا: "أدوا الذي عليكم ويسألهم الله الذي عليهم". أي أدوا الطاعة والولاء، وقال بعض الناس لبعض الأولياء الصالحين: "إن سلطاننا يجور علينا." فقال أحدهم: "أخاف أن يفتقدوه ويأتي من هو أشد منه في الجور، فيصرف الأمر لله تعالى".¹

ويجذب ابن قنفذ الولي المعتزل للسلطان والمنقبض عنه، وهناك الكثير من المتصوفة يتحاشون لقاء الحكام، ويتعدون عنهم ويتفادون رؤيتهم، كما كان يفعل ابن مرزوق الجذ (ت 1282/681) مع يغمراسن (633-1235/681/1282) بتلمسان .

ويؤكد ابن قنفذ على أنه إذا كان ولا بد من الاحتكاك واللقاء بهم، فالأحسن أن تبقى العلاقة، في أدنى مستوى لها، ويجذب " السكوت" وواجب التحفظ، وإذا سئل الولي فعليه أن يحتاط في الإجابة، وإذا كان لا بد من الدعاء فالأحسن أن يكون بصلاحي الحال مع الله وبطول العمر في الطاعة، وحتى الدعاء لأصحاب السلطة، بطول البقاء المطلق، بدون قيد فهو مخالف للسنة، في حين أجاز القاضي ابن قنفذ الدعاء على العمال الفجار سرا وجها².

ولعل موقف ابن قنفذ هذا يمثل رأي القضاة والفقهاء، بوصفهم فئة اجتماعية، قريبة من السلطة، ينافسهم الأولياء بوجودهم وهيبتهم وتأثيرهم على أوساط الحكم والرعية ويودون أن لا يتعاطى الأولياء مع السلطة وييقون على انقباضهم وسكوتهم.

¹ أنس الفقير، ص 116

² نفسه، ص 116

الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة

د. محمد الأمين بلغيث

جامعة الجزائر

مدخل عام:

أعالج في هذه البحث دور الهجرة الأندلسية إلى فحص الجزائر ومتيجة، حيث تبدو نصوص ووثائق استقرار الأندلسيين في سواحل المغرب الأوسط بجناحيه الشرقي وحاضرتة بجاية والغربي وحاضرتة وهران، ووسطه جزائر الثعالبة شحيحة، كما تظهر خطوط المواصلات البرية والبحرية هي التي هيأت مرافئ استقرار الجاليات الأندلسية بالمغرب الأوسط وبهذا الصدد يذكر العلامة ابن خلدون "...وأما أهل الأندلس، فافترقوا في الأقطار، عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية، فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية، من لدن الدولة اللّمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة".¹ وأثرى هؤلاء بلاد المغرب بما يملكون من مناهج تعليمية وقدرة في الزراعة والصناعة، والجهاد البحري. كما ساهموا في تطوير ميناء بجاية وأسطول الدولة الحفصية أيام السلطان أبي العباس أحمد وتطوير فعاليته في مواجهة الأساطيل البحرية بغرب المتوسط، وكان أمير البحر آنذاك محمد بن أبي مهدي، فجعل من مدينة بجاية أكبر قاعدة لانطلاق الغارات على السواحل الأوروبية.²

لقد كان الأندلسيون أركان دولة المستنصر الحفصي منذ منتصف القرن السابع الهجري، يتبوعون معظم المراكز الهامة فيها.³ كان اتجاه الباحثين العرب لفترة طويلة موجهاً بشكل مكثف إلى دراسة تاريخ الأندلسيين خلال قيام دولة الإسلام بالأندلس نتيجة توافرهم على عدد من المصادر الأندلسية المتعاقبة بتلك الفترة في حين اتجه عدد

¹ ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الفكر، 1422هـ/2002م، ص: 401.

² عبد الناصر جبار، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط ص: 131.

³ ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري، ص: 303.

كثير من الباحثين الأوروبيين إلى دراسة تاريخ الموريسكيين بأسبانيا بعد سقوط غرناطة، فدرسوا تاريخهم من خلال وثائق محاكم التفتيش، ومن خلال المصادر المعاصرة واعتبروا موضوع الموريسكيين موضوعاً مسيحياً قبل أن يكون موضوعاً إسلامياً، وكان نتيجة ذلك أن تنوعت الدراسات الموريسكية (الأوروبية) إلى درجة أصبحنا نجد معها تخصصات جزئية داخل التخصص العام. وفي الجانب المقابل نجد الباحث العربي - في أغلب الحالات - لا تسمو المواضيع التي يتطرق إليها عن الإثارة العاطفية على اعتبار أنها "مأساة"¹ لحقت بالتاريخ العربي الإسلامي دون أبعاد هذه المأساة حضارياً وسياسياً، سواء على صعيد المجتمع الأسباني نفسه، أو على صعيد المناطق التي استقر بها الموريسكيون، خاصة - منطقة المغرب العربي. هذه المداخل المتواضعة لطرح الإشكالية الخاصة بمناطق استقرار الموريسكيين والصعوبات التي عاشها الأندلسيون في مناطق "الشتات" ولو تجاوزوا لأنهم بين أظهر إخوانهم وبلاد الإسلام. ثم أشير إلى جهودهم وآثارهم في فحوص "جزائر الثعالب" والنتيجة عامة.

الهجرات الأندلسية إلى الجزائر عامة ومنتجة خاصة

تشير الوثائق القليلة إلى هجرات أندلسية مبكرة قبل سقوط غرناطة عام 1492م، وقبل الطرد النهائي لبقايا المدجنين من كان بجي البيازين وثوار جبال البشارات عام 1610م، وتبدو أول هجرة أندلسية واضحة نحو الجزائر "جزائر الثعالب" على إثر سقوط سرقسطة البيضاء عام 512هـ/1120-1121م واستقرارهم في أعالي الجزائر وموطن استقرارهم بجي أو حومة الثغرين ولا تزال الهضبة التي استوطنوها تحمل اسمهم إلى اليوم، ويعود لهم الفضل الأكبر في إحياء المنطقة والقضاء على أحرار بوزريعة واستصلاح غابات المنطقة كما سيأتي ذكره لاحقاً. لقد كان خط سير الثغرين من سرقسطة البيضاء أيام حكم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (537هـ/1143م)،

¹ وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة مع دراسة تحليلية للمستشرق جيمس.ت. مونرو، ترجمها وعلق عليها الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، دار الهداية، دون تاريخ، ص: 17.

فقد حملهم الأسطول المرابطي العامل في السواحل والجزر المرابطة من ميناء ألمرية إلى جزائر الثعالبه رأساً وقد كانت الحاضرة المرابطة الشهيرة بالمغرب الأوسط.

أما الهجرة الأندلسية الثانية في هذه المرحلة المبكرة في منتصف القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي حيث تمت أيام سقوط ألمرية نفسها على يد الصليبيين الفرنسيين من بروفانس وإمارة لانغدوك (Languedoc) جنوب ووسط فرنسا، وكانت محطة استقرارهم الأولى بجاية الناصرية ثم تحولوا في ظروف لا نعلم دواعيها إلى فحص الجزائر، وكان استقرارهم ببساتين ثامنفوست لقرب سهول المنطقة من المرافئ البحرية للجزائر الشرقية¹.

وصد الحملات الأسبانية التي تسعى للسيطرة على ضفتي المتوسط في إطار الإمبراطورية الجديدة².

الهجرة الأندلسية الثانية:

هجرة أهل بلنسية الشهيرة، هجرة كثيفة نحو تونس الحفصية، وبجاية كما خرجت عائلات كثيرة من تونس واستقرت أولاً: بمدينة القل وتادلس "دلس" حالياً ومنها إلى فحص الجزائر متيجة أيام اشتداد الحملات الصليبية الأسبانية على بجاية وبونة والقالة ودلس. هذه الهجرات كانت بطريقة أو بأخرى تتم نحو جزائر الثعالبه منذ أيام المرابطين والموحدين ثم أسسوا مدينة القليعة فيما بعد.

¹ تقع ثامنفوست أو روسقونيا القديمة، على بعد 24 كلم شرق جزائر الثعالبه، وتحتل الجزء الشرقي من جوف الجزائر، ويقصد بـثامنفوست الجانب الأيمن، واسمها قديماً روسقونيا المتكون من كلمة روس البونية الأصل وتعني قمة أو رأس، ومعناها: قمة أو رأس الأدغال: عمرها الرومان، وآثارهم الباقية إلى اليوم، لا تزال شاهدة على تعميرهم لها، وكانوا قد أزالوا الآثار الفينيقية، حيث كانت تمثل مرفأ السفن ومنطقة تخزين السلع الفينيقية، ثم عمرها الأندلسيون وكونوا منها حصناً وقلعة في عهد الجزائر العثمانية، وكانت من ثامنفوست تنطلق السفن لحماية الساحل الشرقي، وقاموا بتعمير المنطقة الفلاحية، وهذا بما جلبوه من خبرات في الري، ومد القنوات لسقي البساتين.

انظر: ثامنفوسن (روسقونيا القديمة، الجزائر، الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، 1998م. ص: 3.

² فرنان برودويل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإنجاز مروان أبي سمراء، بيروت، دار المنتخب، 1993م. ص: 47.

ومن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى استقرار هذه الجاليات الأندلسية من سرقسطة البيضاء وألمرية وبلنسية خاصة إلى رغبة الثعالبية وهم فرع من عرب المعاقيل الذين ملكوا متيجة وضواحي مدينة الجزائر العاصمة والفحص بصورة خاصة لحاجتهم إلى خبرة هؤلاء الأندلسيين الزراعية خاصة والحرفية عامة.

تتميز الهجرات الأندلسية الأولى كما ذهب إلى ذلك جل المؤرخين الجزائريين بأنها هجرات أسر وحيهة وأعلام أندلسية بارزة كان لها الأثر الكبير في جميع الميادين العلمية والاقتصادية، وقد استقطبتهم بجاية الناصرية والحفصية بصورة بارزة¹. واستقرت حوالي ثلاثمائة أسرة أندلسية هاجرت من قشتالة والأندلس ومن أهل الثغور من مملكة بلنسية، واستوطنوا مدينة القل مدينة المهاجرين الأندلسيين كما يقول مارمول كرنجال².

لذا تطورت هذه المدينة العتيقة التي استوطنها الأندلسيون من شرق الأندلس وحواضره الشهيرة بلنسية ومثاغري جزيرة شقر، والقل بلد غني بالفواكه ومنها أشجار الليمون والبرتقال، كما كسبت المنطقة من خلال خبرة الأندلسيين درجة عالية في تربية دودة القز، لهذا كانت من أطماع بيدرو الثالث الأراغوني، الذي سعى للسيطرة عليها ثم الزحف على مدينة قسنطينة في مغامرة غير محموددة بتواطئ مع ابن الوزير الطامح في عرش تونس الحفصية بمساعدة مملكة أراغون الصليبية³.

¹ سيدي موسى محمد الشريف، مدينة بجاية الناصرية، (دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية)، تقدم الدكتور محمد الأمين بلغيث. الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع. 2007م.

² مارمول كرنجال، إفريقيا، الجزء الثاني، ص: 362.

³ ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر (المجلة العربية للثقافة)، السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والعشرون، عدد خاص بالتاريخ العربي في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1994م. ص: 232. أفوقاي (أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي)، ناصر الدين على القوم الكافرين (مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحياء)، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1407هـ/1987م. ص: 5. د. ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري. ص: 472.

المرحلة الثالثة للهجرة الأندلسية نحو الجزائر

ارتبطت نهاية الحكم الإسلامي بالأندلس بسقوط آخر معاقل الإسلام المحاصر بأقصى جنوب غرب أوروبا-غرناطة بني الأحمر(897هـ/1492م) وبانتهاج الأسبان سياسة متابعة حركة الاسترداد ببلاد المغرب وتعقب المهاجرين الأندلسيين بها، وذلك للحيلولة دون قيامهم بالجهاد البحري انتقاماً لما تعرضوا له، وقد أسفرت هذه السياسة عن استيلاء الأسبان على العديد من المراكز الساحلية بالسواحل الجزائرية، فقد فرضوا سيطرتهم على المرسى الكبير(1505) ووهران (1509م) ومستغانم (1511) وتلمسان(1512).

تطلبت تصفية الوجود الإسلامي بأسبانيا ذاتها انتهاج سياسة التنصير الإجباري¹ للمسلمين التي أشرفت عليها الكنيسة الكاثوليكية وتبناها الكاردينال خيمينيس (*Cinseros Ximénés*) ونفذها البغيض الأسباني فنقض فردناند وإيزابيلا العهد الذي أعطي للمسلمين مقابل تسليم غرناطة وحرمت الشعائر الإسلامية وأحرقت الكتب العربية وأغلقت المساجد (905هـ/1499م) واعتبر الدين الإسلامي خطراً على أسبانيا ومنع وجود المسلمين بها(907هـ/1501م) وهذا ما أدى إلى انتفاضة المسلمين وقيامهم بثورة جبال البشارات(976هـ/1568-1570م) وبعد سنتين فشلت الثورة فأرغموا على التهجير إلى السواحل المغربية، وأعقبت هذه الانتكاسة زيادة الضغط على المسلمين، فاتخذت في حقهم إجراءات قمعية رادعة مهدت إلى قرارات الطرد الجماعي التي أصدر قوانينها ومراسيمها فيليب الثالث ما بين 1607-1614م بإيعاز من الكنيسة وتشجيع من الإقطاعيين فخصصت لهم السفن لنقلهم إلى السواحل المغربية، وقد تضمنت الوثائق الأسبانية قوائم السفن التي حملت الأندلسيين المهجرين إلى وهران والمرسى الكبير باعتبارهما مركزين أسبانيين يوجه إليهما المهجرون. فقد تم نقل ما بين شهري أكتوبر

¹ وثيقة أندلسية: عن سقوط غرناطة مع دراسة تحليلية للمستشرق جيمس.ت. مونرو، ص: 19. الفيكونت شاتوبريان، الإسلام في الأندلس آخر بني سراج(ملحق أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر آخر بني سراج)، ترجمة الأمير شكيب أرسلان، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1985م. ص: 129.

ونوفمبر من عام (1016هـ/1609م) 116022 مسلماً من مناطق شرق الأندلس، وتعرض المهجرون الأندلسيون إلى مأساة ثانية بالجزائر وفاس حيث أغارت عليهم قبائل المنطقة، قال المقرئ التلمساني: "فخرجت ألوف بفاس وألوف بتلمسان من وهران... فسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المعرة"¹. ونتج عن هذا الوضع تجند المرابطين وشيوخ الزوايا بالمغرب الأوسط (الجزائر) لحمايتهم والدعوة إلى الجهاد، وطلب الفقهاء والوجهاء إلحاق البلاد الجزائرية بالدولة العثمانية حاملة راية الإسلام (918-924هـ/1512-1518م) وتحولت الجزائر بذلك إلى جبهة متقدمة في صد الدولة العثمانية للنفوذ الأسباني، وارتبط هذا العصر في الجزائر بتحول أعداد كثيرة من الأندلسيين من أسبانيا للاستقرار بالمدن والأقاليم الجزائرية الساحلية خاصة، فكانت أهم مراكز الاستقرار بالغرب الجزائري، وهران ونواحيها ومستغانم وآرزيو وجهاً وتلمسان وقلعة بني راشد ومازونة وندرومة، وبالشرق الجزائري استقرت جاليات أندلسية ببجاية وجيجل والقل وقسنطينة وبونة (عنابة) والقالمة، أما الوسط فاخترته بعض الجاليات الثغرية القادمة من وشقة وسرقطة البيضاء وبطليوس بالغرب (البرتغال). وتجمع الأندلسيون في مدن الجزائر والبلدية والقلعة وشرشال وتادلس ومليانة والمدية ومازونة وفي إقليمي متيجة والساحل القريب منها².

لقد تم نقل ما بين 1543-1569م حوالي 7700 أندلسي من أهالي بلنسية وأليكانت وهذا أيام البحارة المشهورين صالح رايس، إيدن رايس، درغوث رايس، حسن فينيزيانو، مراد رايس، كما شارك مئات المتطوعين الإنكشاريين ثوار جبال البشارات وهذا يانزال بحري على شواطئ نواحي المرية ومريلة ما بين سنتي 1568-1569م، وأشار

¹ المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة. ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ص: 213.

² ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي (مجلة أوراق) مدريد، العدد الرابع، المعهد الأسباني العربي للثقافة، 1984م. ص: 111-118.

كتاب غزوات عروج وخير الدين" أنه قد أنقض ما لا يقل عن سبعين ألف أندلسي وحملهم خير الدين إلى الجزائر، وما يلاحظ أن أغلب هؤلاء المرحلين الأندلسيين يشكلون المرحلة الثانية للهجرة الأندلسية نحو الجزائر، كانوا من الطبقات المتوسطة والفقيرة فجلبهم من الفلاحين وأصحاب المهن والصنائع والتجار والقليل منهم كان له حظ في العلم أو نصيب في الثقافة وهذا عكس المرحلة الأولى للهجرة الأندلسية للجزائر التي سبقت الإشارة إليها¹.

أثار الأندلسيين بالجزائر العثمانية

أدت الهجرات الأندلسية المتتالية نحو مدينة الجزائر إلى ارتفاع عدد السكان من 25 ألف (1518م) إلى 70 ألف (1580) ليرتفع إلى ما بين 100 ألف و120 ألف نسمة عام 1634م حسبما يستنتج من المصادر المعاصرة، بحيث أصبح الأندلسيون يشكلون ربع سكان مدينة الجزائر في بداية القرن الحادي عشر الهجري، مستهل القرن السابع عشر الميلادي، فقد فقد الراهب الأسباني هايدو (Haedo) عددهم عام 1609م بما لا يقل عن 25000 نسمة وهذا ما اضطر حكام الجزائر إلى تحويل قسم منهم إلى الأرياف المجاورة كما حدث عام 1512م الذي عانى فيه السكان المجاعة ونقص الأقوات فحمل

¹ جاء في كتاب غزوات خير الدين وعروج، فكتب أهل الأندلس كتاباً إلى خير الدين يعلمونه بما وقع من النصارى من هذه الخن ويتضرعون إليه في إنقاذهم بما هم فيه فوصل إليه كتابهم فامتعض من أجلهم ودخلته حمية الإسلام، والغيرة للدين الحمدي، فعند ذلك، حضر ستة وثلاثين جفناً، فلما رآهم الأندلسيون خرجوا إلى ذلك الجبل المتقدم، فتجرد في طلبهم النصارى فلما وصلوا إلى الجبل، نزل إليهم أهل الأحفان من المسلمين وأتوهم من ورائهم ووقع بينهم قتال عظيم، قىض الله المسلمين عليهم فأخذ الكفار في الفرار وتبعهم المسلمون في الأثر حتى أبعدوا عن مكائهم، ثم إنهم رجعوا لما رأى أهل الجبل من الأندلسيين ما منع الله عكر خير الدين من النصر نزلوا إليهم من الجبل وسلموا عليهم واستبشروا بقدومهم... فرفعوا نساءهم وأبناءهم وما قدروا عليه من أموالهم وأبناءهم فأتوا بها إلى الأحفان ووسعوها بذلك، وركب فيها عدد كثير منهم ورجعوا إلى الجزائر بعد ما خلفوا ألف مقاتل من العسكر يخرسون جماعة المسلمين الباقية من الأندلس خوفاً عليهم من غائلة النصارى لعنة الله عليهم، فلما وصلت الأحفان إلى الجزائر خلفوا ما حملوه من الأندلس... فكان جملة ما حملوه سبعين ألفاً انظر: مجهول، تاريخ خير الدين، مخطوط رقم: 5754. نقلا عن د. جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500-1830م)، الجزائر، منشورات المؤسسة الوطنية للطباعة، 1987م. ص: 41.

متولي الشرطة بالمدينة مسؤولية ذلك الموريسكيين وأمر بطردهم من المدينة في ظرف ثلاثة أيام، ولم يتردد في قتل الأشخاص العاجزين على مغادرة المدينة في الوقت المحدد¹، كما انجرّ عن تكاثر الأندلسيين بمدينة الجزائر تخصيص أماكن أخرى لاستقرارهم غير بعيد عن الجزائر، فقد أقامت أسر أندلسية بزعامة سيدي أحمد الكبير في مدينة البليدة (942هـ/1535م) وأنشأت جماعات المدجنين القادمين من قشتالة وثغور بلنسية مدينة القليعة (957هـ/1550م)، وطوروا كما سلف مدينة القل، وساحل الجزائر الشرقي، وجعلوا من مرفأ ثامنتفوست حصناً وقلعة لحماية الجزائر البيضاء الخروسة، انتقاماً من الأسبان الذين أذاقوهم الأمرين.

لم يمانع حكام الجزائر تشجيع بعض الأندلسيين للعودة إلى وطنهم بهدف الجوسسة أو إثارة إخوانهم المدجنين ضد الحكم الأسباني، وفي هذا الإطار من النشاط السريّ فسارع موريسكيو بلنسية إلى إخبار إخوانهم بالجزائر بالاستعداد الأسباني للقيام بحملة بحرية ضد الجزائر سنة 1601م فأرسلوا لهذا الغرض زورقاً على جناح السرعة وعندما نجحت مساعيهم وفشل الهجوم الأسباني لم يترددوا حسب الوثائق الأسبانية التي أوردت الخبر من إقامة حفلات بهيجة جماعية تعبيراً عن تضامنهم مع إخوانهم بالجزائر².

أولاً: الدعم العسكري:

ساعد الأندلسيون في تدعيم الحكم العثماني بالجزائر، وقدموا يد المساعدة والعون للأخوين عروج وخير الدين بربروسة في صراعهم مع الأسبان حيث كانا

¹ ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ص: 232. محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، الدار البيضاء، 1989م. ص: 132.

² ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ص: 234. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492-1792م). الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977م.

الأخوان سبباً بعد الله في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام.

اتخذ حكام الجزائر منذ عهد خير الدين من الأندلسيين جنوداً لحراسة أبراج مدينة الجزائر وألقوا منهم فرقاً عسكرية شاركت في توطيد الحكم العثماني في الأقاليم الداخلية للجزائر، فقد شارك 500 أندلسي من أهالي غرناطة وأراغون وبلنسية في الحملة التي شنّها خير الدين للقضاء على حميد العيد حليف الأسبان المستبد بمدينة تنس ونواحيها عام 1517م كما كلفت جماعات الأندلسيين بحراسة مدينة المدية بعد أن تمكن خير الدين من تنحية محمد بن العابد وإحاقها بالسلطة المركزية بالجزائر، كما قضت فرقة من الرماة (500) على حاكم مليانة المدعو حسن أيام حسن بن خير الدين.

تزايد عدد المجندين الأندلسيين المدافعين عن الجزائر المحروسة وبلغ شهادتهم أيام حملة الصليبي شارل حوالي 5000 شهيد، من 6000 مجند أندلسي ومجموع 15000 رجل مقدرين للجيش والقوة العسكرية الجزائرية¹. ولا يمكن لعقل إلا الاعتراف لهؤلاء الأندلسيين بالفضل الكبير في تحديث الجيش الإسلامي بالجزائر في العهد العثماني نظراً لخبرتهم الطويلة في الجهاد وصد حملات القوات العسكرية الأسبانية التي أضاعتهم الأمرين.

ثانياً: النشاط الاقتصادي

اشتغل أندلسيو فحص الجزائر بالأعمال الزراعية والتجارية والحرفية، وتفوقوا في ضروب الصناعات التقليدية، وكان أغلبهم بباب الواد وباب عزّون من صناع أهل الأندلس، وأهم الصناعات التي عرف بها الأندلسيون صناعة النسيج بمختلف أصنافها "كأقمشة الكتان والقطن والحرير والحمل (القטיפ)"، وكانت معامل الأقمشة في الربع الأول من القرن السادس عشر تضم ما لا يقل عن 3000 عامل كما لا تقل هذه الصناعة أهمية عن بقية الصناعات والحرف الأخرى التي أتقن صناعتها الأندلسيون

¹ انظر رسالة فيليب الثاني ملك أسبانيا إلى فورك فو (Fourque Youls) سفير فرنسا بتاريخ 6 جويلية 1566م. ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ص: 236.

وهي التطريز(الشبيكة) والقلائس(الشاشية) وصناعة الحلبي وتجهيز السفن وصناعة الأسلحة.

لم يقتصر النشاط الاقتصادي الخاص بالهجرة الأندلسية في متيجة وفحص الجزائر وبقية مدن وحوضر استقرارهم على الجانب الحرفي، فقد نشطوا العمل الزراعي في الساحل الشرقي والغربي لمدينة الجزائر، حيث استصلحوا الأراضي وأخرجوا الماء ونظموا الرعي بفحص باب الوادي بواسطة مياه المعامل وفحوص باب عزون باستغلال مياه الحامة ووادي خنيس ووادي الجر فبنوا الأحواض والصهاريج والسواقي والقنوات والحنايا والنوريات(الناعورات) وحفروا آبار الماء، وأنشأوا العيون، وكانت من أهمها عيون الحامة التي بناها أوسطى موسى، أحد الصناع الأندلسيين على عهد قوصة مصطفى حاكم الجزائر(1610-1613م).

على أن أهم آثار الأندلسيين في مدينة الجزائر والبليدة والقلعة والمدينة يتمثل في تلك التقنيات الزراعية المتطورة التي أدخلوها إلى هذه المدن من حيث آلات العمل الفلاحي وطرق التشذيب والتلقيح والغراسة واختيار التربة ونوعية المياه¹، مما أدى إلى تحسين أنواع عديدة من الأشجار المثمرة كالعنب، والبرتقال والزيتون والتفاح والجوز واللوز والمشمش، وإدخال أنواع جديدة من الخضر والفواكه لم يألفها السكان قبلهم مثل: حب الملوك(الكرز) والنارنج والقرنون والكراث والجلبان والمقوقف والبادنجان والطماطم والبطاطس والفلفل وأنواع الزهور والقرمز.

شكل الأندلسيون أساس اقتصاد مدينة الجزائر بمثل الأعمال الحرفية والتجارية والزراعية التي جلبوها معهم من موطنهم الأصلي الأندلس بمختلف أقاليمه. وكان الأندلسيون المهجرون نحو الجزائر نواة تطور مدينة البليدة حيث قاموا باستصلاح فحص متيجة وأقاموا البساتين الغناء وأحواض الماء لسقي البساتين والحقول، فعرف

¹ لمزيد من الإطلاع على مسائل الماء والتقنيات الفلاحية التي برع فيها الأندلسيون منذ عهد قدم انظر: محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، المجلد الثاني، ص: 529 وما بعدها.

سكان المنطقة سعة الرزق ورخاء المعيشة أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر وهذا ما جعل سيور دي لا كروي (Sieur de la Croix) يؤكد على أن 2000 مورييسكي هم سبباً في جعل مدينة الجزائر مدينة غنية بمشاغل الحرير والقطيفة وغيرها من الصناعات اليدوية المتطورة الدقيقة¹.

التأثير على البنية الاجتماعية لفحص الجزائر ومتيجة

ظل الأندلسيون شريحة اجتماعية متماسكة، يحتكر أفرادها أغلب المناصب الإدارية والوظائف الاجتماعية المهمة التي لم يشغلها الأتراك بمدينة الجزائر، وقد كانت هذه الجماعة حظوة ومكانة لدى الحكام وتعامل خاص مع التجار الأوروبيين والمتعاملين اليهود الذين قدموا من الأندلس أو المدن الإيطالية وقد اشتهرت من هذه الطبقة المسورة عدة أسر توارث الثروة والنفوذ، واشتغل أفرادها بالتجارة والصناعة مثل ابن رامول، وابن هنيّ وابن النيقرو، وبرحال، وبوناتيرو، وابن تشيكو وابن الكبابطي، وبوضربة، وابن الشاهد، وابن الأمين، وابن عمار، وخوجة، والزهار، والآبلي، وشلاسة، والعنجدون وغيرها².

ازدهار الحياة الفكرية والفنية بمدينة الجزائر

ساهم الأندلسيون بقسط وافر في التعليم بالمدارس المشهورة منها مدرسة الأندلس، ومدرسة القشاش، كما كان لهم نصيب في فنون الأدب والثقافة لم يصل إلى مستوى أسلافهم من علماء بجاية وتونس وفاس ولكنه مكن من المحافظة على التقاليد التربوية والتعليمية الأندلسية، كما ضمن استمرار التقاليد العلمية والفقهية والأدبية، فأصبح للفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب مثالا يحتذى به في فن الترسيل والنثر الفني، كما تؤكد أعمال ابن عمار وابن حمادوش وابن ميمون، كما تولّى الأندلسيون الوظائف الشرعية كالقضاء والإمامة والخطابة والنظر في الأحباس والأوقاف واشتهر منهم في مجال القضاء: ابن النيقرو وابن الأمين وابن عمار وابن

¹ سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ص: 237. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص: 420.

² سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ص: 236.

الكبابي، أما في ميدان الفن فكان اهتمامهم كبيراً كادوا ينفردون بتشيط الحياة الفنية، فقد نقلوا إلى فحص الجزائر ومدنه الشهيرة الموشحات والأزجال الأندلسية المعروفة عندنا (بالمالوف) وأدخلوا آلات موسيقية أندلسية، وحافظوا عليها مثل العود والرباب، والكامنجة، والصنوج، والطبيلة والطارو والدربوكة، وأحيوا المواليد والإخوانيات وقصائد المديح والغزل والتشبيب ووصف الطبيعة والرياء، وشعر الحرب، ومن أشهر منظمي الموشحات أبو العباس أحمد بن عمار الأندلسي الجزائري متولي إفتاء المالكية سنة 1180هـ/1766م¹ وصاحب الرحلة الشهيرة "نحلة الليب في الرحلة إلى الحبيب"² و"لواء النصر".

ومحمد بن الشاهد الأندلسي الجزائري (ت. 1207هـ/1793م). وعمر بن سيدي علي الأندلسي، متولي قضاء الحنفية سنة 1163هـ/1750م، وغيرهم من العلماء³.

وفي الختام نقول إن الهجرة الأندلسية الأولى قبل سقوط غرناطة والهجرة الثانية بعد ثورة البشارات أعطت للجزائر عامة ومدنها الساحلية والداخلية خاصة بُعداً أندلسياً واضحاً، وأصبحت الجزائر وطنهم فدافعوا عنه بالغالي والنفيس طوال صراعها لمدة ثلاثة قرون مع أسبانيا النصرانية الكاثوليكية.

وخير ما نختم به هذه الحوصلة بتلخيص لما جاء في كتاب الدكتور مصطفى أحمد بن حموش حول المدينة والإسلام، حيث يلتفت إلى إنشاء المدن كإحدى صور تحقيق المصلحة العامة وفق ضوابط الشريعة، فيذكر إنشاء مدينة القليعة، مدينة المهاجرين الأندلسيين، ويفسر اسمها بأنه تصغير كلمة (قلعة)، في دلالة على وظيفتها العسكرية التي أرادها منها مؤسسها الباشا حسن، فقد كانت ركيزة في المنطقة لمواجهة القبائل البربرية بجمال شنوة.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م. ص: 282.

² هذه الأعمال من اهتمامات المؤرخ سعد الله ونشر نصوصها الهامة، كما نشر رسالة الغريب إلى الحبيب تأليف أحمد أبو عصيدة البجائي، بدار الغرب الإسلامي عام 1993م.

³ سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، ص: 239.

كما يستعرض نظرية في غاية الفطنة والانتباه إلى ما حدث في الضفة الشمالية يوم تهجير الأندلسيين أو القضاء عليهم في المنافي ومحاكم التفتيش فيستخلص بأنه مقابل اختفاء المدن والقرى الأندلسية في أسبانيا كانت تنشأ مدن وقرى في الضفة الأخرى من البحر حتى أن أغلب المدن في المغرب يعود الفضل في إنشائها إلى أهل الأندلس، فقد كان سكان المغرب الأصليون آنذاك يفضلون الخيمة والريف على المدينة، ولعب العثمانيون دوراً حاسماً في توطين اللاجئين الأندلسيين وإعانتهم على الاندماج في الإقليم الجديد، من منطلق ديني وإعمالاً للمصلحة العامة في أعلى مستوياتها وهي حفظ الدين ورعاية الأمة.

يقترّب الجزء الثالث -من كتاب الباحث المذكور أعلاه- أكثر من مدينة الجزائر وغوها، ويلاحظ بعض تفاصيل هذه المدينة التي كانت صغيرة إلى حد أن الرحالة لم يذكروها إلا نادراً، وأصبحت في ما بعد في العهد العثماني إحدى المدن العربية الكبرى، حيث ازداد عدد سكانها وكبرت مساحتها وتحولت إلى نموذج يمكن قراءة السياسة العمرانية العثمانية فيها ولهذا كانت هذه المدينة إحدى المحاور الأساسية في الكتاب بمجمله¹.

يقول المؤلف مصطفى أحمد بن حموش: إن أغلب المشاريع التي اطلع عليها عبر الوثائق كانت عسكرية. ويضيف أنه في بعض الحالات تكون المشاريع أشبه بالإعلان عن مناقصة، ومن أمثلة ذلك "مشروع جلب الماء من عين الحامة حيث طلب علي باشا من أهل الخبرة إجراء دراسات على كيفية إيصالها للمدينة".

وأثر على نوعية الطراز المعماري المهاجرون الأندلسيون الذين تدفقوا على شمال أفريقيا بعد النكبة وكذلك الأسرى المسيحيون الذين استخدموا في المشاريع العامة، فضلاً عن الطراز المشرقي العثماني الذي فرضه حضورهم في أجهزة السلطة.

¹ مصطفى أحمد بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدمشق، 1999م. (320 صفحة). عرض/ شفيق شقير المصدر الجزيرة نت.

وينتهي الباحث إلى خاتمة تؤكد على تكفل السلطة بالمسائل الإستراتيجية الكبرى التي ترتبط بالمدينة ككل، وأن المركزية في الإدارة ساعدت على التنسيق بين مختلف الخدمات، كما أن حضور أهل الخبرة بجانب السلطة كان له أثر في تحديد المشاريع الضرورية لاحتياجات السكان.

واندمج الأندلسيون مع "البلدية" من السكان "الحضر" والكراغلة وطبقة الأتراك، وشكلوا طبقة ميسورة. فتأثرت هذه الطبقة بلباس الأندلسيين ولهجاتهم، كما تأثر "البرانية" من البدو بسلوك هذه الفئة المتحضرة في المعاملة والمظهر الأنيق. لهذا طبع الأندلسيون المدينة بطبائعهم الاجتماعية وأثروا على حرف مدينة الجزائر، كما أشار إلى ذلك أكثر من باحث في هذا العصر الذي كون مجتمعاً متماسكاً لمدة قرون حتى غزاهم الاستعمار، فدمروا العمران الموريسكي، وحطموا المساجد ومعاهد العلم وغيروا الشوارع بدعاوى توسيع المدينة، وهيموا على العقار، وأرجعوا سكان المدينة إلى عصر ما قبل تحضر المدينة في القرن السادس عشر والقرون التي جاءت بعده.

مراجع الدراسة

- (1) - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، نسخة محققة، بيروت، دار الفكر، 1422هـ/2002م.
- (2) - وثيقة أندلسية عن سقوط غر ناطة مع دراسة تحليلية للمستشرق جيمس.ت.مونرو، ترجمها وعلق عليها الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، دار الهداية، دون تاريخ).
- (3) - الفيكونت شاتوبريان، الإسلام في الأندلس آخر بني سراج (ملحق أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر آخر بني سراج)، ترجمة الأمير شكيب أرسلان، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1985م.

- (4) - ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر (المجلة العربية للثقافة)، السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والعشرون، عدد خاص بالتاريخ العربي في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1994م.
- (5) - ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي (مجلة أوراق) مدريد، العدد الرابع، المعهد الأسباني العربي للثقافة. 1984م.
- (6) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م.
- (7) - محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، المجلد الثاني، أطروحة دكتوراه الدولة مخطوطة، إشراف أ.د. عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 1423-1424هـ/2002-2003م. نوقشت يوم 15 ماي 2003م.
- (8) - محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، الدار البيضاء، 1989م.
- (9) - أفوقاي (أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي)، ناصر الدين علي القوم الكافرين (مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1407هـ/1987م.
- (10) - مصطفى أحمد بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدمشق، 1999م. (320 صفحة). عرض / شفيق شقير المصدر الجزيرة نت.
- (11) - فرنان برودويل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإنجاز مروان أبي سمرا، بيروت، دار المنتخب، 1993م.

المذهب المالكي في الغرب الإسلامي

من خلال دراسة جديدة

د. علاوة عمارة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم

الإسلامية - قسنطينة

بعد سلسلة المقالات التي نشرها الباحث التونسي نجم الدين الهنتاتي حول مجموعة من القضايا التاريخية انطلاقاً من النصوص الفقهية المالكية¹، نشر منذ قرابة الثلاث سنوات

¹ من بين المقالات التي نشرها المؤلف:

- "مدرسة الحديث وعلاقتها بمدرسة الفقه بإفريقية منذ بداية القرن 9/3م" الكراسات التونسية، 159-160، (1992)، ص 169-199.

- "محاولة لنشر المذهب الحنبلي في إفريقية حوالي منتصف القرن 9/3م" مجلة معهد الآداب العربية، 173، (1994)، ص 91-106.

- "الأحباس بإفريقية وعلماء المالكية إلى منتصف القرن 12/6م" الكراسات التونسية، 174، (1996)، ص 79-121.

- "الجهاد بين النظرية والواقع لدى علماء المالكية بإفريقية خلال العهدين الأغلي والفاطمي" الكراسات التونسية، 169-170، (1997)، ص 3-34.

- "مواقف علماء المالكية من أهل الذمة بإفريقية إلى منتصف القرن 11/5م" مجلة معهد الآداب العربية، 186، (2000)، ص 59-77.

- "المذهب الحنفي بالقيروان في القرون الوسطى"، التاريخ العربي، 13، (2000)، ص 227-258.

- "الصراع المذهبي بالقيروان وتفاعله مع واقعها الاقتصادي والاجتماعي والعمراني إلى منتصف القرن 11/5م" حوليات الجامعة التونسية، 44، (2000)، ص 175-213.

- "الرباطات بإفريقية في العهدين الأغلي والفاطمي" أعمال ندوة تاريخ التحصينات بالبلاد التونسية، تونس، وزارة الدفاع الوطني، 2001، ص 51-66.

- "معايير تصنيف النساء في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط من خلال المصادر المالكية" مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الإمارات العربية المتحدة، 17-2، (2001)، ص 48-82.

- « La rue dans la ville de l'Occident musulman médiéval d'après les sources juridiques malikites », *Arabica*, L-3, (2003), p. 273-305.

- « L'eau dans la ville de l'Occident musulman médiéval d'après les sources juridiques malikites », *Revue d'Histoire maghrébine*, 102-103, (2001), p. 163-220.

دراسة شاملة تحت عنوان "المذهب المالكي في الغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي"¹، والتي تقع في 371 صفحة من الحجم المتوسط. وقد جاء هذا الكتاب ليعلن ميلاد قراءة جديدة للتراث المالكي بالغرب الإسلامي تماشيا مع الإشكاليات التي طرحتها الكتابات الكلاسيكية والمعاصرة في العالمين الإسلامي والغربي.

الفقه المالكي والدراسات الحديثة

جاءت دراسة نجم الدين الهنتاتي في إطار تحضير أطروحة جامعية نوقشت عام 1992 حول المالكية الإفريقية، قبل أن يوسع مجالها الجغرافي ليشمل الغرب الإسلامي بمعنى المغربين الأوسط والأقصى والأندلس، خلال الفترة الزمنية الممتدة من منتصف القرن الثاني الهجري إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجري (8-11م). وقد خلص إلى أن بلاد المغرب عرفت خلال هذه الفترة تحولا كبيرا "إذ تنازل عن انتسابه إلى الحضارة الغربية، كي يدخل وبصفة نهائية في بوتقة حضارة أخرى شرقية، وهي الحضارة الإسلامية"، وإن كان هذا الحكم أضفي عليه صبغة غير تاريخية، لأن الحديث عن حضارة غربية في الفترة السابقة لتشكل أوروبا المسيحية قبل القرن الثالث عشر الميلادي يتعارض مع المعطيات التاريخية، إضافة إلى هذا فقد بينت الدراسات الحديثة المعارضة الشديدة التي أبدتها المجتمعات القبلية المحلية في بلاد المغرب لسياسة الرومنة (La romanisation)، ومن ثم لا يمكن الحديث عن مغرب مندمج في الفلك الثقافي الروماني، كما عبرت عنه الكتابات اللاتينية باسم "البرابر". وقد انطلق الباحث من طرح تساؤل حول غموض تاريخ الفترة الإسلامية الأولى والتي تشكلت خلالها "شخصية المغرب العربية الإسلامية المؤيدة لاتجاه سني مالكي". ولماذا تراجع المذهب المالكي في عقر داره في المشرق بينما انتشر لدى المغاربة الذين تمسكوا به على حساب مذاهب أخرى كالْمذهب الحنفي؟

¹ تونس، تير الزمان، 2004. وقد تفضل الباحث بإهدائي نسخة من الكتاب، فله جزيل الشكر.

وقد تمكن الباحث من حصر مختلف المقاربات الحديثة التي اعتنت بدراسة المالكية في الغرب الإسلامي والتي حصرها في النقاط الآتية:

- المدرسة الفرڪفونية الكلاسيكية: وقد مثلها على الخصوص كل من أحمد بكير، ومحمد الطالبي، وعبد المجيد تركي، وسعد اغراب، وحسين مؤنس، وروبار بروشنفيك (Robert Brunschvig)، والهادي روجي ادريس (Hady Roger Idris). وتميز هذا الاتجاه بصفة عامة بالإقرار بما جاء في المصادر المالكية. وقد شهد هذا التوجه تراجع منذ عشرات السنين.

- المدرسة الإسبانية: واهتمت خصوصا بدراسة التاريخ المذهبي للأندلس ودراسة بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية اعتمادا على النصوص الفقهية ومن أهم من اشتهروا فيها نذكر آسين بلاثيوس، وقرتلاز بلانثيا، ومارييال فييرو (Maribel Fierro).

- المدرسة الأنجلو-سكسونية والألمانية: اهتمت بصفة عامة بتطور الخطاب الفقهي ومن بين روادها جوزيف شاخت (Joseph Schacht)، ونورمان كالدار (Norman Calder)، وكريستوفار مالڪارت (Christopher Melchert)، ويضاف لهم مختصين معروفين في الفقه المالكي هما ميكلوش موراني (Miklos Muranyi) وجنتان بروكوب (Jonathan Prockoop). وهناك أسماء أخرى من هذه المدرسة ممن تخصصت في الخطاب الفقهي المالكي بالأندلس ولم يذكرها صاحب الدراسة مثل كريستيان مولير (Christian Müller)، الدارس لنوازل ابن سهل.

- المدرسة العربية الكلاسيكية: لم يذكرها الباحث بالاسم ولكن حضور هذا النوع من الدراسات كان واضح جدا في طريقة تعامله مع مختلف جوانب المالكية. ومن بين هذه الدراسات يمكن الإشارة إلى ما كتبه عمر الجيدي، ومحمد أبر الأجفان، وخليفة بابكر الحسن، وعبد العزيز المجدوب... إلخ

هل توجد علاقة بين تدين المغرب القديم والتوجه السني المالكي؟

لقد بدأ الهنتاتي حديثه حول ديانات البربر قبل الإسلام اعتمادا على ابن خلدون، البعيد زمنيا عن الفترة القديمة والمعبر عن القطيعة المعرفية العربية مع الماضي غير الإسلامي، والذي رأى من خلاله بأن ديانات البربر قبل الإسلام كانت المسيحية ثم اليهودية وأخيرا الوثنية. وخلص إلى أن المسيحية كانت الأكثر انتشارا بين هذه الديانات سواء في المدن أو الأرياف. وقد سائر الباحث الميثولوجيات الخلدونية للحديث عن يهودية جراوة وعن حتمية ارتداد البربر اثنتا عشر مرة وفق مقولة متأخرة منسوبة إلى ابن أبي زيد القيرواني¹. ورأى بأن الفترة القديمة كان لها دور في انتصار التوجه السني انطلاقا من أن هذا الأخير اقترب في أفكاره من الكنيسة الرومانية الرسمية المحافظة على الوضع ضد الحركة الدوناتية الشبيهة بالتوجهات الثورية الخارجية، وضد الحركة البيلاجيوسية الشبيهة بمذهب الاعتزال. كما شبه الامام سحنون بالقدّيس أغسطين من حيث مقاومته "للأهواء والبدع" واتباعه للخط الرسمي للدين²، وهذه النقطة تحتاج بطبيعة الحال إلى أدلة تاريخية تؤكد أو تنفي معرفة سحنون بالنصوص اللاتينية أو على الأقل اطلاع سحنون على الروايات الشفوية المشكّلة للذاكرة الجماعية لمدينة بونة في العصر الأغلبي.

لقد كان بالإمكان تعميق دراسة الموروث الديني القديم من خلال تصفح النصوص المصدّرية اللاتينية ومن خلال الاستفادة من المعطيات الأثرية والدراسات الأكاديمية الحديثة المتخصصة في تاريخ المغرب القديم، للوصول إلى مقارنة علمية تسمح لنا من حل مشكل الهوية القديمة، بمعنى النظرة إلى الإنسان القديم على أنه المنسجم ثقافيا وسياسيا، أم نظرة الإنسان الوافد والحلي، المستعمر والأهلي.

¹ الهنتاتي، المذهب، المرجع السابق، ص 17-18.

² المرجع نفسه، ص 78-83.

الحركة العكسية: الرحلة إلى المشرق

بعد نهاية الحملات العسكرية التي واكبتها عملية استقرار للقبائل العربية يافريقية والأندلس وبعض مدن المغرب الأقصى، جاء القرن الثاني الهجري بمعطيات مغيرة تمثلت في تحول وجهة الحركة البشرية إلى بلاد المشرق لأداء فريضة الحج ولطلب "العلم"، بسبب نقص عدد الصحابة الحاملين للحديث الذين استقروا بالمغرب الإسلامي. لكن هذا التحول لم يوقف تدفق الجماعات البشرية القادمة من المشرق في صورة "الجند" المدافع عن "أمة الخلافة". وقد سمحت هذه الظروف من الحفاظ على العلاقة البشرية والثقافية بمركز دار الإسلام، والتي أدت إلى انتشار المذاهب المشرقية بالمغرب الإسلامي.

لقد كانت البداية مع توجيهين فقهيين مندثرين هما "الأوزاعية" و"الثورية" اللذان مهدا لدخول التوجه الحنفي وبعده المالكي. فإذا الأول قد سيطر في البداية لتحالفه مع توجه الأسرة الأغلبية ذات نفس الانتماء، فإن الغلبة سرعان ما تحولت لصالح الجماعات المرتبطة بمذهب إمام دار الهجرة. وبالرغم من الإقصاء الذي مارسه "كتب طبقات المالكية" على أتباع المذهب الحنفي، فإن الإشارات العابرة في كتابات الخشني وابن عذاري المراكشي قد سمحت للباحث الهنتائي من إحصاء 36 شخصية حنفية بالقيروان منها أربعة تبنت أفكار الاعتزال. وكان قد تقلد عدد منهم مناصب قضائية في زمن الأغالبة، وهناك من تحول منهم بعد ذلك إلى المالكية وعدد منهم إلى المذهب الإسماعيلي في زمن السلطة الفاطمية¹.

وقد اعتبر الهنتائي تولي سحنون القضاء بتكليف من السلطة الأغلبية عام 849/234، بمثابة حد فاصل في تاريخ المذهب المالكي يافريقية، لاستغلال سحنون هذا المنصب في نشر المذهب وضرب الجماعات المناوئة "لأهل السنة والجماعة".

¹ المرجع نفسه، ص 114-124.

وناقش الهنتائي مختلف الروايات المالكية المصورة لمذهب مالكي منتصر من البداية، وهذا بتتبع الشخصيات التي روت الموطأ عن مالك مباشرة (12 من الأندلس وأكثر من 30 من إفريقية). فإذا كانت بلاد الأندلس قد حسمت الأمر سياسيا لصالح المذهب المالكي المخالف لمذهب السلطة العباسية (الحنفي) منذ زمن يحيى بن يحيى الليثي (ت 848/234)، فإن التوجه المالكي عرف طريقه إلى إفريقية بواسطة الجيل الأول الذي تتلمذ على يد مالك والمتكون أساسا من علي بن زياد (ت 799/183)، والبهلول بن راشد (ت 799/183)، وعبد الله بن فروخ (ت 801/185). لكن هناك عوامل لم تكن في صالح حملة فقه مالك حالت دون انتشاره الواسع بسبب نوعية الفقه الذي أدخله الجيل الأول والمتأثر بالفقه العراقي، وكذلك إلى أعجمية ابن زياد وفشله في إقناع العناصر العربية¹.

وتغيرت أوضاع التوجه المالكي مع سحنون بن سعيد التنوخي، تلميذ الجيل المالكي الأول، الذي تمكن من تصحيح "المرجعية المغربية لفقه مالك" بكتابته للمدونة كبديل عن "الأسدية"، في محاولة للوصول إلى فقه مالك النقي، البعيد عن المؤثرات العراقية كما بدت في "أسدية" أسد بن الفرات. وقد نجحت "المدونة" المرتبطة بالواقع المغربي في فرض نفسها، وتميزت بتعدد جذورها: مدينية عن طريق ابن القاسم، عراقية عن طريق أسد بن الفرات وإفريقية عن طريق سحنون، لكن يبقى مالك هو الأصل واخوار الأساسي في بلورة خطابها الفقهي².

زمن ما بعد سحنون وتفوق المذهب المالكي بإفريقية

لقد كرر الهنتائي عدة مرات عبارة أن سحنون "لم يشهد التفوق النهائي للمالكية بإفريقية"³، في محاولة منه لدراسة معطيات النصوص المالكية بطريقة نقدية تمكنه من

¹ المرجع نفسه، ص 37-44.

² المرجع نفسه، ص 204-211.

³ المرجع نفسه، ص 52، 124.

تتبع الأحداث التاريخية بعيدا عن الرواية المالكية المحتكرة للتاريخ الديني والمذهبي لإفريقية والغرب الإسلامي بصفة عامة.

بعودة سحنون إلى القيروان في حدود عام 806/191، تشكلت نواة الجماعة المالكية الثانية في القيروان بعد توافد الطلبة للسمع عليه من مختلف المناطق من بينهم ابنه محمد، وابن عبدوس وابن غافق وعيسى بن مسكين، مما حول القيروان إلى مركز ثقافي هام لنشر المذهب المالكي. وقد ساعدت شخصية سحنون القوية ونشاطه العلمي واستغلاله لمنصبه في القضاء من نشر مذهب إمام دار الهجرة، لكنه لم يشهد تفوقه النهائي، بدليل تقديمه على نفسه سليمان بن عمران شيخ الحنفية في منصب القضاء. لقد "ضخم مجد سحنون بتأخر الزمن عن طريق كتب الطبقات" كتب الهادي روجي ادريس، وهذا لمحدودية شهرته لدى معاصريه من جهة ولعدم تمكنه من التفوق على الجماعة الحنفية من جهة ثانية.

بقراءة متأنية لأقدم النصوص المالكية الإفريقية، راجع الهنتاتي أطروحة المستشرق الألماني المعروف جوزيف شاختر الرافضة للحديث عن مذاهب فقهية مرتبطة بمؤسسيها قبل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وبين حضور عبارة مذهب مالك إلى جانب "مذهب المدنيين" و"أهل المدينة" في "أجوبة ابن سحنون" مما يدل على تعايش الانتماء الجغرافي والمذهبي¹. وهذا يدل على تبلور فكرة "المذهبية" بالتعبير التراثي والتي لخص الباحث مجموعة من خصائصها التي غلب عليها الطابع الدوغمائي لاعتماد الباحث على مجموعة من الآراء الحديثة (أبو زهرة- محمد الفاضل بن عاشور)، للحديث عن مالكية القرن الثالث الهجري².

انتشار المالكية بين الإرادة السياسية والمركب العرقي-الثقافي:

خصص صاحب الدراسة فصلا كاملا لما يعرف بأسباب انتشار المذهب المالكي في الغرب الإسلامي وحصرها في النقاط الآتية³:

¹ المرجع نفسه، ص 25-31،

² أنظر ص 31-36.

³ المرجع نفسه، ص 59-95.

- دور سحنون من خلال تشكيل جماعة مالكية فاعلة في إفريقية.

- إمكانية تلاؤم بعض أصول المذهب المالكي مع الواقع المغربي خصوصا في قضية المحافظة على العرف.

- دور الرحلة في طلب العلم والحج التي سهلت عملية نقل العلم إلى بلاد المغرب.

- إمكانية الاتجاه المديني المبكر لدى أهل المغرب، بسبب اتصال العنصر العربي بأرضه المشرقية.

- اتفاق المدينة والمغرب في درجة التحضر.

- بيئة إفريقية المحافظة.

- نقطة تشابه بين العرف البربري والمذهب المالكي.

- دور العامل العرقي العربي والبربري.

- التجربة الرديئة لأهل إفريقية مع الحركات الثورية الخارجية

- دور السلطة السياسية.

بالرغم من صحة العناصر التي عدد بها الهنتاتي أسباب انتشار المذهب المالكي فإن عددا منها يحتاج إلى نقاش. فلو أخذ على سبيل المثال بداوة أم تحضر أهل المغرب والحجاز، فقد تم إبعاد المفهوم الخلدوني بحجة وجود مجتمع زراعي متحضر في المدينة كما في بلاد المغرب، غير أن المفهوم الخلدوني للبداوة كنمط عيش غير مرتبط بقضية الاستقرار أو التنقل وإنما بمجموعة من عوائد الحياة. وإشارة ابن خلدون طغت عليها بدون شك تصويره للعربي الهلالي المناقض لعوائد حياة العنصر العربي الأندلسي. ونفس الانطباع يتركه عامل الجزم ببيئة إفريقية المحافظة، في مختلف الفترات التاريخية. لقد أدت السيطرة الأجنبية المتتالية لإفريقية منذ فجر التاريخ إلى هدم التركيبة القبلية في معظم مناطقها باستثناء المجتمعات الرعوية الجنوبية ورجال الأوراس وبلاد كتامة، وهذا لفائدة العنصر الوافد بما في ذلك

العنصر العربي ثم الفارسي. ولهذا فإن المذاهب التي انتشرت بها منذ القديم كانت موالية للسلطة القائمة، في حين شهدت المناطق الواقعة إلى الغرب منها نشاط الجماعات المعارضة. والمذهبان الحنفي والمالكي لا يمكن في تقديري إخراجهما من هذه الحالة.

المالكية وظاهرة الجماعات في الإسلام

تطرق نجم الدين الهنتائي في الفصل الثالث من "المذهب المالكي في الغرب الإسلامي" إلى علاقة الجماعات المالكية بالجماعات المصنفة سياسياً وفقهياً ضمن "أهل الأهواء والبدع" والجماعات السنية الأخرى. فقد أدرج ضمن القسم الأول كل من المعتزلة والمرجئة والشيعة والتوجهات الثورية الخارجية. فقد كفر سحنون المعتزلة بسبب قضية خلق القرآن، وازداد غضب الجماعة المالكية القروية بعد تعيين السلطة الأغلبية بعض القضاة المعتزلة (ابن أبي الجواد). ولمواجهة هذه الوضعية، عمد المالكية إلى أسلوب التكفير العلني لخصومهم المعتزلة والرد عليهم من خلال رسائل حاملة لخطاب أيديولوجي، واستعمال منصب القضاء لضرب "البدع". وفي النهاية كان فشل الاعتزال لعدة أسباب أرجعها الباحث إلى التعقيدات العقدية والتأويلات النظرية التي لم تلق استجابة من طرف العنصر البربري، ولكن رغم هذا فقد أحدثت التجربة الاعتزالية نقلة في الخطاب المالكي بحمله للخوض في مسائل الكلام والعقيدة والتأويل مما ساهم في تعميق الفكر السني¹.

انطلاقاً من محاولة غير دقيقة لتفسير ظاهرة الإرجاء من خلال كتب الملل والنحل المناوئة لهم، سجل الهنتائي تاريخية دخول أفكار هذا التيار إلى بلاد المغرب عن طريق بعض المحدثين من أمثال أبي عبد الرحمن عبد الله الحلي (ت 718/100)، وقد تصدرت له الجماعة المالكية من خلال بعض الكتب الموجهة².

أما عن علاقة بالمذهب المالكي بالتوجهات الفقهية السنية خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فقد تطرق الباحث إلى تشكل النواة الشافعية الأولى بالأندلس

¹ المرجع نفسه، ص 99-102.

² المرجع نفسه، ص 102-105.

بقيادة قاسم بن سيار القرطبي (ت 890/276)، لكن تلامذته تحولوا في النهاية للمذهب المالكي. كما تكونت نواة جماعة شافعية بالقيروان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بزعامة أبي عبد الله محمد بن علي البجلي (ت 926/314)، وقد سمحت كتب الطبقات المالكية من التعرف على تسعة من عناصر هذه الجماعة الفقهية. ورجح الهنتاتي "تسرب" الأفكار الشافعية إلى الغرب الإسلامي في إطار الأوساط المالكية التي لم تكن تعرف الفوارق بين المذهبين، وهذا ما أدى إلى حدوث انقلاب مالكي ضد الآراء الشافعية بإفريقية عبرت عنه مجموعة من الرسائل منها كتابا الرد على الشافعي ليحيى بن عمر وأبي بكر بن اللباد (ت 944/333). وإذا كان المذهب الشافعي لم يعرف انتشارا واسعا بإفريقية، فإنه ساهم بقوة في تنشيط الحياة الفكرية من خلال ظهور تنافس بين توجه أهل الحديث وأهل الفقه، فقد تزعم عباس ابن الوليد الفارسي التوجه الأول بينما اشتهر أسد بن الفرات بقيادة التوجه الثاني في الربع الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي¹. أما علاقة الأحناف بالمالكية فقد تراوحت بين التنافس والتعايش كما رأينا ذلك في البداية.

المالكية: من الجماعة الفقهية إلى إيديولوجية الدولة

استهل الهنتاتي حديثه عن توسع انتشار المذهب المالكي خارج إفريقية ببعض المعلومات العابرة حول تفوق المذهب المالكي في الأندلس في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمان (171-180/788-796) وهذا بعد رجوع يحيى بن يحيى الليثي من المشرق. وبدون دليل تاريخي مقنع²، ألح الباحث إلى وصول المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى في زمن الأدارسة بعد استقرار العناصر القروية والأندلسية بفاس. وتوسع مجال المذهب المالكي بالمغرب الأقصى بتحالف المجتمعات الزناتية مع بلاط قرطبة لمواجهة المشروع الفاطمي في المنطقة. وبداية من القرن الرابع الهجري، بدأت تظهر أسماء

¹ المرجع نفسه، ص 107-113.

² تم الاعتماد خصوصا على كتابات كلاسيكية غير أكاديمية بالمعايير الدولية الحالية: عباس الجراري، وعبد الهادي التازي والسلاوي وهنري تراس (Henri Terrasse).

مالكية من المغرب الأقصى قامت بالرحلة العلمية إلى المشرق والأندلس وخصوصا إلى القيروان "ابن أبي زيد"، وتشكلت تدريجيا الجماعة المالكية الفاسية بزعماء دراس إسماعيل أبو ميمونة (ت 967/357) والجماعة المالكية السبتية بقيادة ابن العجوز الكتامي (ت 1022/413). وشهد عصر المرابطين الانتشار الواسع للمالكية¹ بعد تحالف الفقهاء مع الأسرة الممتونية، وتحول الخطاب المالكي إلى خطاب إيديولوجي شمولي.

وبمعلومات قليلة شبيهة بالتي كتبت حول مالكية الأندلس والمغرب الأقصى، تطرق الباحث الهنتاتي إلى انتشار المذهب المالكي بالمغرب الأوسط، مرتكبا مجموعة من الهفوات في قراءته للأحداث التاريخية. فقد عد المجتمعات القبلية الريفية في بلاد كتامة وبلاد صنهاجة ضمن القبائل "المتشرقة" بالرغم من صراحة النصوص الإخبارية في تصوير العلاقة "الزبونية" لهذه التشكيلات القبلية بالسلطة الإسماعيلية. كما اعتبر بأن المغرب الأوسط أقل تحضرًا من المغربين الأدنى والأوسط، بسبب عدم استقرار سكانه²، وهذا يتعارض مع المعطيات التاريخية السابقة للفترتين المرابطية وخصوصا الموحدية، عندما تشكلت بالمغرب الأوسط مدن تجارية داخلية في مقابل مدن ساحلية سرعان ما اندمجت في الفضاء التجاري المتوسطي. أما عن بداية انتشار المذهب المالكي بالمغرب الأوسط، فهي تقريبا غائبة في الدراسة المقدمة ما عدا بعض المعلومات المستخرجة من البكري حول مالكية وهران وبنطوس³، ليصل إلى ترجيح فكرة انتصار المذهب المالكي بالمغرب الأوسط في العصر الزياني، اعتمادا على دراسة غير متخصصة للمرحوم محفوظ قداش⁴. لقد بينت في دراسة منشورة كيف تسللت الأفكار المالكية إلى المغرب الأوسط وكيف تشكلت الجماعات المالكية فيه في أواخر القرن الرابع

¹ المرجع نفسه، ص 127-134.

² فكرة استئجها جورج مارسى (Georges Marçais) وهي تعبر عن مرحلة ما بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

³ لتصحیح هفوة تسربت إلى نص الكتاب، بنطوس تقع ببلاد الزاب قرب بسكرة وليس قرب وهران.

⁴ الهنتاتي، المرجع السابق، ص 144-138.

الهجري وكيف تفوق بصورة واضحة بعد تحالف مع السلطة السياسية في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي¹.

على العكس مما روجت له كتب الطبقات المالكية، فقد بين الهنتائي بصورة دقيقة تفاعل فقهاء المالكية مع السلطة الأغلبية من خلال شغلهم لمناصب قضائية ودينية ومساندتهم للسلطة القائمة في أكثر من مناسبة. وسمحت هذه العلاقة من توسيع قاعدة المذهب الجغرافية والاجتماعية لتشمل المدن والرباطات والقرى أين ينتشر كبار مالكي الأرض، ويدل على ذلك الحضور الزراعي الكبير في كتب الفقه والنوازل الإفريقية. لكن هذه المكانة المالكية تراجعت في العصر الفاطمي، بعد تحول فقهاء المالكية إلى معارضين للمشروع الإسماعيلي في كثير من الأوقات، بعد أن دشنت تلك المواقف جيلة بن حمود (ت 911/299) الذي رفض الخروج لاستقبال أبي عبد الله الداعي الإسماعيلي عند دخوله القيروان. لقد شكل المشروع الإسماعيلي ما يمكن تسميته بـ "المحاولة الإصلاحية" للحياة الثقافية بإفريقية، بكسر الرقابة المالكية وتجديد الدراسات الفكرية بتشجيع تعاظم العلوم العقلية كالفلسفة والتأويل². ولعل نجاح التوجه الكلامي السني بزعامة سعيد بن الحداد (ت 915/302) في مناظرة التشيع لدليل على الانفتاح الثقافي الإسماعيلي في بدايته، غير أن سياسة أتباع المذهب المالكي والسياسة المالية القاسية للفاطمين قد طغت على الحياة العامة، وأدت إلى "التحام فعلي بين علماء المالكية والعامة". وهنا دخلت الجماعات المالكية في مرحلة مقاومة سلمية أولاً بمقاطعة السلطة الفاطمية وصلاة الجمعة في المسجد الجامع بحجة "فساد الوقت"، كما ذهب البعض إلى مقاطعة زواج وجنازات الإسماعيليين. وتميزت المرحلة الثانية من المقاومة المالكية للمشروع الإسماعيلي بالانضمام والمساندة لثورة أبي يزيد (332-336/943-947)، وقد اشتهرت أسماء مالكية في هذه الانتفاضة المسلحة من بينهم عباس الممسي، وأبي إسحاق السبائي، وأبي العرب صاحب الطبقات وربيعة القطان، وقد قضى عدد منهم في المعارك. غير أن السياسة

¹ راجع دراستنا حول "انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، قراءة سوسيولوجية" بمجلة آفاق الثقافة والتراث، 56 (2007)، ص 25-33.

² المرجع نفسه، ص 139-157.

الفاطمية سرعان ما امتصت غضب المالكية بتعيين قاض مالكي بالقيروان عام 945/334 والممثل في شخص أبي عبد الله محمد بن أبي المنصور¹.

وجاءت فرصة المالكية للعودة إلى السلطة السياسية من جديد بعد رحيل الفاطميين إلى مصر. فقد تفاعلت العائلة الزيرية مع المذهب المالكي رغم احتفاظ أمرائها في البداية بالإسماعيلية كمذهب رسمي للإمارة. وقلد تدريجيا فقهاء المالكية في المناصب القضائية، ماعدا قضاء المدينة الأميرية، صبرة المنصورية، الذي بقي بيد عائلة بني الكوفي الإسماعيلية.

ويعتبر كل من ابن أبي زيد القيرواني (ت 995/386) وأبي الحسن القابسي (ت 1012/403) من بين صانعي التفوق الثاني للمذهب المالكي، فقد اعتبر الهادي روجي ادريس ابن أبي زيد بمثابة "الصانع الأكثر نجاعة لتحقيق الانتصار النهائي للمذهب المالكي الإفريقي". وجاء عهد الأمير الشاب المعز بن باديس بمعطيات جديدة نتيجة تقرب هذا الأخير من الأوساط المالكية عن طريق مريه أبي الحسن بن أبي الرجال، لتفتل الأمور في عهده بعد تقتيل العامة بقيادة بعض فقهاء المالكية لأتباع المذهب الإسماعيلي في معظم مدن إفريقية، خصوصا بعد فتوى محرز بن خلف (ت 1022/413). وبعد ترددات السلطة السياسية الباديسية تم الحسم لصالح تكفير "الروافض" وتنظيم حملات قتل جماعي مهدت لإعلان القطيعة السياسية والمذهبية مع القاهرة الفاطمية في بداية سنوات الأربعينات من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وبهذا استعملت المالكية في إفريقية كأيدولوجية لتبرير سلطة قبلية قائمة على القهر والغلبة بعدما تركت مهدها الأول في جبال التيطري بالمغرب الأوسط. وقد نفى الهنتاني الرواية المشرقية الواردة في كتب ابن الأثير وابن خلكان والتي تقول بغالية المذهب الحنفي بالمغرب إلى غاية إعلان المعز لدين الله القطيعة مع القاهرة، لتعارض ذلك مع المعطيات التاريخية². ومن جهتي أقول بأن مصدر الرواية المشرقية هو عز

¹ المرجع نفسه، ص 158-170.

² المرجع نفسه، ص 171-184.

الدين بن شداد الصنهاجي، المنحدر من العائلة الأميرية البادية، والذي رحل إلى دمشق وأصبح أميراً للعساكر في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وجمع كتاباً في الأخبار عام 1200/597، تحت عنوان "الجمع والبيان في أخبار القيروان وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيان"، وهو التأليف الذي أراد به إبراز دور البيت الباديسي في نشر المذهب السني المالكي والدور الجهادي الموحد في القضاء على النورمان بإفريقية وتقتيل العنصر اليهودي والمسيحي مع كثير من المبالغة لإرضاء الجمهور الدمشقي في فترة ذروة الجهاد ضد الإفرنج¹.

التبلور والتطور العقدي والفقه للمالكية الغرب الإسلامي

جاء الفصل الأخير من دراسة نجم الدين الهنتاتي ليدرس تطور المذهب المالكي من الناحيتين العقدية والفقهية وهو الفصل الأكثر تعمقاً من ناحية القراءة التحليلية للنصوص الفقهية والأكثر اتساعاً من الناحية الجغرافية، لتتبعه مراحل تدوين الفقه المالكي انطلاقاً من المدينة ووصولاً إلى قرطبة.

فمن الناحية السياسية والعقدية، لاحظ الهنتاتي وجود "نوع من الميل إلى الأمويين لدى مالكية إفريقية في العهد الأغلبي" وفسر هذا بأنه ربما شكل من أشكال المعارضة اللاشعورية للعباسيين، الذين جلد في عهدهم الإمام مالك. ومن الناحية العقدية، مر المذهب المالكي بثلاث مراحل أساسية، تميزت الأولى بامتناع علماء المالكية عن الخوض في المسائل الكلامية، وفي المرحلة الثانية هناك من سعى إلى الخوض في هذه المسائل خصوصاً محمد بن سحنون. أما في المرحلة الثالثة، فقد كان هناك تعاظم مع المسائل الكلامية وتبني للمذهب الأشعري منذ أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، خصوصاً من طرف ابن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن القابسي بالنسبة لإفريقية وأبي

¹ أنظر علاوة عمارة، "ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط" التاريخ العربي، 22، (2002)، ص 27-

الوليد الباجي في الأندلس. وقد سمح تبني الأوساط المالكية للمذهب الأشعري من توفير نظرية متكاملة للدفاع عن مذهبهم من الناحية العقدية¹.

لقد اتفق معظم الدارسين على أن الفقه الإسلامي عرف عملية تطورا منذ نشأته، اختلف كثير منهم في التعرض لأهم مراحلها. وقد تبني الباحث تقسيم محمد الفاضل بن عاشور مع بعض التعديلات.

تشكل كتابة ورواية الموطأ المرحلة الأولى من تأصيل الفقه المالكي والتي استغرقت قرابة الأربعين سنة، وقد كتب مالك الموطأ ودرسه ووصلت ثمانية من رواياته العديدة، لكن أهمها هي رواية يحيى بن يحيى الليثي (ت 948/234) ورواية محمد بن الحسن الشيباني الحنفي العراقي (ت 804/189)، مع وجود كما هو معروف اختلافات كثيرة بين الروایتين لدمج الشيباني لعدد من الأحكام الفقهية الحنفية في الكتاب. أما رواية الليثي فهي مالكية خالصة. وقد أخذ الأفارقة في البداية برواية علي بن زياد ثم اعتمدوا على روايتي ابن القاسم والليثي.

تميزت المرحلة الثانية بالتوسع في جمع فروع المذهب المالكي بتدوين مسائله الفقهية. فقد قام علي بن زياد بتأليف كتاب "خير من زنته"، ثم سار تلميذه أسد بن الفرات (ت 828/213) في "الأسدية"، ومن بعده سحنون في "المدونة". وفي الأندلس، ألف عبد الملك بن حبيب (ت 853/238) "الواضحة" وألف محمد العتيبي (ت 869/255) "المستخرجة" التي عرفت فيما بعد بالعتيبة. وفي غالب الأحيان يزيح التأليف الثاني سابقه مثل إزاحة المستخرجة للواضحة، والمدونة للأسدية. ثم جاء كتاب "النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات" لابن أبي زيد القيرواني الذي جمع مسائل فقهية تعود إلى فترة تأسيس المذهب، إضافة إلى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بمعنى رجوع إلى الوراء لجمع الفروع وتدقيق آراء المذهب².

¹ الهنتاتي، المرجع السابق، ص 185-186.

² المرجع نفسه، ص 193-213.

وعرف عن المرحلة الثالثة بدور تبسيط المذهب وشرحه واختصاره بفضل خصوصاً "رسالة" ابن أبي زيد القيرواني والعديد من المختصرات الأخرى التي سجلت توقف "الاجتهاد" وبروز ظاهرة التقليد. ومن بين الشروح والتعليقات خلال فترة الدراسة، نشير إلى تعليق السيوري (ت 1067/460) على المدونة. كما سجل هنا هنتاتي تباطأ المالكية المغربية في استعمال المنهج الأصولي مقارنة بالشافعية خلال القرون الخمسة الهجرية الأولى¹.

المذهب المالكي في الغرب الإسلامي: دراسة تركيبيه مرجعية

لقد جاءت دراسة نجم الدين هنتاتي لتجمع ما كتب حول المالكية في الغرب الإسلامي، بتعمق في الكثير من المسائل واستغلال جل الدراسات المتوفرة ومعظم النصوص التراثية. وهي تقدم للباحث مرجعاً علمياً متكاملًا بالرغم من الطغيان الواضح للمالكية إفريقية في الكتاب. بل يمكن القول بأن الكتاب بني أساساً على نظرة سنية مالكية حنينية لانطلاق الباحث في تحليله من نصوص أدبية مالكية متأخرة لا يمكن فصلها عن الوسط السياسي والإيديولوجي الذي كتبت فيه. ولم تستغل النصوص الإخبارية وحتى النصوص المصدرة للجماعات المناوئة "لأهل السنة والجماعة" كالإباضية الوهبية والإسماعيلية، فقد كان حضورها هزيل.

وتحتاج الدراسة من جهة ثانية لقراءة للنصوص الغير مستغلة جيداً في هذه الدراسة خصوصاً النوازل التي وصلتنا وكذلك بعض المؤلفات المهمة في دراسة تطور النظام الفقهي المالكي في الأندلس والمغرب ككتابي أبي جعفر بن نصر الداودي (ت 1011/402) على سبيل المثال.

إن الدراسة المقدمة في هذه الصفحات تستحق كل الشكر والتقدير والاحترام وسيجد فيها القارئ نظرة شاملة وعلمية لجانب مهم من التاريخ الديني والاجتماعي للغرب الإسلامي الوسيط.

¹ المرجع نفسه، ص 214-222.

الملك سيفاقس والكيان العسكري النوميدي

أ.د. محمد الصغير غانم

جامعة منتوري - قسنطينة

اختلف المؤرخون حول تاريخ بداية حكم الملك سيفاقس (Syphax)، حيث أن البعض يعيده إلى سنة 220 ق.م.، ويرجعه البعض الآخر إلى سنة 218 ق.م.، غير أننا لا نستطيع أن نتناول سيفاقس إلا من خلال علاقاته السياسية والعسكرية بجيرانه النوميديين الشرقيين والقرطاجين، وكذا الرومان¹، ذلك لأننا نجهل ميلاد وطفولة هذه الشخصية النوميديّة الهامة التي حاولت خلال حكمها الملكي أن تحفظ التوازن بين القوتين المتصارعتين حينذاك على حيازة الحوض الغربي للبحر المتوسط، وأن تحد من جموح الأمير ماسينيسا للارتقاء في أحضان الرومان في بداية الأمر.

ومن جهته، يذكر المؤرخ الإغريقي "بوليبوس" (Polybius) أن القائد القرطاجي "حنبل" كان قد اعتمد أثناء بداية الحرب البونية الثانية على تجنيد المرتزقة من المازسيليّين الذين كانوا تحت تاج الملك سيفاقس، وكانوا يمثلون زهرة جيشه في إسبانيا وفي شمال إيطاليا، ولولاهم لما استطاع أن يسجل انتصاراته الكبرى في المنطقة لمدة تقارب سبعة عشر سنة، وأن ينفرد بحصار مدينة روما لأول مرة في التاريخ².

استطاع الملك سيفاقس بذكائه ودهائه السياسي أن يجمع القرطاجيين والرومان في أول مؤتمر دولي شهده القرن الثالث قبل الميلاد حول تقرير مصير الحوض الغربي للبحر المتوسط، وذلك في مدينة "سيجا" (Siga) عاصمة مملكة نوميديا الغربية، وذلك سنة 206 ق.م.

¹ Camps (G., Massinissa ou les débuts de l'histoire, Imprimerie officielle, Alger, 1961, P.168.

² Polybius, Histoire, texte traduit et présenté par Roussel des Bruges, Belgique, Gallimard, 1970, III, 33, 15.

كما حاول سيفاقس من جهة أخرى أن يناصر القرطاجيين على الرومان ذلك لأنه أدرك مسبقا بأن مصير بقاء مملكته مرتبط بانتصار الأولين (القرطاجيين) على الآخرين الذين بدأت أطماعهم تمتد إلى شمال إفريقيا.

وكان سيفاقس يعتبر القرطاجيين حلفاءه الطبيعيين من حيث الامتزاج الثقافي، وكذا التسلسل الحضاري الذي تعود بذوره الأولى إلى وصول الفينيقيين للحوض الغربي للبحر المتوسط، وتأسيس المستوطنات الباكرة على كامل امتداد سواحل المغرب القديم ابتداء من خليج السيرت شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا.

– مملكة نوميديا الغربية :

كانت أول أخبار وصلتنا عن مملكة المازسيل تعود إلى حوالي 213 ق.م. حيث يذكر "بولوبيوس" بأن القرطاجيين كانت تربطهم صداقة متينة مع الملك "سيفاقس" قبل هذه الفترة، وأن المازسيليون كانوا يكونون جزءا كبيرا من الجيش القرطاجي في إسبانيا وبلاد المغرب القديم¹.

أما "سترابون" فيشير إلى أن أراضي قبائل المازسيل كانت تمتد من حدود القبائل المورية غربا، والتي يفصلها عنها نهر الملوشة (الملوية) وتنتهي حدودها الشرقية عند "رأس تريتون"² (Cap Treton).

وقد كان هدف قرطاجة من وراء ربط صداقتها مع الملك سيفاقس هو المحافظة على استمرار الاتصال بجيوشها في إسبانيا عن طريق هذا الجار القوي.

– سيفاقس والدولة القرطاجية :

يشير "تيتيوس ليفيوس" بأن علاقة الصداقة بين قرطاجة ومملكة سيفاقس لم تستمر على ما هي عليه، بل حصل هناك خلاف بين الدولتين أدى إلى وقوع حرب

¹ Polybius, III, 33, 15

² Strabon, XVII, 3, 9. ;sell (S.), Atlas Archéol. De l'Algérie, ... Feuille 8 N° 29.

بينهما من جراء انحياز قرطاجة إلى جانب الملك "جايا" (Gaia) ملك نوميديا الشرقية¹.

ولم يستمر الخلاف المشار إليه لفترة طويلة، ذلك لأن قرطاجة كانت قد أدركت خطأ سياستها تجاه الملك سيفاقس الذي بدأ يميل نحو أعدائها الرومان، فعدلت خطتها السياسية تلك وتراجعت عن مساعدة ملك الماسيل، وأكثر من ذلك اقتربت أكثر من سيفاقس فزوجته بالأميرة القرطاجية "سوفونيزبه" (Sophonisbe) التي أصبحت تشاركه الحكم².

وقد حاول سيفاقس بعد ذلك أن يحسن إلى قرطاجة، فأعاد لها الأملاك التي اقتطعها منها "جايا" أثناء حروبه معها وذلك سنة 220 ق.م.، ثم حاول من جهة أخرى أن يتوسط بينهما وبين روما في النزاع القائم بينهما³.

إن نجاح سيفاقس في وساطته تلك، كان يتطلب منه أن يحافظ على التوازن بين الدولتين اللتين كانتا تتسابقان على كسب تحالفه، وذلك لأهمية مكانة دولته جغرافياً، حيث كانت تتوسط بين شبه جزيرة أيبيريا والمنطقة التي سيختارها الرومان لمعاركهم الأولى بغية إرغام حنبعل للعودة إلى شمال إفريقيا⁴.

¹ Tite-Live, XXIV, 48 - 49.

² ركز المؤرخون الأجانب على زواج سوفونيزبه من الملك سيفاقس وجعلوه من بين المواضيع التي كانت تحرك ماسينسا للانتقام، كما سئلوا لسوفونيزبه أدواراً خطيرة في توجيه الحرب ضد الرومان والملك ماسينسا، إلى غير ذلك من الافتراضات والحجج التي تجرد الملكين ماسينسا وسيفاقس من مسؤوليتهما كممثلين لقبيلتين كانتا تتصارعان على الحدود بينهما والسيادة على بلاد المغرب القديم منذ أن وجدتا. غير أن أهدافهما كانتا تلتقيان في رفع شعار "إفريقيا للأفارقة" ولتمثل قضية الزواج من سوفونيزبه إلا الجانب العاطفي في الموضوع الذي لا يصمد أمام الأهداف السامية التي عاش من أجلها العاهلين والمتمثلة في الدفاع عن التاج والأرض.

³ Gsell (S.), H. A. A. N., T.III, P.186.

⁴ محمد الصغير غاتم، علاقة نوميديا بالرومان، مجلة التراث، عدد 2، مطبعة الشهاب، باتنة، ص. 13-15.

- سيفاقس يتوسط بين القرطاجيين والرومان :

حتى يصل سيفاقس إلى حفظ التوازن المطلوب، لا بد أن يكون ملما بما يجري في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ثم يتصرف بعد ذلك وفقا لمنظور واضح مبني على المعطيات السياسية و العسكرية المتوفرة في المنطقة، سواء أكان ذلك بالنسبة للحاضر أو المستقبل معتبرا نشوب الحرب في شمال إفريقيا بمثابة كارثة ستضرب مستقبلها بما في ذلك مملكته¹. ويبدو أنه تنبأ بخطر نزول الجنود الرومان بالمنطقة، لاسيما إذا كانوا تحت قيادة ذلكم الرجل الذي هو "سييون بوبيليوس" (Scipion Publius) الذي لا ينقصه الدهاء السياسي وحك الخطط العسكرية في تحقيق أهداف الرومان².

بناء على ما سبق، فإن أمن شمال إفريقيا في رأي سيفاقس بات مهددا وأن الممالك النوميديّة والموريتانية ستدفع ثمن الاصطدام العسكري بين قرطاجة وروما على أرض إفريقيا إن عاجلا أو آجلا³.

وفي الطرف الروماني شجعت انتصارات "إليبا" (Ilipa) بإسبانيا الرومان على الماضي في الاستيلاء على المجال القرطاجي، لكن هذه المرة فكروا في نقل الحرب إلى شمال إفريقيا، وبذلك كان عليهم أن يجدوا مؤيدين وأتباعا في المنطقة نفسها يعتمدون عليهم في شل حركة القرطاجيين في عقر دارهم⁴.

وفي هذا الصدد، يذكر المؤرخ الروماني "تيتيوس ليفيوس" (Titius- Livius) بأن الملك سيفاقس كان قد اتصل بالرومان عن طريق إرسال سفراء لهم، وقد رحب مجلس الشيوخ الروماني بذلك محاولة منهم إيجاد حليف لهم في شمال إفريقيا، ولذلك

¹ محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 16.

² Decret (F.) et Fantar (M.), Op.Cit., P. 98.

³ Tlatli (S.), Op.Cit., P.283.

⁴ Brison (J.P.), Carthage ou Rome, éd.Fayard, Paris, 1973, P. 267.

نراهم يكلفون ثلاثة نواب من المجلس يحملون هدايا للملك المازسيلي، تمثلت في معطف أرجواني اللون ومقعد من العاج وكأس من الذهب يزن خمسة أرتال، وبعض الهدايا الأخرى التي كان البعض منها موجهًا لشخصيات مازسيلية كانت تعمل في حاشية الملك¹.

ومن جهته، عمل سيبون الذي كان يعسكر في شبه جزيرة أيبيريا والذي يعتبر مهندس نقل الحرب إلى شمال إفريقيا على الاتصال بالملك سيفاقس وكسب صداقته، ولذلك نراه يرسل له قائده "لايوس" (Laelius) ليفاوضه في مد عرى الصداقة للرومان والوقوف إلى جانبهم ضد القرطاجيين².

— مؤتمر "سيقا" الدولي لسنة 206 ق.م. :

لقد اشترط سيفاقس على المبعوث الروماني أن يلتقي بالقائد الروماني سيبون نفسه. ومن أجل ذلك انتقل سيبون إلى مدينة "سيقا" (Siga) عاصمة سيفاقس والواقعة على نهر "التافنة" ملبياً الطلب ما دام الأمر يهم مصلحة الرومان³.

وفي نفس المدينة المشار إليها آنفاً، والتي لا تبعد عن ساحل البحر المتوسط إلا بمقدار 4 كلم، التقى القائد الروماني سيبون بالقائد القرطاجي "صدر بعل بن جيسكون" الذي حل في نفس الوقت بها⁴. هل كان ذلك من قبيل الصدفة؟ أم أن سيفاقس كان قد رتب مسبقاً لذلك اللقاء مع القائد القرطاجي؟.

¹ Zonaras، IX، 10.؛ Titius Livius، XXVIII، 17.

² محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ص 18 - 19.

³ Strabosa، Géographie، XVII، 39.؛ Plinie l'Ancien، V، 19.

⁴ Vuillemot (G.)، Reconnaissance aux Echelles Puniques d'Oranie، Autien Vausee Rolin، 1965، P. 45.

المهم أن القائدين الروماني "سيبيون" والقرطاجي "عزربعل" كانا قد التقيا في ضيافة الملك سيفاقس، وقد تفاوض الثلاثة في شؤون إنهاء العداوة التقليدية والحرب الدائرة بين روما وقرطاجة على السيادة على البحر المتوسط¹.

غير أن القائد الروماني سيبيون صرح لمحاوريه بأنه لا يكن أية عداوة شخصية للقائد القرطاجي صدر بعل، لكنه لا يستطيع البت في قضية يعود الحل والعقد فيها لمجلس الشيوخ والشعب الروماني، وبذلك تفرق الجميع دون إيجاد حل لتلك الحرب التي أقلق الجميع².

وفي الحقيقة، كان سيفاقس يدرك ويلات تلك الحرب إذا انتقلت إلى شمال إفريقيا. كما أنه كان يقدر قوة العدوين المتصارعين قرطاجة والرومان وعلاقة ذلك بمملكته المحايدة حتى تلك الفترة من سنة 206 ق.م.، وبذلك كان يحاول جاهدا أن ينهى ذلك النزاع عن طريق التفاوض والمصالحة وهي أسمى الطرق في رأيه³.

وتجدر الإشارة، إلى أن شخصية الملك سيفاقس كانت تتصف بالرزانة وحصافة النظر للأشياء، وتغليب العقل على العاطفة في كثير من الأحيان. وقد ورد ذكر اسمه في النصوص القديمة⁴. كما أشير إليه في النقوش البونية على الشكل الآتي: (س ف ق ه م ل ك ت) وتعني سيفاقس الأمير أو الملك أو مملكة سيفاقس⁵. (أنظر الشكل الموالي).

¹ Gsell (S.), H.A.A.N., T, III, PP. 184 - 187.

² Polybius, Xi , 24. ; Titius Livius, XXVIII, 18, 7; Appian Iber, 30.

³ Titius Livius, XXVIII, 18, 12 .; XXIX, 36, 24, 3 ; Appian Iber, lib., 10 et 27.

⁴ Polybius XVI, 23, 6. ; Diodore de Sicile, XXVII, 6.; Titius Livius, XXIV, 48.

⁵ Mazard (J) ., Corpus Nummorum, Numidie Mouritanique, éd. arts et Métiers Graphiques, Paris, 1955 , PP. 18 - 20.

وقد كان نموذج الدولة الذي يسعى الملك سيفاقس لتطبيقه في مملكته، هو تقليد المؤسسات الدستورية القرطاجية وإضفاء الطابع الهلينيستي من حيث المظهر، لاسيما فيما يخص الملك شخصا الذي كان دوره يتسم بالحكمة والتعقل اللذين يتصف بهما رؤساء القبائل في نوميديا حينذاك، ولعله يتفوق عليهما بالدهاء السياسي ومرونة ربط العلاقات مع جيرانه الأقوياء.

- سيفاقس يوحد نوميديا لأول مرة :

طبق سيفاقس نظام اللامركزية من حيث التنظيم الإداري في مملكته بعد توحيدها، حيث كانت عاصمتها "سيقا" على فخر "التافنة" بالغرب الجزائري و"سیرتا" على "وادي الریمال" بالشرق الجزائري، تسيران من قبل موظفين ساميين محليين يعينهم الملك بالإضافة إلى مجالس شبه قبلية ورجال دين، ثم جباة ضرائب وضباط في الجيش، يشترط في الجميع أن يكونوا موالين للملك¹.

عمل سيفاقس على سك عملته الخاصة في مدينة سيقا، وكان له بها معمل خاص لضرب العملة .

وفقا لما ورد في صورة العملة التي سكّت في فترة الملك سيفاقس، فإن هذا الأخير يظهر برأس غير متوج وبشعر قصير مجعد ولحية تأخذ شكلا حادا.

وبالعكس هناك قطع نقدية تظهر رأس الملك المتوج وشعره تعتريه التجاعيد ولحيته تأخذ شكلا دائريا. وقد كتب على وجه إحدى القطع المشار إليها بالحروف البونية حروف (س ف ق هـ م م ل ك ت) (S P H Q H M M L K T) وهي تعني الملك سيفاقس أو مملكة سيفاقس².

¹ Appian Lib., 10 .

² Mazard (J.), Corpus Nummarum Numidae Maurétanique, Paris, arts et Métiers graphiques, 1955, PP.20 - 21 , N° 10 - 12.

وبدوره، يعتقد المؤرخ "ج. كامبس" أن اسم الملك سيفاقس مأخوذ من اسم الإلهة "سوفاكس" (Sophax) ابنة الإله "هرقل" (Herculus) ^(١).

كما أن عاصمته سيقا على نهر التافنة وسيرتا على وادي الريمال كانتا تمثلان عصب الحياة في المملكة النوميديّة، حيث كان يستقبل فيهما السفراء والمبعوثين الخاصين ورؤساء الدول الذين كان يتعامل معهم. كذلك كان يلتقي فيهما برؤساء مقاطعات المملكة من أمراء ورؤساء قبائل، حيث كان يزودهم بالتعليمات الضرورية لتسيير شؤون المملكة ².

نتيجة لسياسة التعقل التي كان يتصف بها الملك سيفاقس، ازدهرت الدولة النوميديّة الغربيّة واتسعت رقعتها بعد أن بدأت تميل إلى القرطاجيين في صراعهم مع الرومان.

وحتى يضمن سيفاقس وقرطاجة نجاح مخططهما ضد الرومان، كان عليهما أن يعملوا معا للحد من نشاط ماسينيسا في المنطقة والحيلولة دون تقربه من الرومان، وهو ما بدا لهم مصدر خطر وعنصرا نشيطا يمكن أن يستغله سيبون بوبيلوس في الوصول إلى أهدافه ³.

إن حذاقة ماسينيسا وكفاءته في قيادة الحرب ونوعيته كرجل مغامر بالإضافة إلى فروسيته المتميزة وطموحه للوصول إلى الحكم، كل تلك الأشياء جعلت سيفاقس وقرطاجة يتخوفان من انضمامه إلى القائد الروماني. كما كانا يهدفان إلى خلق عراقيل وصعوبات حمة أمام الجيوش الرومانية التي يقودها سيبون، وذلك حتى يتلقى جيشه

^(٢) - لعل تسمية هرقل التي أوردها كامبس أعلاه تشير إلى الإله ملقارت السوري الفينيقي، ذلك لأنه غالبا ما يقارن هذا الأخير في الميتولوجيا الإغريقية الرومانية بالبطل هرقل (Herculus).

¹ Camps (G.), Op.Cit., P. 293.

² Titius Livius, XXVIII, 17.; polybius, XI.; Gsell (S.), Atlas Archéol. Feuille N° 3, N°1. ;Gsell (S.), H. A. A. N., T.III, P.186.

³ Grimal (P.), Le siècle des scipions Rome et l'hellénisme au temps de guerres puniques, éd. Montagne, Paris, 1975, PP. 320 - 324

نفس المصير الذي لقيه جيشا حملتا القائدين الإغريقي "أجاثوكليس" (Agathocles) والروماني "ريغولوس" (Régulus) في غزوهما لشمال إفريقيا قبل ذلك¹.

- التحالف بين قرطاجة وسيفاقس:

بعد لقاء "صدر بعل بن جيسكون" والملك سيفاقس مرة ثانية في سيقا ودراستهما لنتائج المؤتمر الدولي لسنة 206 ق.م. حول تقرير مصير الصراع التقليدي بين روما وقرطاجة وبداية تحركات ماسينيسا بعد وفاة والده جايا محاولا الوصول إلى كرسي العرش، والذي من أجله بدأ يقترب من الرومان².

كل تلك المعطيات التي أشرت إليها آنفا، أفضت إلى إمضاء اتفاقية بين القرطاجيين والملك سيفاقس التزم فيها هذا الأخير، بأنه في حالة مهاجمة الرومان لشمال إفريقيا، فإن الجيش المازسيلي سيحارب إلى جانب القرطاجيين³.

ومن جهتهم، قرر القرطاجيون تزويج الملك "سيفاقس" بالأميرة "سوفونيزبه" بنت "صدر بعل" التي خطبت قبل ذلك إلى الأمير ماسينيسا عندما كان ضابطا في الجيش القرطاجي بإسبانيا⁴.

وقد عد المؤرخون المحدثون ذلك الزواج بأنه زواج سياسي أكثر منه عاطفي، كما أنه يعد من جهة أخرى تحليا عن ماسينيسا من قبل القرطاجيين وإيدانا منهم بإطلاق يد سيفاقس في نوميديا الشرقية⁵.

وبموجب الاتفاق المشار إليه، أرسل سيفاقس سنة 204 ق.م. مبعوثين للقنصل الروماني سيبون الذي كان يعسكر في "سيراكوزة" (Syracuse) بصقلية يعرضان

¹ Walter (J.), La Destruction de la Carthage éd. Albin Michel, 1947, PP. 94 et 179- 188.

² محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص. 17.

³ Brison (J.P.), Carthage ou Rome, éd. Fayard. , Paris , 1973, P. 277.

⁴ محمد حسين فنطر، يوغرطة، الدار القومية للنشر، 1970، ص. 68.

⁵ Berthier (A.), La Numidie, Rome et le Maghreb, ..., PP.34 - 35.; Gsell (S.), H.A.A.N., T.III, P185.; Tite -Live, XXVI, 17, 12- 16.

عنه المفاوضات السلمية بين القرطاجيين و الرومان، و يخبرانه أنه في صورة ما إذا نقل الرومان الحرب إلى شمال إفريقيا، فإن جيوش الملك سيفاقس ستحارب إلى جانب القرطاجيين ضد الرومان¹.

غير أن القائد الروماني سيبون لم يعبأ بذلك، فقد أرسل حملة تمشيطية قادها أحد ضباطه النشطين و المغامرين، ألا وهو القائد "ليليوس" (Lalaeus) لجس النبض.

نزلت تلك الحملة بالقرب من بونة (عنابة الحالية) بالجزائر، وقد اتصل بقائدها الأمير ماسينيسا، بحيث رتب مع القائد الروماني ليليوس قصد التمهد لتزول الحملة الرسمية التوسعية ذات البعد الاستعماري التي سيقودها القائد الروماني سيبون نفسه إلى شمال إفريقيا، حيث نزلت جيوش تلك الحملة بالقرب من رأس "أبولون" (Appolon)، وهو ما يعرف حاليا برأس "سيدي علي المكي" شرقي خليج تونس، ثم حاصرت بعد ذلك مدينة "أوتيكا" (Utique) القرطاجية².

- سيفاقس يصطدم بماسينيسا لأول مرة :

عندما اشتدت إيذاعات ماسينيسا لقرطاجة وحلفائها في ماسيليا (نوميديا الشرقية)، كلفت الملك سيفاقس بحكم المصاهرة والتحالف لرد تلك الاعتداءات، ونظرا لانشغالها أيضا بالحرب الرومانية البونية الثانية بين روما و قرطاجة، فقد أوعز الملك المازسيلي سيفاقس لقائده "بوكار" (Bucar) بتنفيذ المهمة بعد أن زوده بفيالق من المشاة والفرسان³. وما هي إلا أيام معدودة حتى شنت جيوش سيفاقس جنود ماسينيسا، ولم ينج من تلك المناوشات إلا ماسينيسا بعد أن أصيب بجراح بليغة، مما جعل بوكار يعتقد أن ماسينيسا قد هلك،

¹ Titius Livius , XXIX, 23, 7, 10.

² Ibid, XX, X, 34, 3.

³ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمد المزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969،

وبذلك أخبر سيفاقس ب وفاة غريمه، ثم انتشر الخبر الخاطئ بعد ذلك في كامل أنحاء نوميديا¹.

وكان ماسينيسا قد تستر عدة أيام حتى التأمت جراحه، ثم عاد إلى حرب العصابات بعد ذلك فاحتل المنطقة الواقعة بين عنابة وسيرتا، ثم بدأ يزحف نحو الغرب².

لما رأى سيفاقس أعمال ماسينيسا تلك و تهديداته المتكررة، استعد للأمر وكلف ابنه "فارمينا" (Vermina) بمباغطة جنود ماسينيسا من الخلف، ثم هاجمه هو بجيوش كبيرة من الأمام، مما جعل ماسينيسا يفقد كل ما يملك من جنود ويفر مع زمرة قليلة من مرافقيه إلى الأقاليم البعيدة من خليج السيرت بليبيا الحالية، ويبقى هناك يتحين الفرص دون يأس أو قنوط³.

أعود للملك سيفاقس، فأقول بأنه مهما تكن الأسباب التي جعلته يتردد في اتخاذ موقف مؤيد أو معارض لذلك الصراع الذي شب بين القوتين المتصارعتين، فالذي لا شك فيه أن العاهل النوميدي كان يبحث عن إيجاد حل ملائم للمشكل الذي يعترض قرطاجة دون أن يسعى إلى علاقه مع الرومان، وذلك وفقا لما جرت عليه العادة منذ سنة 213 ق.م، وهو التاريخ الذي اتصل فيه لأول مرة بقائد الجيش الروماني سيبون في إسبانيا⁴.

هذا قبل نقل الرومان الحرب إلى شمال إفريقيا. أما بعد ذلك فقد أصبح الوضع يحتم عليه أن يتخذ القرار الحاسم. وفعلا فقد اختار الجانب القرطاجي الذي كان مصير بقاء مملكته مرتبطا به إلى حد بعيد.

— الملك سيفاقس يدرك حجم الخطر الروماني :

أدرك الملك المازسيلي سيفاقس حجم الخطر الفعلي الذي بات يهدد المنطقة بما فيها مملكته، ولذلك نراه يبادر بالتوجه إلى معسكر القائد الروماني سيبون الذي كان يعسكر

¹ Camps (G.), Massinissa, ..., P.168.

² Appian, Lib. II, 12 ;

³ Appian, Op.Cit., 13.

⁴ Warmington (B.A.), Op. Cit., P.240.

بالقرب من أوتيكا عارضا عليه التفاوض مع القرطاجيين شريطة أن يطلب مجلس الشيوخ القرطاجي من القائد حنبعل الانسحاب من شبه جزيرة إيطاليا التي كان يربط بها حينذاك¹.

ومقابل ذلك يعود القنصل الروماني بجيوشه إلى بلاده². وقد حاول سيبوني الإفريقي³ من جهته أن يقنع الملك النوميدي سيفاقس بالعدول عن مناصرته للقرطاجيين، غير أنه لم يفلح في ذلك. وكعادته أرجع بوليبيوس سبب فشل سيبوني في عدم إقناع سيفاقس إلى قوة شخصية زوجته الأميرة سوفونيزبه ومدى تأثيرها على زوجها الذي كانت تشاطره الحكم ضمنا⁴.

غير أن ذلك يمكن أن يكون من باب المبالغة أو من تفسير المؤرخين المحدثين الذين كانوا يحقدون على القرطاجيين والملوك النوميدين، وهكذا فإنه عشية معركة السهول الكبرى التي يدخل فيها سيفاقس الحرب لأول مرة إلى جانب القرطاجيين ضد الرومان، كانت مملكة نوميديا بجزأياها الغربي والشرقي موحدة تحت لواء الملك سيفاقس، وكانت حدودها تمتد من نهر الملوية (ملوشة) غربا حتى أملاك الدولة القرطاجية شرقا.

غير أن ذلك لم يدم طويلا، بحيث أنه بعد معركة سيراتا سنة 203 ق.م. وإلقاء القبض على الملك سيفاقس، ثم اقتياده و القضاء عليه بروما تعود المملكة للتقسيم والحروب من جديد بين شطريها الغربي والشرقي. وتستمر الأمور على ذلك حتى يوحدتها من جديد الملك ماسينيسا⁴.

نستخلص من هذه المحاولة السريعة المبسطة، أن دور الجزائر كان رائدا في المحافل الدولية بغية تحقيق السلم بين الأمم و الشعوب وإنهاء الصراعات منذ القديم، ولذلك لا

¹ Gsell (S.), H. A. A. N., T, III, PP. 222 - 223.

² Polybius, XXXVII. A.c.

³ - عرف بالإفريقي نتيجة نقله الحرب الرومانية إلى شمال إفريقيا.

⁴ Ibid, XXXVII, a. c.

⁴ Titius Livius ,XXIII ,17 ,16.; Piganiot (A.) ,La Conquête romaine ,Paris ,1942 ,P.579.

- هناك من يعيد وفاة سيفاقس بروما إلى سنة 202 ق.م.، لمزيد من المعلومات أنظر،

نستغرب أن يعقد على أرضها مؤتمر سيقا الدولي سنة 206 ق.م.، بغية تحقيق السلم في الحوض الغربي للبحر المتوسط بين روما و قرطاجة تحت رعاية وقيادة الملك سيفاقس، الذي كان ينظر إلى ذلك الصراع بعين و فكر السياسي المخنك الذي لم تغب عنه عواقب الأمور إذا استمر الأمر على ما هو عليه .

وقد أثبتت الأحداث المتعاقبة فيما بعد بين قرطاجة و روما صدق تكهنات العاهل النوميدي سيفاقس، حيث نقل الرومان الحرب إلى شمال إفريقيا وارتكبوا جريمتهم ضد الإنسانية، المتمثلة في تدمير و حرق مدينة قرطاجة وإبادة سكانها عن بكرة أبيهم سنة 146 ق.م.، تلك المدينة التي اعتبرت بمثابة "فلوجة" منتصف القرن الثاني ق.م.

وهكذا نرى أن التاريخ كثيرا ما يعيد نفسه وأن الاختلاف سوف لن يكون إلا في الزمن و المسرح و الممثلين.

دور الشيخ العلامة أحمد العبيدي في الجهاد العلمي

أ.عاشوري قمعون

المركز الجامعي بالوادي

مقدمة:

الشيخ العلامة. الفقيه. الأصولي. النظار. المجتهد. اللغوي. الحجة. المتصوف. العارف. أحد أعلام وادي سوف الذي ساهم حسب طاقته وما توفر له من ظروف، في حركة التربية والتعليم والوعظ والإرشاد، الأستاذ الإمام أحمد العبيدي شقيق وتلميذ الشيخ الطاهر الذي درس بجامع الزيتونة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس، فمن هو الشيخ أحمد هذا؟ وما مقدار المساهمات التي شارك بها في بناء صرح العلم والتوجيه الديني بمسقط رأسه، وبقرية تقديدين بجامعه؟

مولده ونسبه:

ولد العلامة أحمد العبيدي، أو سيدي بدّه كما يلقبه تلاميذه وأصحابه بالوادي خلال عام 1306هـ / 1888م بناحية أولاد أحمد بالوادي¹، وينتمي إلى أسرة فقيرة، حيث كان أبوه صاحب عيال، يمارس حرفة الحدادة للحصول على قوت يومه، ويدعى لعبيدي أو بيدي.²

نزع جد العائلة بالقاسم الحداد من أولاد عبد الملك فريق أبي طارفة خلال القرن 12هـ / 18م. وهم أولاد العبيدي. أصلهم من أولاد سيدي عبيد الساكنين

¹ حسبما ورد في نسخة من الدفتر الأصلي لشهادة الميلاد رقم 9528 مؤرخة في 2004/9/04م، فهو عبيدي أحمد بن لعبيدي بن علي.

² عبد السلام سليمان: الشيخ الطاهر العبيدي بمناسبة عيد العلم. محاضرة أُلقيت بالمسجد الكبير بتقرت يوم الجمعة 14 أفريل 1983. مرقونة بالآلة الكاتبة ص 2.

حوالي نفطة، وكان بالقاسم المذكور رجلا تقيا ورعا فأواه يوسف أحد أبناء سيدي مسطور وزوجه بابنته مبروكة فانتسب بذلك للسوافه. وأولدها ثلاثة أبناء وهم علي ونصيب وسعد. فمن الأول عماره والعيدي. ومن الثاني بالقاسم والغالي ومحمد. ومن الأخير علي النقاب. وجاء إلى سوف فاستوطنها مما جعل العائلة تحافظ على نسبها لموطنها الأصلي، بالرغم من أن العائلة عرفت بأولاد الحداد.¹

تزوج أبوه لعيدي من امرأة من حي المصاعبه تدعى ضيه بنت مراد فأولدها مجموعة من الأبناء منهم عبد القادر وعلي ومصطفى والشيخان الطاهر وأحمد ثم البشير والعزوية.²

وحسب شجرة النسب التي تحتفظ بها العائلة فإن الشيخ أحمد ينتمي إلى بيت النبوة من نسل أشراف سيدي عبيد. فبمقتضى هذه الشجرة فهو أحمد بن العبيدي بن علي بن بالقاسم بن عماره يصل نسبه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله.³

كان والده يكسب قوت يومه بعرق جبينه مما جعله يحس بصعوبة الحياة، فأبت نفسه إلا أن يعلم أبناءه حتى ييسر لهم سبل العيش وينقذهم من الحالة المزرية التي كان عليها الأهالي وقتئذ،⁴ وكان يستعين بأبنائه الكبار مثل عبد القادر وعلي ومصطفى في حرفة الحدادة، ولم يسلم من هذه المهنة الشاقة إلا اثنان من أبنائه هما الشيخان الطاهر وأحمد اللذان نبغا نبوغا فائقا في ميدان الفقه الإسلامي واللغة العربية بمختلف فنونها وألوانها حتى لقب الشيخ الطاهر بمالك الصغير عندما كان يدرس في تقرت.⁵

¹ إبراهيم بن عامر: كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، طبعة الدار القومية للنشر 1977، ص281.

² مقابلة شخصية مع سعدية العبيدي (بنت الشيخ أحمد) في صيف 2003. بمقرها بالوادي.

³ الطاهر العبيدي، رسالة الستر، تحقيق وتعليق د./محمد محده. طبعة دار البعث بقسنطينة عام 1985، ص5.

⁴ عبد السلام سليمان، المرجع السابق، ص2.

⁵ مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي عام 1968 بمقره بالوادي.

كان الشيخ أحمد قد أدخله أبوه إلى جامع النخلة بسوق الوادي لحفظ القرآن الكريم، وكان معه أخوه الشيخ الطاهر وابن عمتهما «نانه» وهو الأديب الكبير والصحفي القدير محمد الأمين العمودي أول أمين عام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن مؤسسيها الأوائل،¹ وأتم حفظ القرآن قبل سن البلوغ، وقد ذكر لي أنه كان يحمل معه وجبة الغداء فمارا عند ذهابه إلى الكتاب لسرد القرآن تحضيراً لصلاة التراويح.² دفع به أبوه إلى الكتاب صيباً بين أترابه ولداته. فعاش مع اللوح والدواة عيشة محيطه الذي تخرج فيه. وسلك سبيل أسلافه وأجداده وعشيرته الأقربين. ومن هذا المنطلق الإسلامي الخصب. تعليم القرآن. الذي يضرب بجذوره في منطقة سوف. التي تتميز عن غيرها من المناطق بلسان عربي مبين لا عجمة فيه ولا لوثة. نشأ الشيخ نشأة إسلامية عربية ساعدته كثيراً على مواصلة مساره الدراسي بكل سهولة ويسر حتى نهل من مناهل جميع العلوم السائدة وقتئذ.

أما الشيخ الطاهر الذي خلف شيخه محمد العربي بن موسى³ بعد وفاته. في التدريس والإمامة بالجامع الكبير بتقوت فقد لقب بمالك الصغير لغزارة علمه واجتهاده الموفق، وكان عمره عند توليه هذا المنصب اثنين وعشرين عاماً، أي سنة 1326هـ/1907م.

¹ مقابلة شخصية مع محمد الطاهر العمودي (محاسب متقاعد، قريب للعائلة) عام 2003. بمقره بالوادي.

² مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي عام 1968 بمقره بالوادي.

1- ³ هو الشيخ محمد العربي بن محمد الصالح بن موسى (موساوي). ولد عام 1290هـ/1873م بالوادي. كان غزير العلم، بذل جهوداً معتبرة في التدريس بزواوية سيدي سالم، ومسجد سيدي المسعود بالوادي، ثم انتقل إلى تقوت ودرس بالمسجد العتيق وشرع في تفسير القرآن الكريم حتى وصل "وإن عزموا الطلاق" فتوفي في ذي الحجة عام 1322هـ/1905م. اتصف بالورع والزهد والتواضع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أنجب ابناً اسمه الميداني المتوفي عام 1956 بالوادي. ويعد من أشهر علمائها، ومن تلاميذه الشيخان الشقيقان الطاهر وأحمد العبيدي. رثاه تلميذه الطاهر العبيدي عند موته بقصيدة طويلة قال فيها:

انظر: علي غنابزي، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م. رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر. قدمت لجامعة الجزائر عام 2002 (غير مطبوعة). ص 152-153.

لم يلتحق الشيخ بالمدرسة الفرنسية بالرغم من معرفته للحرف اللاتيني، إذ عكف على دراسة العلوم العربية والشرعية، من فقه وتوحيد وحديث ونحو وصرف بالوادي، ومن العلماء الذين درس عليهم: الشيخ عبد الرحمن العمودي،¹ والشيخ محمد العربي بن موسى، بالإضافة إلى شقيقه الشيخ الطاهر،² الذي درس عليه بالوادي، ثم تحول معه إلى تفرقت عندما تولى التدريس بالجامع العتيق خلفا لشيخه، ثم أرسله في نهاية المطاف إلى جامع الزيتونة على نفقته الخاصة لإتمام دراسته على يد شيوخ فخام. تربى يتيما بعد وفاة والده، مما اضطر أخاه الشيخ الطاهر إلى أن يتولى الإنفاق عليه.³ وهناك تلقى العلم على يد كوكبة من العلماء المشهورين أمثال الشيخ النخلي. والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومحمد الخضر بن الحسين⁴ بن علي بن عمر، والفاضل الزكي الأكمل الشيخ سيدي أحمد

¹ الشيخ عبد الرحمن العمودي ولد بالوادي وتزوج وأنجب بعض الأولاد منهم : محمد الصالح وعبد الله وبتين هما مريم والزهرة، اللتان تزوجهما عبد السلام العمودي. كان مقيما بحي المصاعبة، درس عليه بعض التلاميذ مثل: إبراهيم بن عامر والطاهر العبيدي وأخيه أحمد وغيرهم من العلماء الأجلاء. قيل أنه أول من أدخل علم النحو إلى الوادي. كان متصوفا ورعا زاهدا، وحيرا عابدا، كثير التجوال، ناشرا للعلم، وقد عمل في سلك القضاء بكونين، وكانت بينه وبين الشيخ محمد المكي بن عزوز رابطة قوية ومراسلات إخوانية علمية. توفي بالوادي عام 1327هـ/1910م، ودفن بمقبرة الأعشاش. استوطن ابنه عبد الله مدينة توزر ومازالت عائلته هناك.

أنظر: إبراهيم بن عامر، البحر الطافح، ص36. وتقاييد مصطفى سالمي، ومحمد الطاهر العمودي السابق ذكره.

² - الشيخ الطاهر العبيدي (1304-1387هـ) بن العبيدي بن علي بن بالقاسم بن عماره بن بالقاسم بن سليمان بن عبد الملك بن بالهادي بن أحمد بن خدير بن عبد العزيز بن سليمان بن سالم بن إبراهيم بن عبد الحليم بن عبد الكريم بن عيسى بن موسى بن عبد السلام بن محمد بن جابر بن جعفر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن الثني بن علي بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنظر: شجرة العائلة بخط الشيخ أحمد العبيدي، وعندني نسخة منها.

³ مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات (معلم متقاعد، ومن تلاميذ الشيخ) يوم 03 ماي 2006 بعزله على الساعة 11 و30د.

⁴ محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الطولقي (1293م-1377هـ/1873-1958م)، أصل والده من طولقة ولاية بسكرة، هاجر إلى نفضة، فولد له محمد الأخضر بها يوم 26 رجب/23 جويلية، صار مدرسا كبيرا بالجامع الزيتونة، ثم سافر إلى مصر وتولى مشيخة جامع الأزهر في 27 ذي الحجة عام 1371هـ/07-9-1952م، غير أن اعتلال صحته أجبره على الاستقالة من منصبه يوم 2 جمادى الأولى 1373هـ/08-1-1954م. توفي بعد ظهر يوم الأحد 13 رجب 1377هـ/12-2-1958م دون عقب، ودفن بالقاهرة. انظر: أحمد البخاري، الجديد في أدب الجريد، الدار التونسية للتوزيع، تونس، 1973، ص 235-240.

جمال الدين.¹ والشيخ أحمد بن مراد. والشيخ حسن بن يوسف. وفضيلة الأستاذ محمد النجار. والشيخ الخليل أحمد البترقي. والأستاذ الكبير صالح الهواري. والشيخ خليفة بن عروس. والشيخ بن محمود. ولعله أخذ عن غير هؤلاء.

كان جامع الزيتونة وقتذاك قبلة لطلاب العلم والأدب، وفي رحابه تفتحت قريحة الشيخ فاطلع على ثقافات واسعة في المصادر الهامة التي لم تكن متوفرة في بلده بسبب سياسة التجهيل التي مارسها فرنسا على الجنوب الجزائري بصفة خاصة.² وقد اغتنم الشيخ فرصة وجوده بتونس فقام بزيارة الشيخ محمد المولدي³ بن أبي بكر الولي الصالح بتوزر وشيخ

¹ - أحمد جمال الدين، كان حيا عام 1323هـ/1915م، فقيه. ولد ببني خيار، وتلقى العلم بجامع الزيتونة، وتولى التدريس به، وكان من المقرين لدى القصر الملكي والسلطة الاستعمارية، وله مواقف مشبوهة تنم عن ضعف في العقيدة الوطنية، وانصاع لمآرب السلطة الاستعمارية. كان قادري الطريقة، متشبعا بالخرافات، عاملا على ترويجها بقلمه، وهو من أقطاب المترعمين لحركة مقاومة آراء جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا. من تلاميذه الشيخ أحمد العبيدي الذي وصفه لي بأنه كان طويل القامة، أبيض البشرة، تبدو عليه علامات الهيبة والوقار. ألف مولدا في الشيخ عبد القادر الجيلاني. أمه في ذي الحجة من عام 1320هـ، وهو على نسق مولد البرزنجي، سماه "النشر العاطر بمولد الشيخ عبد القادر". كان شغوبا بكرامات الأولياء، كما ألف عدة كتب أخرى منها: بلوغ الأرب في مآثر الشيخ الذهب. وهو من بني خيار وشيخه في الطريقة، وكتاب السراج في معرفة صاحب التاج، وهو رسالة وجيزة في بيان حديث المعراج، ومختصر مولد البرزنجي، انظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين. ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى. 1982. ص50-51.

أما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، فهو ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الإمام الضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية، تعلم في الكتاب حتى أتقن حفظ القرآن، ثم تعلم ما تيسر من اللغة الفرنسية، والتحق بجامع الزيتونة عام 1310هـ/1892م، حتى حصل على شهادة التطويح عام 1313هـ/1896م.

قام برحلات إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وإلى أوروبا واستانبول، وهو أول من أحرز على الجائزة التقديرية

لرئيس الحبيب بورقيبة عام 1968م. توفي يوم الأحد 13 رجب 1393هـ/12-8-1973م ودفن بمقبرة الزلاج بتونس. من مؤلفاته: أصول الإنشاء والخطابة، والتحرير والتنوير في تفسير القرآن الكريم في 30 مجلدا، وقصة المولد النبوي الشريف، ومقاصد الشريعة الإسلامية. ويعد كذلك من أساتذة الشيخ أحمد.

انظر: محمد محفوظ، المرجع السابق، ج3، ص 304. 306-307.

² عبد السلام سليمان، المرجع السابق، ص2. وأحمد بن السايح، (العلامة الشيخ الطاهر العبيدي الفقيه الصوفي). أسبوعية العقيدة بتاريخ 1992/02/05.

³ المولدي أبو عراقية، وهو الولي الصالح الشيخ محمد المولدي بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي القاسم، وأصله من أشراف نفطة لأن والده الأستاذ أبا بكر وفد من نفطة إلى توزر أوائل القرن 13هـ، وأنشأ الزاوية القادرية

الطريقة القادرية، والمتوفى يوم الأحد 28 شعبان عام 1335هـ/1915م. وعندما رجع إلى مسقط رأسه بعد حصوله على شهادة التطويع من جامع الزيتونة. بدأ التدريس متطوعاً بجامع سيدي المسعود الشابي بسوق الوادي ابتداء من عام 1341هـ/1922م،¹ وكان يعيش على نفقة المصلين، وعمره وقتذاك 34 عاماً.²

صفاته الجسمية والخلقية:

كان فارح القامة، أبيض البشرة، مشرباً بحمرة، قوي البنية، مرحاً بشوشاً، صاحب نكت طريفة، مازحاً مجيد، كلامه عذب، وهادئ، قوي الحجة.

كان مفتياً بارعاً لا يجارى، ولغوياً محنكاً لا يشق له غبار، طريقته في التدريس مبسطة، إذ يشرع في قراءة أولية لأحد المتون، ثم يبدأ في الشرح والتوضيح حتى يقتنع الطلاب ويستوعبوا ما يمكن لهم استيعابه.

منهجه في التدريس:

كان يطلب منا حفظ الباب الذي ينوي تدريسه، وإذا لم يحفظ أحدنا فسوف يغضب الشيخ ويوجه له اللوم بحدة تناسب طرداً مع جديته وحرصه على إفادة طلابه، ورغم تقدمه في السن عندما تعرفت عليه عام 1962 (عمره 74 عاماً). فإنه خصني بدرس يومي في متن الآجرومية إذ لم أكن قادراً على المتابعة مع الطلاب الذين كانوا متفوقين عليّ، والذين كانوا يدرسون متن قطر الندى.

الموجودة الآن بتوزر، يرأسها الشيخ الهاشمي بن الهادي منذ عام 1960، عندما شب. أخذ في تعلم القرآن الكريم ثم العلوم الشرعية على أستاذة فحول مثل: إبراهيم أبي علاق وأبي حفص عمار المالكي العبيدي، وكانت أخلاقه مرضية، يحب الفقراء والمساكين، ويميل ميلاً كبيراً إلى الأحاديث النبوية والعلوم الدينية وعلم السادة الصوفية، وقد أثني عليه الكثير من العلماء والأدباء، ومدحه الشيخ إبراهيم بن عامر السوي بقصائد كثيرة مدونة في سجل بزاوية توزر. توفي ودفن بمسقط رأسه بتوزر عام 1915/1335م.

أنظر: الجديد، ص 133-137.

¹ حسبما هو مبين في شهادة صادرة عن رئيس المندوبية الخاصة لبلدية الوادي مؤرخة يوم 1964/9/25م.

² مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات (معلم متقاعد، ومن تلاميذه الشيخ) يوم 03/ماي 2006 عزله على الساعة 11.30.

وبالرغم من لطافته وبشاشته وجهه، فإنه كان أيضا يفعل إذا ما تعرض لسائل يقصد إحراجة، بالرغم من أنه كان يجيب عن كل الأسئلة التي تطرح عليه، حيث كان يأتيه المستفتون من كل حذب وصوب، يعرضون عليه فتاويهم فيجيب عنها جميعا، كما كانوا يعرضون عليه مشاكلهم فيقترح عليهم الحلول الناجعة. وظلوا يستشيرونه في كل قضاياهم الخاصة، فكان بمثابة المستشار والموجه. ذلك هو فضيلة الأصولي النظار الأستاذ أحمد العبيدي الذي كان له منهج آخر في الفتوى وطرائق معينة في الاستنباط اكتسبها من رسوخ قدمه في علم أصول الفقه الذي تضلع فيه أيما تضلع. وتبحر فيه تبحرا واسعا. يحيط بالقواعد الكلية للشريعة. وذلك كله راجع إلى الإدمان المستمر على مطالعة كتب العلم والاشتغال بالبحث والتنقيب والتمحيص والنظر المتواصل في تراثنا الفكري والفقهى معا. وبذلك اكتسب ملكة فقهية واسعة المدارك. وهكذا تصدر للفتوى ومعضلات النوازل وتحمل بمسؤولية وإخلاص عبء أمانة العلم في منطقة وادي ريغ ووادي سوف. على مدى أكثر من 54 سنة - أي من عام 1922 إلى 1976 - فكان جديرا بالمكانة المرموقة التي تبوأها طوال تلك الفترة. جعلت منه علما راسخا في ثبات علمه وشدة ورعه وزهده وقوة حجته وصدق دليله. وقد ظل الشيخ أحمد طوال حياته العلمية مؤمنا بأن التقليد ليس من شيمة أهل العلم. وكأنه بذلك صورة منسوخة عن شقيقه وشيخه الأستاذ الطاهر العبيدي.

أدى فريضة الحج عام 1957 برفقة شقيقه وشيخه الطاهر¹ على متن طائرة انطلقت من مطار قمار بالوادي، وكان ابنه الوحيد حمزة البار بوالده هو الذي تكفل بحججه².

كان صوفي التزعة، ينتمي إلى الطريقة الرحمانية العزوزية أساسا، كما كان أيضا قادريا، وكان يقدم أوراد الطريقة القادرية لمن يرغب في الانتساب لهذه الطريقة وهذا

¹ مقابلة شخصية مع سعدية العبيدي (بنت الشيخ أحمد) في صيف 2003م بمقرها بحي المصاعبة بالوادي مساء.

² - مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات (معلم متقاعد، ومن تلاميذه الشيخ) يوم 03/ماي 2006 بمقره على الساعة 11.30.

بتكليف من شيخ الطريقة القادرية بتونس والوادي محمد الصالح الشريف بن الشيخ محمد الهاشمي. هذا الأخير الذي قام بالانتفاضة المعروفة بمدة عميش الأولى يوم 15-11-1918م.¹

كان حفاظا للمتون، قوي الذاكرة، لا يتوانى في حفظ كل ما بدا له مفيدا أو جيدا، سواء أكان شعرا أم نثرا، بل كان يحفظ مولد البرزنجي² عن ظهر قلب، هذه الذاكرة التي كان يتحلى بها يسرت عليه استيعاب أغلب المتون. كما كان يملك مكتبة ضخمة تحتوي على أمهات الكتب من مطبوعة ومنسوخة، بلغ عددها حوالي 16000 كتاب. جعلت منه موسوعة معرفية ضخمة أفحم بها جميع من حاول اختباره. وأفاد كل طالب للمعرفة في مختلف المجالات التي كان مطلعا عليها.³

كان يلقين طلابه الفقه فهارا بجامع سيدي المسعود، ويقوم بتفسير القرآن ليلا، كما اعتكف على تدريس الآجرومية وقطر الندى بفناء بيته صباحا لفئات مختلفة الأعمار والمستوى التحصيلي، ورغم تقدمه في السن، فإن هذا لم يكن عائقا، بل استمر في مواصلة تدريسه، حيث كان يقوم بشرح متن الشيخ خليل بن إسحاق المالكي في جامع النخلة بأولاد أحمد ما بين صلاتي المغرب والعشاء.

تخرج على يديه كوكبة كبيرة من العلماء أمثال الشيخ الميداني بن محمد العربي بن موسى، والشيخ الأزهاري الحرزولي، وعلي سالمي، والبخاري عوينات، كما درس عليه محمد حمده (ميده) بن أحمد، وعلي بوخزه، والأزهاري بالقط، ومحمد هويدي، وعاشوري قمعون، وغيرهم كثير ممن انخرطوا في سلك التربية والتعليم، والإمامة، وتعليم القرآن الكريم، وكل هذا بدون مقابل مادي، اللهم إلا من تطوع للتبرع عليه،

¹ مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي عام 1968 بمزله بالوادي.

² البرزنجي هو مفتي المدينة المنورة. جعفر الحسني البرزنجي (1690-1766). وعنوان مولده «الجوهر في مولد النبي الأزهر»، طبع بمصر سنة 1889. وله شروح.

³ مقابلة شخصية مع سعاد بنت العبيدي (بنت الشيخ أحمد).

حيث كان رواد العلم يجمعون شهريا مبلغا من المال فيقدمه إليه أحدهم¹. وأذكر أنني سألته عام 1962 إذا كان للقرآن تفسير - حيث كنت صغيرا، وأتابع دراستي في المدرسة الفرنسية وقتذاك، حينما التقيت به في سوق الوادي- فضحك وسألني عن عائلتي، ولما تعرف عليّ، طلب مني زيارته في بيته، فوجدته قد أحضر لي تفسير الجلالين² وبه حاشية تتكون من ثلاثة كتب: ألفية الأوزاعي في تفسير مفردات القرآن الكريم، ولباب النقول في أسباب النزول، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وأهداه إليّ حيث ما زلت أحتفظ به إلى الآن. علما بأنه لم يكن يتصف أبدا بالبخل حينما يطلب منه أي طالب استعارة أحد الكتب. وغالبا ما تضيع هذه الكتب أو يتأخر طالبوها كثيرا في إعادتها.

رحيله إلى بلدة تقديدين بدائرة جامعته للتدريس:

رحل الشيخ أحمد العبيدي إلى بلدة تقديدين بجامعه إماما ومدرسا، وذلك بواسطة أحد تلاميذ أخيه الشيخ الطاهر، والذي كان يحضر دروسه بتقريت، هذا التلميذ هو الذي طلب من شيخه دعوة أخيه أحمد للتدريس بجامعه، واسمه محمد بن أحمد بوليفه من أسرة عرفت بطلبها للعلم وحفظ القرآن وتوليها شؤون المسجد، مع أنها كانت ميسورة الحال، وأغلب أبنائها من حجاج بيت الله، في الوقت الذي كان أداء الحج ليس بالأمر الهين، حتى عرفت الأسرة بـ«دار الحجاج»³.

¹ مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات.

² أما عنوان الكتاب الذي أهداه إليّ فيوسم بـ(تفسير الجلالين للقرآن العظيم) للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى عام 911هـ، والإمام جلال الدين محمد بن أحمد المحلي المتوفى عام 864هـ. وبذيل صحائفه: رسالة تتضمن ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل، لأبي القاسم بن سلام. وبالهامش ثلاثة كتب:

أ- لباب النقول في أسباب النزول للجلال السيوطي.

ب- معرفة الناسخ والمنسوخ، للإمام أبي عبد الله محمد بن حزم.

ت- الألفية في تفسير غريب ألفاظ القرآن، لأبي زرعة العراقي.

الطبعة الثانية 1373هـ/1953م. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

³ مقابلة شخصية مع الحسين النوري (إمام متقاعد وتلميذ الشيخ) عام 2000م. بمقره بتقديدين بجامعه.

لم يكن الشيخ موظفا لدى الإدارة الفرنسية، مما جعله يتكلم في دروسه بكل حرية، غير مقيد بما تطلبه الوصاية من موظفيها عادة، شأنه في ذلك شأن ابن باديس، غير أنه لم يكن منتميا لجمعية العلماء، بل ذكرت لي بنته سعدية بأنه طلب منه التدريس بحاضرة الشرق الجزائري مدينة قسنطينة، غير أن مناما رآه جعله يغير وجهته نحو بلاد رجال الحشان،¹ وله قصيدة مطولة أحصى فيها جميع الأولياء من رجال الحشان بوادي ريغ. مما يؤكد ارتباطه المطلق بالحركة الصوفية التي جعلته في منأى عن الانتماء لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تعارض هذا الاتجاه. وقد أكد لي شخصا أنه لم يكن مقتنعا بمنهجها.

كانت تجمع له الأموال من أهل البلدة، وكان يقضي فصل الخريف والشتاء والربيع في جامع، بينما يرحل في فصل الصيف إلى الوادي.

كان يدرس بجامع سيدي سالم بتقديدين القديمة، حيث كان يعقد حلقة درس بين المغرب والعشاء بصفة دائمة طوال إقامته، وأحيانا بعد صلاة الصبح، وكان يقدم في هذه الحلقات دروسا في الفقه والنحو، وكان يركز على المذهب المالكي في دروسه وفتاويه لكونه مذهب غالبية أهل القطر، بالإضافة إلى دروس التوحيد.

ومن ناحية أخرى، فإن القائمين على شؤون المسجد والمتريدين عليه هم من أتباع الطريقة العزوزية الرحمانية في غالبيتهم، وكان الشيخ يجالسهم في حلقات الذكر لكونه رحمانيا عزوزيا أيضا، مع العلم بوجود أتباع الطرق الأخرى كالقادريّة والتجانية الذين كانوا يترددون على دروسه أيضا.

وقد تخرج على يده الكثير من الطلبة، مثل الحاج عمر بوليفه، وسي مختار، والطالب إسماعيل. وكلاهما من نفس العائلة - أي بوليفه -، وعبد الرحمن قادري، والصالح مداني مقدم، وعبد السلام مداني، بالإضافة إلى محمد الحسين النوي، وأحمد بن السعيد

¹ - مقابلة شخصية مع سعدية بنت العبيدي (بنت الشيخ أحمد).

بوليفه، وغيرهم كثير. وكان هؤلاء يحترمونه كثيرا ويكرمونه خاصة وأنه لم يكن يتمتع بمرتب. بل إن أهل البلدة يتولون عند عودته من الوادي. إكرامه حوالي شهر كامل مع أسرته فيحملون له الطعام إلى منزله ويقدمون له غلال فصل الخريف إلى أن يستقر ويعود إلى حياته العادية. كما كانوا يعقدون معه السهرات في أحد المنازل ليلا للاستفادة منه ومن فتاويه وأحاديثه الممتعة ومن ذكائه الوقاد إلى ساعات متأخرة من الليل، وهم يتناولون الشاي مع الكاوكاو (الفول السوداني)، ولا ينبئك مثل خبير.

رجع الشيخ إلى الوادي مع بداية الخمسينيات،¹ وواصل تدريسه بجامع السوق، وجامع النخلة. كما كان يقدم دروس النحو في الآجرومية وقطر الندى في منزله بطريقة سهلة مبسطة وجذابة جعلت الطلاب يستوعبون دروسه بكل سهولة ويسر لمقدرته الفائقة على الإقناع. قضى حياته على جانب عظيم من الزهد والتعفف والفتاة والصيانة والورع مع تدين متين وسيرة حسنة، وسخاء مفرط.

عندما رحل ابنه الوحيد حمزة إلى الجزائر العاصمة للتدريس هناك، أقام في الديار الخمس بالحراش مع عائلته، وانتقل معه الشيخ، غير أنه لم ينس مسقط رأسه فصار يتردد عليه كل عام، حيث يزوره تلاميذه ورفقاؤه القدماء للاستمتاع بنبخته الرائعة وفتاويه المقنعة، وهكذا حتى صار عاجزا تماما عن الحركة، فحوله ابنه رفقة زوجته إلى الوادي بنية البقاء دائما، وذلك ليلة الخميس 25 محرم 1397هـ / 23 ديسمبر 1976م، وكان قدومه على متن سيارة ابنه حمزة،² غير أن القدر لم يمهله ففاضت نفسه إلى بارئها يوم 16 جانفي 1977 على الساعة 18 و40د، ودفن في مقبرة أولاد أحمد في الجهة الغربية منها، وعمره 89 عاما. تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جنانه.³

¹ مقابلة شخصية مع الحسين النوي (إمام متقاعد وتلميذ الشيخ).

² مصطفى سالي، الدر المصفي من تقايد الشيخ سالي مصطفى، جمعه وعلق عليه علي غنابريه عام 2000.

³ حسينا هو مبين من نسخة من سجلات شهادات الوفاة رقم 79 مؤرخة في 2004/9/04م.

تأليفه:

ترك الشيخ أحمد العبيدي مجموعة كبيرة من التأليف في مختلف فنون الأدب والنحو والفقه والتوحيد وكان ينظم الشعر الفصيح والملحون، أما قصائده الصوفية فهي كثيرة ومتنوعة لدى أصحاب الطريقة الرحمانية بالوادي، ومن تأليفه:

■ تأليف في اللغة:

- نظم قطر الندى وبل الصدا.
- شرح وسيلة المتوسلين¹ (سيدي العروسي) غير أنه لم يتمكن من إتمامه بسبب اعجزه عن الكتابة.
- ما ذكره في أسماء الأطعمة الثمانية التي يستعملها العرب في مختلف المناسبات.
- كما له نظم في القواعد مثل قوله:
- ألا يا طالباً نريك فائده «ما» إن أتت بعد «إذا» فرائده
- كما قرظ رسالة الستر لشقيقه الشيخ الطاهر².
- له أرجوزة أحصى فيها جميع أسماء الأسد وعددها حوالي 500 اسم.
- له منظومة في الأسماء اللازمة الإضافة حيث يقول فيها:

لَدُنْ، لَدَى، سَبْحَانَ، ذُو، وَمِثْل	مَعَ، عِنْدَ، كُلٌّ، غَيْرٌ، بَعْضٌ، أَوَّلُوا
فَوْقَ، وَتَحْتَ، وَوَرَاءَ، قَدَامَ	وَيُسْرَةً، جَامِعَةً، أَمَامَ
وَيُمْنَةً، مَعَاذَ، شَبَهَ، وَكَلَا	أَيٌّ، وَكَلَمَةً، ثُمَّ دُونَ، فَاقْبَلَا
فَهَذِهِ لَازِمَةٌ الْإِضَافَةِ	ذَكَرَهُ بِحَرْقٍ شَرْحَ الْمَلْحَةِ

¹ وسيلة المتوسلين بفضل الصلاة على سيد المرسلين (ص) تأليف الشيخ بركات بن أحمد بن محمد العروسي القسنطيني.

الطبعة الأولى 1965م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

² الطويل مسعود محمد، مقدمة حول النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية للشيخ الطاهر العبيدي، مطبعة حجازي بالقاهرة بدون تاريخ، ص6.

■ نظمه في الأظعمة الثمانية فهي قوله:

وليمة، قل لطعام العرس	وفي نفاس سمه بالخُرس
مأدبة، هي طعام الجيران	حذاقة، طعام حفظ القرآن
وكيرة عند بناء الدور	نقيلة لسفر مبرور
عند ولادة الصبي عقيقه	إعذار في الختان خذ طريقه

كما له نظم سماه «رسالة تحفة المصلي على النبي صلى الله عليه وسلم» يقول فيه:

يقول أحمد العبيدي المرتجي	من ربه سلوك خير منهج
الحمد لله الذي صلى على	نبيه محمد وبجلا
مع ملائكته وأمرا	أصحاب الإيمان بها بلا مرا
ثم الصلاة والسلام الزاهر	يغشى نبينا الحبيب الطاهر

نظم قصيدة في جامع السوق المعروف بجامع سيدي المسعود الشابي¹ والذي بني في القرن 17م، يقول فيها:

¹ مسجد سيدي المسعود الشابي ينسب إلى مؤسسه محمد المسعود بن محمد بنور بن عبد اللطيف. وهو جد الشابية بتوزر، الفقيه الصوفي، المتكلم، المؤرخ، من مؤلفاته: له 18 تأليفا في الفقه والتصوف والكلام والتاريخ نذكر منها: الفتح المنير في التعريف بالطريقة الشابية وما ربوا به الفقير. بين فيه أصول الطريقة الشابية وقدم لها بمناقب مشائخ الطريقة، وفي مقدمتهم مؤسسها جده أحمد بن مخلوف. والمقرب المفيد في فروض العين والتوحيد، 3 أجزاء، الأول في التوحيد، والثاني في الرعاية، والثالث في الفقه. والدر الفاضل، لخص فيه أصول الطريقة كما وضعها أحمد بن مخلوف وابنه الشيخ عرفة، وفسر وحلل هذا الكتاب في الباب الرابع من كتابه الفتح المنير. ومطالع الأنوار ومواهب الأسرار في خمسة أذكار.

كان استشار شيخه أبا الغيث القشاش بمدينة تونس في الهجرة إلى باجة، فأشار عليه بالاستقرار في أطراف العمالة، وللاختلاف بينه وبين أخيه عبد الصمد، وخوفا من أن يقتله مثلما قتل أخويهما قاسما، انتقل إلى جبل ورغة قرب الكاف، وعبد الصمد كان متمردا على الأتراك العثمانيين، ويؤلف ضدهم الجموع، وكان يسعى لانضمام أخيه المترجم له، إلا أنه لم يكن على هواه في السياسة، وكان منصرفا إلى تحصيل العلم وإرشاد الناس، .../...

يا جامعَ السوقِ يا تاجاً على السوادِ
قد زادك الله في حُسن وفي سَعَة
فكنت كالروضة الغناء مُتَنَزِّها
لكنه لم يَقُمْ حقاً بخدمتكُم
فكن له ربّ البيت إن لــــه
يا رب فأحفظه في دنيا وآخره
بجاه سيدنا المسعودِ واقفــــه

ونوره لآح في غُورٍ وأنجــــاد
وقد وقَّاك شرور العائث العــــادي
للناسكين وذو درس وأوراد
إلا الجبالي علي الخاتم البــــادي¹
حقاً عليكم فناد أنت والنــــادي
في الذات والأهل مع مال وأولاد
جادته سُحِب الرضا بالهاطل النــــادي

وكان أخوه عبد الصمد يستهزئ به لأجل ذلك ويقول له: «خليك طويـلب علم» ومن ثمة حاول قتله، ففر منه إلى جبل ورغة، ورغم ذلك فإن الأتراك - بسبب صلته بالجماهير وانتسابه للطريقة الشاذلية - ألقوا عليه القبض في تيروقرارين بالجزائر، علماً بأنه وفد من بلدة توزر بتونس على سوف حوالي عام 1020هـ/1611م، وكان يتردد عليها حتى عام 1618م.

أسس مسجداً بقممار، وأسس المسجد الثاني بسوق الوادي يعرف باسمه، ولما استقر في جبل ششار قرب خنشلة، ضيق عليه أخوه عبد الصمد، ولم تمض على هذه المضايقة ثلاث سنوات حتى توفي عبد الصمد، وتوفي المترجم له بعده بنحو ثلاث سنوات بششار، ودفن بزاوية الشاذلية عام 1028 هـ/1618م.

أنظر: إبراهيم بن عامر، الصروف ص192. ومحمد محفوظ، المرجع السابق. ج3، ط1، 1984. ص132-133.

¹ الجبالي علي بن أحمد بن بالقاسم، من عرش الأعشاش بالوادي ومن مواليدها خلال عام 1887م، كان قيماً ومؤذناً بمسجد سيدي المسعود وكان واقفاً على ترميمه وتجديده. ارتبط بالمصاهرة مع الشيخ أحمد العبيدي، حيث تزوج ابنة البشير من بنت الشيخ أحمد وتدعى سعدية. وأنجب منها أربعة أبناء وبنات يعدون من أذكي وألمع أساتذة الوادي ومن أثقفهم، وهم المرحومان: عز الدين كان أستاذ مادة الرياضيات بالمدرسة العليا للأساتذة بالقبة بالجزائر. وعلي كان إطاراً سامياً بشركة سوناطراك. وإسماعيل وهو أستاذ الرياضيات بالمدرسة العليا للأساتذة أيضاً. ومحمد وهو أصغرهم يدرس مادة الرياضيات في ثانوية عبد العزيز الشريف بالوادي ومن خيرة أساتذتها اجتهدا وخلقاً.

كان علي متطوعاً لخدمة المجتمع مثل القيام بغسل الموتى ومساعدة اليتامى والمحتاجين. وكان يؤذن للصلاي الظهر والعصر في مسجد سيدي المسعود، والمغرب والعشاء والصبح بمسجد الدقاشي بحي الأعشاش. وقف على تجديد بناء جامع سيدي المسعود فيما بين عامي 1924م و1930. وكان يملك مع إخوته غابات النخيل في كل من تكسبت وميه باهي ووازيين وتقرت وتماسين وورقلة. له سبعة إخوة وأختان أحدهما تدعى الزهرة والدة الشهيد عبد القادر زيبيدي بن الطيب (زعيرة)، توفي يوم 15/04/1941. ودفن بمقبرة الأعشاش بالوادي.

مقابلة مع البشير جبالي ابن المترجم له، من مواليد الوادي عام 1924، لقاء يوم 14/06/2006 على الساعة 11.30 بالوادي.

وفي جمادى الأولى عام 1348هـ/ نوفمبر 1929م، نظم قصيدة أخرى يقول فيها:

دون أقصى المراد وَقَعُ النبال	والخريص على العُلا لا يبالي
طاعة الله حليّة وجمال	وهي عنوان كل وصف كمال
في بناء مساجد الله دُخْر	ونزولٌ بجَنّة الخلد عال
أفرغَ الحَزْمَ في بنا جَامِعِ ألوا	دي خِليّ عليّ بنُ الجبالي
قامَ لله لا يريد جزاء	من عبيدٍ وذاك فعل الرجـال
وبيوم الحساب يلقى جزاه	حسّات تفوق وزن الجبال عـاليات
ربّ أسكنه في الجنان قصورا	وزد له في الثـوال
واصرف النائبات عنه سريعا	ثمّ صنه واحفظه في كلّ حال

وقد كتب قصيدة أخرى في شهر محرم الحرام من عام 1355هـ/ مارس 1936م، قال فيها:

حبّذا مسجدٌ به نستـير	طالما لاح فيه بدرٌ مُنير
يا بني أحمد هنيئا مريئا	إن وبّل العلوم فيكم همـير
لم تفارقكم العلـوم فشكرا	ليس عن فضل ربنا تحجـير
كم جلا نجل صابر ¹ فيه علما	وابن موسى الحبرُ الجليل الكبيرُ

¹ الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن صابر المصعبي النفطي، أجازته الشيخ العلامة خليفة بن حسن القماري السوفي (1711-1793م) الذي نظم متن مختصر العلامة أبي الضياء خليل بن إسحاق المصري (775هـ/1374م). كان مثالا للورع والصلاح، بلغ درجة معتبرة من العلم، وقد ذكره الشيخ محمد المكي بن عزوز في قائمة الجزائريين الذين أجازوه في العلم، وأنه أخذ عليه «صلوات» ابن ملوكة التونسي.

أنظر ص40 في كتاب علي الرضا الحسيني: محمد المكي بن عزوز حياته وآثاره، الدار الحسينية 1997. وكان الشيخ أحمد بن علي بن صابر كثير الترحال ما بين جريد تونس ووادي سوف، واستقر في آخر حياته بالمدينة المنورة قبل الحرب العالمية الأولى، حيث توفي هناك ودفن في مقبرة بقيع الغرقـد.

أنظر: علي غنابزيه. المرجع السابق ص152-153. و«فضاءات تراثية»، أوراق جامعية. الوادي جوان2005. ص21.

وكذا شيخنا الرضى النحرير
تلصيح العبيدي بحر العلوم الغزير
لرشد له تلين الصـخـور

والبها البخري¹ مع نجل نصر²
شيخ ذا العصر (طاهر) طائرا
إن علا منبر المواعظ فاسمع

¹ وهو علم من أعلام البيان، أشهر من نار على علم، هو الشيخ إبراهيم البخري بن محمد ينسب إلى البخاترة، وهي طائفة بتوزر. بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم بتوزر، تلقى مبادئ العلوم بها، ثم واصل دراساته بجامع الأزهر الشريف بمصر، و كان من أساتذته إبراهيم الدسوقي والشيخ الحليش وغيرهما. وقد جمع شهاداته العلمية في 16 فنا من فنون العلوم في كتاب خاص، ثم توجه من مصر لأداء فريضة الحج، وبعدها طاف بأرض الحجاز وتعرف على أهله وتباحث مع علمائه، ثم رجع إلى توزر وشرع في التدريس فكان بحرا زاهرا ينبض بالعلم، وتولى القضاء فكان خير قاض عادل. وفد على سوف ودرس بزواية سيدي سالم ومسجد سيدي المسعود بالوادي.
ألف العديد من الكتب منها :

- أ- اختصار تحفة الحكام لابن عاصم. في 300 بيت.
- ب- شرح على السمرقندية في الاستعارات.
- ت- شرح على الآجرومية.
- ث- شرحان على متن ابن عاشر صغير وكبير.
- ج- شرح الرجبية في علم الفرائض. واختصره وسماه « النفائس البخرية »
- وله قصائد وأشعار منها القصيدة التي نظمها بمناسبة المولد النبوي الشريف ومطلعها:
طوالع السعد حلت دارة الحمل والنصر في بيضة الإسلام لم يزل
وختمها بقوله :

ا رب صل على النور الذي ختمت به النبوة عند الله في الأزل

ونظم قصيدة في شأن شيخ الطريقة الرحمانية بالوادي الشيخ محمد الصالح بن سيدي سالم، قال فيها :
يا خالق الخلق يا مولانا يا أزل صل على المصطفى المختار في الأزل

والآل والصحب والأتباع كلهم واغفر لإخواننا ما كان من زلل

توفي -رحمه الله- عام 1317هـ/1903م. انظر: أحمد البخري، المرجع السابق ص 109-117. وإبراهيم بن عامر، البحر الطافح، مطبعة بيكار، تونس. 1323. ص48. ومحمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين. ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1982. ص109.

² هو الشيخ أطلال علي بن نصر، أشهر النساخين، كتب بخط يده المصحف الشريف، وغيره من المخطوطات، كان له خط جميل، توفي في صفر 1340هـ/ أكتوبر 1921م بالوادي. انظر: الشيخ مصطفى سالمي. المرجع السابق (مخ).

إن هذا المحلّ روض نصير
وفخار وبهجة وحبور
فهو في جنب الله شيء حقير
في جنان الخلود بيت عطر
إنّ إهمالها عذاب مبير
ن يروم تجارة لا تبور
وكذا في الخراب ذا التقدير
نجل موسى² الآغا الأمير الخطير

وكذا العامري¹ كم فيه أجدى
في بناء مساجد الله عز
لا تعدّوا ما تنفقون كثيرا
من بنى مسجدا هنا فجزاه
فاعمروها بالصالحات لتحظوا
إنما يعمر المساجد من كا
حفظها حافظ عمارة أرض
قام فيه بعازمات الطوايا

¹ 39- العامري، هو الشيخ إبراهيم بن محمد الساسي بن عامر المتوفى بالوادي في 14 ربيع الأول عام 1351هـ/جويلية 1932م.

ألف عدة كتب منها :

أ- البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح.

ب- الجواهر الحسان في بعض ما يتعلق بالمعلمين والمتعلمين من حملة القرآن.

ت- نيل المرام من رسالة كشف اللثام.

ث- حاشية على شرح السنوسي الكبير.

ج- حاشية على الشذور.

ح- شرح الشيخ ابن عاشر، وشرح الآجرومية، وشرح رسالة الأخضري في الحساب.

خ- شرح رسالة سيدي محمد الرقيق في مبطلات الصلاة.

أنظر عبد الباقي مفتاح، المرجع السابق ص 178.

د- كما له ديوان شعر ملحون ما زال مخطوطا، وعندني نسخة منه.

² صار محمد بن موسى بن محمد (حمه أموسى) قائدا على الوادي يوم 24/02/1874 وبقي مدة تسعة أشهر، حيث صار شيخ عرش الأعشاش وأولاد أحمد والربايح والفرجان وتوفي عام 1319هـ/1900م، ثم جاء بعده ابنه محمد العيد عام 1900م الذي ارتقى إلى رتبة «آغا» في 1349هـ/23-05-1930م، وعند وفاته عام 1942م، تولى بعده ابنه عبد الغني الذي بقي إلى غاية 1962 حيث عين شيخا للبلدية يوم 02 رجب 1379هـ/أغرة جانفي 1960م، عندما شرع في العمل بالنظام المدني في الوادي وأحوازه إلى غاية الاستقلال حيث عزل. توفي عبد الغني الذي تزوج سكينه بنت الشيخ الطاهر العبيدي، ليلة الأربعاء 26 شعبان 1395هـ/03-09-1975م، على الساعة الثامنة ليلا وعمره 74 عاما.

أنظر: تقايد الشيخ مصطفى، وتاريخ زاوية سيدي سالم للمؤلف محمد بن عزوز بن محمد الصالح (مخطوط).

وكذا نجله النشيط فكم با
والجبالي عليّ بحزم للسب
قبل الله سعيكم وحماكم
آل موسى الفخام دمتهم ودام الـ
ما برحتم على مشاريع خير
وصلاة الإله تترى على من
أحمد المصطفى الرسول المفدى
وعلى الآل والصحابة ما قا
(أحمد) يحمد الكريم في ذا الـ

نت أيادي للمعالي تسير
ق إلى الخير قام فيه يشير
وحباكم وصانكم ما يضير
مجد فيكم محلدا والأمير
عاكفين والله نعم النصير
لاح منه الرشاد والتنوير
هو ذخر الورى البشير النذير
م العبيدي لربه يستخير
خير لختم إذا اعتلانا السرور

كما نظم قصيدة يحث فيها على طلب العلم، إذ يقول:

هلموا للمعالي يا رفاقي
ولا تصغوا لزخرفة الكسالى
وهبوا من منام الجهل وارقوا
قوموا للعلوم وبادروها
فإن العلم مرتعه خصيب
تبهوا يا رجال العلم واجنوا
فان الناس أنتم لا سواكم
بكم فصل النوازل والقضايا
ملأتم من معين العلم صدرا
فما أحلى المدارس يا خليلي
وشمر للدروس بلا توان

وكونوا الثابتين على الوفاق
إذا مزجوا النصيحة بالنفاق
بهمتكم إلى أعلا المراقي
بجد قبل إدراك الخاق
وعرف عراره عطر انتشاق
حناء المشتهى حلو المذاق
بكم قيد الشريعة من إباق
وتسكين الشقاق والاحتقاق
وغيركم يحوم على السّواقى
بها فاعقب صبوحك باغباق
ومتّع بالطروس ضيا الحداق

فبالعلم الشريف سما قديما
ومدّوا للعلا أيد وزانوا
جنود الجهل وافت في جموع
ورامت دحض دينك يا معنى
فهل أبصرتم منا غيبا
وخلّ خير ذكر بعد موت
وهل بالمال تفتخرون كلا
أما تدرّون أن المال ميل
دعاكم رائد الخسران دهرا
وذا القرآن بينكم ينادي
وأنتم بالتنافر قد كلّفتم
وحفظكم بدنينا وأخرى
فصونوه وفي أعمال رشد
فكيف بكم إذا جئتم لحشر
وشاهدتم عظام أدهشتكم
هنالك تندمون وليس يغني
وفي العمل اجتهد إذ ليس يلقي
ففي الأعمال تقديم بفخر
تأمل نفثة أهدتك نصحا
وأهدي للذي أسرى بليل
محمد المشفع في البرايا
وللآل السراة وصحب مجد
صلاة مع سلام ما تبدّت
وما نادى العبيدي في النوادي

رجال أحرزوا قصب السباق
وماسوا في حلى العزّ الزقاق
وكرّت بالمهتدة الدقاق
بنغص العلم تبلغ ما تلاقي
سقاها المجد بالكأس الدّهاق
إذا ما صار مشدود الوثاق
ورب البيت والسبع الطباقي
عن العليا ويقصر عن لحاق
فليبتم بجهر لا استراق
ويوصيكم بإبعاد الشقاق
أبوزن الاجتماع بالافتراق
بحفظ الدين فهو أجلّ واق
فجدّوا تسلموا يوم التلاقي
ونار الله تزفر باحتراق
وفاز بما يقر العين راق
فكن يقظا أخي قبل الفراق
لمن ركب البطالة من خلاق
وبالإهمال بابك في انغلاق
بصدق لا يشاب بالاختلاق
به مولاه ممتطي البراق
وساقسي الناس في يوم المساق
أسود الدين فرسان العتاق
بدور العلم أو شمس اتفاق
هلموا للمعالي يا رفاقي

كما أملى عليّ قصيدة سماها نصيحة الشباب وهي كالتالي:

نجني بها من العلا غروسا
يا فوز من كان نشيطا ناهيا
إلى الأمام دائما لا يلتوي
يثابر الغوص على الفهوم
وجريه في كسبه شديد
إن شئت أن تأمن ضرّ المقت
نيك الهادي إلى أسمى سنى
سعدت في الدنيا وفي أخراكا
واسلك سبيل السلف السادات
ولا تكن عبدا خسيسا خانا
وحاذر القمار والإفلاسا
مهذبا يسعى إلى علاه
عائق لئيل عزك العوالي
ولا تكن لعظي كالناسي
محذرا من وصمة الرذائل
فزهرة الشباب تلقى في الردى
على قبيح الفعل ذا انكباب
كالهجم الرعاع في المناهي
أو فاضلا أو عالما خيرا
رجوع صدق إنه ثواب
والحمد للإله رب العالمين
وقفه الله لفعل محمد

حمدا لمن قد جعل الدروسا
ونكتسي بها جمالا وبها
يسير سير حازم لا يرعوي
يرشف من مناهل العلوم
لكل يوم طلب جديد
أوصيك يا شباب هذا الوقت
حافظ على دينك واتبعن سنن
إذا حفظت الدين يا بشراكا
وقدم الشرع على العادات
واترك عليك الخمر والدخانا
وجانب الخبث والأنجاسا
واختر لصحبتك من تراه
وأصعد إلى معارج المعالي
كن حذرا لا تغترر بالناس
فديننا حث على الفضائل
ولا تمل إلى الهوى عن الهدى
فقد رأيت غالب الشباب
تراهم في الخان والمقاهي
لا يراعون إن رأوا كبيرا
فارجع إلى مولاك يا شباب
نسألك اللهم حفظ المسلمين
نظمها نجل العبيدي أحمد

وفي اليوم العاشر من محرم عام 1353هـ / 17-4-1934م، أتم الشيخ الطاهر العبيدي تفسيره للقرآن الكريم، وعاشت تقرت مهرجانا عظيما، وهنا نظم الشيخ أحمد قصيدة لهذه المناسبة جاء فيها:

ييدي لنا الماضي وما قد ياتي
مستجمع الأحكام والرغبات
فالناس لا تخشى أليم شتات
وبعزمة مثل الأولى الأثبات
ترقى العلا وتفوز بالدرجات
لكتاب رب قامع الشبهات
لناس يخرجهم من الظلمات
تنجي من الأهوال والآفات
والقبر يحكي أهبج الروضات
يلقى ويبل الخوف في العرصات
—هادي الورى للرشد والخيرات
أولادكم كي يظفروا بهبات
وعلومه في جملة الأوقات
—علم الصحيح السادة القادات
وهم الشفاء لمعضل الكربات
الطاهر التحرير ذو النفحات
لله درك يا أبا البركات
للسالك الراقي إلى الحضرات
أن صار في أحواز تقريبات

نزل الكتاب المحكم الآيات
فتراه يا باغي الديانة والهدى
مادامت الآمال عالقة به
يا فوز من عانى الكتاب بهمة
فاقدر كتاب الله حق القدر كي
واعلم بأن خيارنا متعلم
أو من يعلمه رجاء ثوابه
فتلاوة القرآن حصن مانع
يكسى بها التالي جمالا هنا
وينال ما يرجوه في الأخرى ولا
فكمال أمة أحمد بكتابها الـ
كونوا عليه عاكفين وعلموا
وتعلموا تفسيره وبيانه
عن كمل الأشياخ أهل الدين والـ
فهم الضياء إذا الحوالك غيمت
من أكبر الأشياخ بدر دياركم
قد جاء مثل الغيث في تفسيره
أوضحت من روح اليان كما تشا
وكذا الخطيب كشفت غامضه إلى

وثعالبي¹ جزائري بجواهر
والصاوي بدر الدين والجمل الذي
وأبو البقا إعرابه العذب الذي
مع ما تزيد من الفوائد ذاكرة
كل الفنون حوت دروسك من يرم
عضوا على تحقيقه بنواجذ
بالعلم تنتعش الشعوب وتحتمي
فهو الفريد بعصرنا وبمصرنا
حضر الرضى الخضر الحسيني درس ذا
فاهتز من عجب وقال قليلة
أخذ العلوم على شيوخ جلة
وأجازه أשיاخه في كلها
من كان طودا في العلوم فرينا
عمرت به تقرت وقتا لم يطل
فأتى لها أستاذنا من بعده
أنهى ابن موسى درسه الغالي (وإن
فبنى على أس بنا أستاذاه
لهما جرى مثل الجلالين الخـ
يا ربنا احفظ شيخنا وتوله

زينت جيد دروسك العطرات
سلمت كتابه من العثرات
سلك الصواب وأوضح الآيات
جمعا لأقوال بتحريرات
نفعا كثيرا عاجلا فليات
وتنافسوا في العلم قبل فوات
وتعيش في أمن من النكبات
علما ودينا واقتدا بهداة
بالوادي في التفسير مذ سنوات
أمثال ذا في هذه الأناث
بالواد والخضراء² بيت سراة
كسليل موسى مرجع السادات
يجري عليه هواطل الرحمات
والموت يذكي هاذم اللذات
عوذته من حسد وبغاة
عزموا الطلاق) وسار للجنات
أدبا وعامله بحسن نيات
لى والسيوطي طيب الحالات
باللطف في السكنات والحركات

¹ ألف الشيخ عبد الرحمن الثعالبي تفسيراً في القرآن الكريم عنوانه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن). أما الشيخ العلامة أحمد بن محمد الصاوي المالكي فألف حاشية على تفسير الجلالين في ثلاثة أجزاء. وألف سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل المتوفى عام 1204هـ، كتاباً في أربعة أجزاء عنوانه «الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية».

وألف محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكيري كتاباً عنوانه (ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن).

² الخضراء، وصف لمدينة تونس، حيث درس الشيخ في جامع الزيتونة.

وأدم لنفع المسلمين بقاءه
يهنيك ختم جل موقعه وقد
من سالف الأعصار والعلماء في
وبرحلة العياشي¹ لما حلها
والحمد لله الكريم فأنتم
لكنكم غادرتم أبناءكم
ما هكذا يرضى الودود لنجله
والمرء راع في بنيه وأهله
أعطوا القراءة حقها لا تعرضوا
في خدمة العلم الشريف نظمتمها
جهد المقل أتتك تلمس الرضى
سقيت غروس قريظها من بحر كم
وعلى الرسول وآله وصحابه
ما فاح مسك الختم في ناد وما
من شك في الغفران عند الختم لا
فادعوا إلهما يستجيب لمن دعا
وابن العبيدي أحمد يرجو له

يقري العويس بحسن إدراكات
سبقت به تقرت في الحلبات
تقرت موجودون أهل ثبات
ألقى بها فقها ذوى هيئات
بوجود هذا الخبر في مرقاة
يسقون مر الجهل في دركات
تركوا الدروس ولازموا الحانات
فعليه مشيهم بطرق نجاة
وتيقظوا من سكرة الغفلات
أرجو إلهي العفو عن زلاتي
بقبولكم تسمو على الشرفات
إذ أنتم أصلي وروح حياتي
أزكى السلام وعاطر الصلوات
رفعت أكف الخلق للدعوات
يعطى له ويخور بالهفوات
يولي الجزيل ويغسل الخوبات
ولكم ختام الخير عند وفاة

¹ 43- رحلة العياشي واسمه أبو سليم عبد الله بن محمد العياشي. ولد بقبيلة آيت عياش قرب تافيلالت بجنوب المغرب في شعبان 1037هـ/ ماي 1628م.

ألف رحلة سماها (ماء الموائد) وهي رحلة ضخمة ضمنها أخبارا وحوادث مختلفة شاهدها أو سمعها أثناء أسفاره، وأهم ما فيها وصف لطريق الصحراء والسكان والعادات وأحوال المعاش والأمن والحديث عن العلماء والدين وأتباع المسافرين، ورغم الاستطرادات الطويلة، فإن للرحلة قيمة لفتت أنظار المستشرقين الذين ترجموها كاملة أو جزءا منها وأنشؤا عليها. وقد خصص العياشي صفحات عديدة في الجزأين من كتابه للجنوب الجزائري ولمدنه ولعلمائه ولتاريخه. توفي بسبب الطاعون بالمغرب الأقصى عام 1090هـ/ 1679م.

انظر: مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الطبعة 2 الجزائر 1981، ص 17-18.

رسالة تحفة المصلي على النبي صلى الله عليه وسلم

لناظمها فقير ربه أحمد بن العبيدي الوادي رزقه الله خير الدارين آمين وهي:

يقول أحمد العبيدي المرتجي	من ربه سلوك خير منهج
الحمد لله الذي صلى على	نبيه محمد وبجلا
مع ملائكته وأمرنا	أصحاب الإيمان بها بلا مرا
ثم الصلاة والسلام الزاهر	يغشى نبينا الحبيب الطاهر
وآله وجملة الأتباع	ما قام لله بحق داع
وبعد فالقصد بذا النظام	ذكر الذي ينعش كل ظام
وهو صلاتنا على التهامي	وذكر فضلها الجليل السامي
سميته بتحفة المصلي	على الرسول المرتضى الأجل
ذكرت بعض ما أتى المولى حسن	العدوي في شرحه الكافي حسن
على الدلائل عظيم الفائده	وهو نفيس فاقصدوا موائده
فقلت يا رباه ذا الجلال	أسألك العون بكل حال
إن صلاتنا على الأمين	صلى عليه الله كل حين
لمن أجل المكرمات والقرب	بها تزول الأزمات والكرب
وتغفر الذنوب والأوزار	بما نظمت وردت آثار
وتصقل الصدى من القلب وزد	توصل لله بلا شيخ فجد
وإن تصل فصلاة الله	عليك يا هذا بلا اشتباه
واحدة بعشرة إن قبلا	ربحت يا هذا وكعبك علا
وهي تنيلك شفاعة الرسول	والفوز أيضا بقضاء كل سول

تجني من الأكدار في الدنيا وفي
رفع منازل وحوارا مع قصور
وإن تصل أو تسلم بلغت
وهو يرد مثل ما تحيي
وتارة بغير أملاك تصل
تركو بها أعمالنا ويكتب
لقائلها تطلب الغفرانا
فاجعل صلاتك عليه كلها
وهي للذنوب من الماء الشبم
إنه من عتق الرقاب أفضل
يشهد طه لك بالصلاة
تنال من رب الرضى وتكفى
وترد الخوض بها وتشفى
تكون نورا في الصراط واسعا
بها الموازين تكون راجحه
كما تكون سببا لرؤيتك
وإن تكثر تراه في اليقظه
وعند موتك تهتئ بالمنى
يحضرك الحبيب عند السكرات
تفوق عن عشرين غزوة كما
بها المجالس تكون مشرقه
مائة حاجة بها تقضى لمن
ينفعك الله بها أحبا إليها

يوم القيام تلقى خيرها الوفي
إياك أن تكون من أهل القصور
له بواسطة أملاك سميت
لأنه في القبر خير حي
كما في ردّ الروح جاء فقبل
قيراط أجر مثل أحد فارغبوا
والكيل بالمكيال الأوفى بانا
له لتحي بمحصل المشتهى
لنار أمحى والسلام قد علم
كما عن الصديق هذا نقلوا
إذا تصلي فاحظ بالصلات
سخطا وتحت ظل عرش تلقى
من ظمأ حر الغليل يظفا
حتى تجوز يا أخيتي مسرعا
أكرم بها خلّة ربح ناجحه
طه البشير المصطفى في نومتك
ياربنا امنحنا قلوبا يقظه
وكل ما تعطاه في دار هنا
والمر يحلو وتفوز بالثبات
تزيل فقرا ضيق عيش فاعلما
وهي لمعدم كعرف الصدقه
صلى عليه مائة طول الزمن
وكل من أهديته ثوابها

وهي طهارة وينمو المال
تكسب حب الخلق والطهارة
وتورث النصر على الاعداء
تطيب النادي وما تنسى بها
وإن أردت أن تكون سالما
وسالما من الدعا عليك
طريق جنة وإن تركنا
حذار من ترك الصلاة عندا
فإن من أحب شيئا أكثرا
تطلب في أوقات خير عينت
عند إقامة وبعدها وفي
وبعد صبح مغرب إجابة
عند قيام النوم للصلاة
إدخالهم قبرا وفي الخطب مع
كذاك عند رؤية للكعبة
عند استلام حجر والملتزم
وفي عشية ليوم عرفه
كذاك في مسجد خيف لمنى
وعند رؤية لطية أوي
وخطبة التزويج قصد النوم
عند خروجك لسوق وسفر
ركوب دابة وعند الهم
كذاك في طرقي النهار مع
إن خدرت رجلك أو عطست

حقا بها أيضا على ما قالوا
من النفاق يا لها بشاره
فالهج بها تنف عضال الداء
تكون ذاكرة فكن منتبها
من إثم بخل كن لها ملازما
برغم أنفك كما تهديكا
أخطاته وخيرها حرمتا
ذكر اسمه الشريف يا مفدى
من ذكره بشدة واستهترا
مثل فراغ من وضوء قد ثبت
تشهد وفي القنوت فاعرف
مؤذن ليلة يوم جمعة
بالليل غمض بصر الأموات
جنائز مرور مسجد جمع
مع وقوف بالصفاء والروة
فراغ تلبية أيضا يلتزم
يا فوز من حضره وعرفه
نسألك اللهم إدراك المنى
آثار طه المجتبي كما روي
وفي دخول منزل للقوم
قليل نوم يشتكي ضر السهر
والكرب إلام لفقر غم
صدر الدعا آخره وسط تقع
وتوبة من ذنب إن أجمرت

رسائل خوف الوقوع في الردى
طين أذن فرقة بعد اجتماع
في العلم والحديث فالزم بخشوع
فدائما صل عليه وكفى
أرجو قبولها من اللطيف
ثم صلاة الله تترى بدوام
والعلما الأخيار أسد الغاب
وامثل الأمر مطيع فانتهى

وبعد بسملة أيضا وابتدا
عند لقا الإخوان قل وفي استماع
وعند ختم للقرآن والشروع
مهما كتبت اسم النبي المصطفى
نظمتها في مجلس لطيف
والحمد لله ببدء وختام
عليه والآل مع الأصحاب
ما ناح قمري على غصن زهى

هذه طريق الأمانى لحل ألغاز حرز الأمانى

البدور السبعة ورواتهم وبعض ألغاز الشاطبية

نجل كثير قبل والبزي
الدوري والسوسي عنه نقلا منه
ابن ذكوان هشام أيضا
من علمه المتين عاطر الشذى
أما الكسائي الفقى المشرف
وحفص الدوري ونعم ما ورث
صحبة حمزة الكسائي شعبه
حق أبو عمرو ومكي العامر
ونفر مكي بن عامر علا
لنافع وابن كثير يا فقى
حصن منيع للأنام عاصم
وعاصم يجعل حرف الثاء

نافع قالون وورش حرزي
ثم أبو عمرو عيت ابن العلا
كذا ابن عامر تلقى فيضا
وعاصم شعبة حفص أخذا
حمزة خلاد الرضى وخلف
فراويه ليثهم أبو الحرث
صحاب الكسائي حفص حمزه
عم لنافع ونجل عامر
سما لمكي نافع وابن العلا
مع أبي عمرو وحرمي أتى
نافع حمزة الكسائي عاصم
للكوفيين حمزة الكسائي

ثم لمكي الكوفيين ظاء
عامر الشامي الرضى ذي الفضل
غين وشين للكسائي حمزة
ورش ودال أبي كثير يافهم
حا لأبي عمرو وطا لدوري استفد
كاف ابن عامر بدون ريب
سلیل ذكوان عظیم الجاه
عين الحفص فا أتت الحمزة
أعط خلاد بلا خلاف
والتاء للدوري حفص ختمت
فرمت في ذا النظم عنه كشفا
يرجو من المولى ختما يحمد
وآله وصحبه ومن وفي

لسبعة لا المدني خاء
ذال لأهل كوفة ونجل
ولأبي عمرو وأهل كوفة
أنافع وبا لقالون وجيم
وها لبزي زاي قبل وزد
والياء للسوسي أبي شعيب
لام هشام ميم عبد الله
ونون عاصم وصاد شعبة
لخلف صاد وحرف القاف
راء الكسائي سين ليثهم رست
حرز الأماي رمزها قد يخفى
قد قال ذا نجل العبيدي أحمد
مصليا على الحبيب المصطفى

كما نظم قصيدة بمناسبة استقلال الجزائر عام 1382هـ/1962م

وقد كتبها بخطه، وهي محفوظة عندي، يقول فيها:

فشكرا يا إله العالمينا
منانا واسترحنا آمينا
من المستعمرين الأذلينا
وما أبدت لنا صدرا حنيئا
تراعي الحق مثل العادلينا
جهارا لا ترى عهدا ودينا

تحررت الجزائر واستقلت
بهمة جبهة التحرير لننا
وقد كنا نكابد مدهشات
وسامتنا فرنسا كل سوء
معالم ديننا طمست وليست
وجارت في الخواضر والبوادي

وزادت في العتو بلا توان
غصبت الأرض من يد مالكيها
وجورك ما يعبره لسان
إذا ما دولة جارت، تراها
وشتتها الإله بكل فج
وفي التعليم لا إنصاف فيها
لما في الصدر من ضغن وحقد
إذا التلميذ منا قربته
تؤخره وتضرب في يديه
فيا أهل الجزائر شاركوني
كتاب الله سمناه ببخس
عوائد ديننا تركت وماتت
وذا القرآن بينكم ينادي
أبرضى ذو الديانة ما يراه
نساء كاسيات عاريات
كأن الله لم يفرض صياما
وكأس الخمر قد شربت جهارا
إلى ما ليس يحصى من عيوب
فتيهي يا جزائرننا دلالا
وأحمد العبيدي صاغ هذا

وما علمت مصر المعتدنا
وقتل النساء، بل والبنينا
ولا يلقى بكتب الأولينا
أزالت ملكها حقا يقينا
مشردة جزاء الظالمينا
فلا تلقي النصيحة في بنينا
وقد نصبت لضيعتنا كمينا
قريحته لنجح القارئنا
وتقطع من ثقافته الوتيننا
وكونوا للنصائح سامعينا
ولو قمنا بواجبه كفينا
وقلدنا الأجانب معتنينا
ويأمركم فكونوا عاملينا
من الفحشا بدين المسلمينا
وأولاد تراهم مهملينا
ولم يكتب صلاة الناسكينا
فمن هذا التهتك قد بلينا
فعفوا يا غياث المؤمنيننا
نجوت وذا طليق تحملينا
وأبعدت بحينا مستبيننا

وعند وفاة أخيه الشيخ الطاهر بتقرت يوم الأحد 28 شوال 1387هـ / 28-01-1968م، رثاه بقصيدتين، إذ كان يحترمه احتراما كبيرا ويسميه (سيدي الشيخ) والقصيدتان جمع فيهما حياته وصور نشاطه، والسبب الذي دعاه إلى رثاء أخيه بقصيدتين، أن الشيخ أحمد نظم القصيدة الأولى في خمس عشرة بيتا، فطلب منه ابن

أخيه الشيخ الطاهر، والمسمى المكي باختصار قصيدة أخرى حتى تنقش على رخامة
توضع على قبره، فنظم القصيدة الثانية وتتكون من عشر أبيات، يقول في الأولى:

لنظرة منك تجبوني وتحميني	كنا نؤمل أن تبقى إلى حين
والعلم ينشر والبشرى تحييني	والشمل مجتمع والناس في نعم
والموت يهتف في كل الأحايين	لكنما هذه الآمال كاذبة
بالخير والذكر والتدريس في الدين	قضيت فينا زمانا كنت تعمره
وفي الخابر تنميق بتحسين	هذي المنابر بالإرشاد تعمرها
كشفت عنها الغطا حقا بتبيين	إن العلوم إذا انسدت مسالكها
يا طاهر الذيل يازهر الرياحين	أبكي عليك بدمع لست أملكه
والحق يبدو على رغم الشياطين	وفي تأليفك الغراء مفتخر
لا ينطفي حرها ليوم تكفيني	ما دمت حيا ونار الفقد في كبدي
أو جئت بالنثر فاسمع للبراهين	إن جلت في النظم فاعجب من محاسنه
وفي فوادي حريق كاد يفريني	يا حسرتي ذهبت أيامه ومضى
ودرسك العذب مأوى للعراين	أفريت عمرك في القرآن تدرسه
ممتعا في نعيم الخلد بالعين	ثم ياعبيدي في تقرت مبتهجا
صبرا جميلا يسلي كل محزون	فيا ذويه وإني كنت أولهم
وجد بختم جميل منك يرضيني	رحماك يا رب بالأستاذ ترجمه

ويقول في الثانية :

ولد الشيخ طاهر ذو الشناء	رمز دال أي أربع ¹ في سناء
وثناء بالطلعة الزهراء	أي في الجاري من قرننا زاد فخرا

¹ يشير بذلك إلى رقم أربعة، أي عام 1304هـ/1886م، الذي هو تاريخ مولد الشيخ الطاهر.

وتلقى العلوم بالخضراء	حاز حفظ القرآن قبل بلوغ
جازهم ربنا بخير ثناء	وبالوادي على شيوخ فخام
للتحلي بالولية الشماء	وأجازوه في العلوم جميعا
فارتوت من علومه السحاء	جاء تقرت رمز باء وكاف ¹
ر وخمس مفيدة للرائي	وتألفه تزيد على عشـ
وراح لمزل السعداء	عاش فينا ثلاثة وثمانين
وارض وارحم واحشره في الفضلاء	جازه عن جهاده يا إلهي
ر على فقده فجد بعطاء	والعبيدي أحمد يطلب الصبـ

كان الشيخ أحمد يهوى الشعر الصوفي، إذ كان يقرظ الشعر لمدح شيوخ الطريقة الرحمانية العزوزية بالوادي مثل: الشيخ سيدي سالم العائب، وابنه الشيخ محمد الصالح وغيرهما. كما نظم قصيدة رائعة باللغة الفصحى يمدح فيها الشيخ عبد القادر الجيلاني، بالإضافة إلى ذلك، كان يهوى سماع الأغاني الصوفية المتداولة لدى أتباع الطريقة الرحمانية، وكان يحضر جلسات الحضرة لسماع المديح. وقد حملت إليه عام 1976م شريطا صوتيا يحتوي على بعض القصائد العزوزية ألقيت ليلة 27 رمضان بزاوية سيدي سالم، أسمعتة إياها بإقامته بالديار الخمس بالخراس، وقد تأثر كثيرا عند سماعها مما يؤكد اهتمامه البالغ بهذه الطبوع الجيدة. كما كانت له قصائد كثيرة يؤديها أتباع الطريقة الرحمانية في المناسبات المختلفة، وها هي نماذج منها:

قصيدة الشيخ أحمد العبيدي يمدح فيها شيخه سيدي سالم العائب² المولود عام 1186هـ والمتوفي عام 1277هـ.

¹ يعني بالباء والكاف رقم 22، أي أنه رجع من تونس بعد إتمام دراسته وتوجه إلى تقرت وعمره 22 سنة.

² الشيخ سيدي سالم بن محمد بن أحمد، ولد عام 1186هـ/1772م في وادي سوف، وترى يتيما في حجر والدته، رحل إلى تونس طلبا للعلم والعمل، ثم رجع إلى الوادي وانخرط في الطريقة الرحمانية، وفتح زاوية بالوادي لنشر العلوم الشرعية والقرآن الكريم، وكان ذلك عام 1206هـ/1791م، وقد تخرج منها آلاف الحفظة للقرآن الكريم، توفي الشيخ عام 1277هـ/1860م ودفن بزاويته بالوادي، انظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء، ص 174-176.

اللهم الله الله	اللهم الله الله	سالم ولي الله
قطب أهل الدائر	ربي عل مقامه	دنيا وآخره
يا فوز من يزور	ضريحك المبرور	أنت الصيد العقور
تغيث الحائر	يلوح عليك النور	إن جئت زائر
متع منك البصر	في القبه يا أبر	بهاها المعتبر
يزين الناظر	فاطلب ولا تضجر	فلست خاسر
هذا القطب الأمين	سراج المريدين	هذا الحصن المتين
سلومه الفاخر	بالله يا مسكين	زره لتظفر
حباك ربنا	جمالا وسنا	يا مبرئ الضنى
طبيبي الماهر	نرجوك تاتينا	يا شيخا بادرا
عار إذا تجفى	يا سلطان الوفا	يا صاحب الصفا
خديك بائرا	بحق المصطفى	اجعلني طاهرا
كليمه مرضيه	عن صالح ¹ شيخي	من زار الزاويه
بنه ظاهر	كل خطوه يا خوي	حسانات عشرا
سلم عليه وزيد	الصالح الفريد	ومصباح السعيد ²
ذي الهمة الباهر	من ربنا المجيد	أمدادهم سائرا
يا ربي ياربي	احفظ لي نسبي	ونسب العائب

¹ الشيخ سيدي محمد الصالح بن سيدي سالم، ولد بالوادي عام 1263هـ/1846م، أخذ المشيخة عن والده. وكان كثير التردد على زيارة الشيخ مصطفى بن عزوز بنفطة، ظهرت على يده كرامات ذكرها الشيخ إبراهيم بن عامر في كتابه البحر الطافح، أخذ عليه الشيخان الطاهر وأحمد العبيدي أوراد الطريقة الرحمانية، توفي الشيخ محمد الصالح في صفر عام 1335هـ/27-11-1916م ودفن بزاويته بالوادي. انظر: المرجع السابق ص176-182.

² الشيخ مصباح بن سيدي سالم رجل فقه وورع، عفيف اشتهر بتحكمه في علم الفرائض، ولد عام 1255هـ/1838م. أخذ تربيته الصوفية عن والده، ثم عن سيدي مصطفى بن عزوز بنفطة، عرف باجتهاده في العبادة وقيام الليل وأعمال البر والشفقة على الخلق، وكان غزير الدمعة، دائم الفكرة، توفي عام 1327هـ/1909م، عن عمر 73 عاما بعد أن مكث في المشيخة نحو نصف قرن، انظر: أضواء. ص176.

ساداتي الكبرا	بجاه الرببي	علال بن عمرا ¹
صل يا ذا الجلال	على النبي والآل	وصحبه الأبطال
شذاهم عاطرا	وارحم يا متعال	قطب أهل الدائرا
وقائل النظام	أحمد ذو الآثام	ابن العبيدي رام
حصول المغفره	ويرجو يا سلام	ختاما زاهرا

وله أيضا:

لا إله إلا الله	خالق الأكوان	طه رسول الله
الصادق العدنان	سالم طب العله	رائس الديوان
نبتدي نظامي	بعون المنان	وأزكى سلامي
في كل أزمان	للنبي التهامي	صاحب الفرقان
والآل الأسود	والصحب الشجعان	أصحاب الشهود
وأهل العرفان	والشيخ المقصود	سالم السلطان
مولى القبه الخضره	والسر الرباني	مداوم للحضره
بذكر الرحمان	شيخي باغي نبري	داويني بركاني
عجل يا عزيزي	واصلح لي جناني	بالغوث العزوزي ²
مرشد الإخوان	وعلاله فوزي	الزاهد الفاني

¹ الشيخ علي بن عمر ولد ببلدة طولقة عام 1166هـ/1752م. أخذ الطريقة على الشيخ بن عزوز، عاش 92 عاما - ما عدا سنوات الطفولة- في الوعظ والإرشاد والدعوة إلى طريق الحق، انتشرت على يده الطريقة في سائر أنحاء القطر الجزائري وكذلك في تونس والمغرب. توفي شهيدا يوم الخميس 3 ربيع الأول عام 1258هـ، ودفن بزاويته. انظر: أضواء ص 147-148.

² محمد بن عزوز البرجي هو رائد الطريقة الرحمانية في الجنوب الشرقي للقطر الجزائري وفي وسطه وفي الأوراس وفي تونس حتى سميت الطريقة باسم العزوزية. ولد بالبرج من صحراء بسكرة في حدود عام 1170هـ. اشتغل بتحصيل العلم. وأنجز تأليف عديدة. تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة، أدى فريضة الحج عام 1232هـ. وبعد رجوعه من الحج توفي بالوباء في العام نفسه ودفن بقرية البرج. انظر: أضواء ص 118.

أنقذ الغريقا	صرخة الجيران	بأهل الطريقا
في يوم الميزان	كن له رفيقا	في بحر الهجران
أسرارها قويه	غالية الشان	هذي الخلوتيه
مددها نوراني	طريقه مرضيه	شاعت في الأركان
وفي يوم المحشر	برضى الرحمان	يا داخلها أبشـر
تشرب من كيسان	في الجنة تتبختر	تبقى في أمان
سندها محرر	والفيض الرحمان	بالعلم تنفجر
عنها وصف لساني	مزاياها يقصر	ساطع البرهان
تكرم بالقرب	أدخلني واخواني	في حماها ربي
العائب حناني	رض عني حبي	للعبيدي الفاني

وله أيضا في شيخه سيدي سالم:

زورو ضريح نور الصحر	إذا تريدون ذخرا	أيا سادتي يافقرا
عنه الرضى والغفران	العائب إمام الزمره	سلومه صاحب البرهان
طه نبينا المكرم	والصلاة على المعظم	باسم الإله نبدا ننظم
عنه الرضى والغفران	العائب إمام الزمره	غدح على غالي الشان
عليك هذي الخلوتيه	ترقى المراقي العليه	إذا تريد يا أخي
عنه الرضى والغفران	العائب إمام الزمره	هي طريق الضمان
لهم سخا وزهاده	أهل العلوم والإفاده	طريقة الرجال الساده
عنه الرضى والغفران	العائب إمام الزمره	شربوا كؤوس العرفان
على الحدود واقفون	سكارى وعارفون	أقطاب ومؤلفون
عنه الرضى والغفران	العائب إمام الزمره	لاحت أنوارهم أعيان
شراب أهلها يدفق	في غربنا وفي المشرق	لهم شعاع عال مشرق
عنه الرضى والغفران	العائب إمام الزمره	على المريد كل أزمان

فاحت أسرار الطريقه	بسيدي سالم حقيقه	احفظ إلهي فريقه
واجعلهم في اعلى مكان	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
يا سالم يا شيخ الخلوه	أسقيني الخمر الحلو	يبرى قلبي ويروى
ويصير له لمعان	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
جيتك بجاه العزوزي	الغوث فاتح الرموز	وعلي كثر الكنوز
زول علي الأدران	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
بجاه الأزهر النصاح ¹	والتارزي ² ذي السماح	والحقني منعش الأرواح
ماحي النفوس والشيطان	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
والنجل سيدي مصباح	والصالح نخبة الملاح	صف عيوي واجراحي
أنا خديك حيران	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
أيا صدور المواكب	أيتكم دمعى سائب	فلا ترجعوني خائب
بالوصل خاطري مطمأن	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
يا صرختي قربوني	وفي الحمى أدخلوني	وبالوصل بشروني
نبقى معاكم يقظان	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
ورحمة الكريم العالي	على أستاذنا المفضال	الصالح درة الال
في الفضل فاق الأقران	العائب إمام الزمره	عنه الرضى والغفران
ونجل العبيدي يمدح	أهل الطريقه ويبرح	عسى الإله ربي يفتح

¹ هو سيدي محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف الأزهرى الجرجري، ولد فيما بين 1126 و 1133هـ في وطن آيت إسماعيل بجبال جرجرة في منطقة القبائل ولاية تيزي وزو، سافر إلى مصر وتزوج في القاهرة ودرس بجامعة الأزهر، ثم رجع إلى بلاده عام 1183هـ بعد غياب دام 30 سنة، ذاع صيته في الجزائر وكثر أتباعه، توفي ولم يعقب عام 1208هـ/ 1793م. انظر: المرجع السابق ص 61-63.5

² الشيخ محمد التارزي بن الشيخ محمد بن عزوز ولد عام 1227 أو 1228هـ بالبرج، ثم هاجر إلى نفطة بنجوب تونس عام 1260، ومنها توجه إلى المدينة المنورة عام 1310 فمكث بها شهرين وأياما، ومضى قبل وفاته بنحو 18 يوما، ثم توفي بها يوم السبت 7 أو 8 ربيع الثاني عام 1310هـ، فكان عمره 82 أو 83 عاما، ودفن بالبقيع، ألف كتابا، وله قصائد متعددة. انظر: المرجع السابق ص 126-127.

وينظمه في الإخوان	العائب إمام الزمـره	عنه الرضى والغفران
أزكى الصلاة والسلام	على الرسول التهامي	والآل أهل التسامي
كذا الصحابه الشجعان	العائب إمام الزمـره	عنه الرضى والغفران
والأولياء الكـرام	والعلماء الأعـلام	والتابعين بالـدوام
وسلومه صاحب البرهان	العائب إمام الزمـره	عنه الرضى والغفران
وله أيضا:		

الله لا إلا الله	لله ربي الدائم	حبيبي رسول الله	وشيخي سيدي سالم
باسم الإله القادر	الواحد المصور	أزكى سلام عاطر	عن طه أبي القاسم
ترقى بذي الطريقه	طريقه الحقيقه	أنوارها شريقه	رياضها مواسم
ثمـارها جنيـه	قطوفها دانيه	طريق الخلوته	السادة الأعـام
جاء بها العزوزي	الكاشف الرموز	مولى الثنا والفوز	غوث البرايا العالم
حباه ذو المعالي	زكاه في الكمال	سما على الرجال	في العرب والأعـام
خلا عن الرذائل	تحلى بالفـضائل	فزول الغوائل	واجعل قلبي ناعم
دليل أهل الحضرة	ذو بهجة ونظرة	أرق المريد بنظره	يصير في الأكـرام
ذكاره نفاع	ونوره لماع	وحصنه مناع	قرب تر المغـام
ربي علي الزاهد	وحفـوظه المجاهد ¹	كذاك غير واحد	على الصراط سالم
زول علي أضراري	يا بهجة الصحاري	بشيخك الأزهارى	والتارزي القاهـم
طال ندائي عنك	أرجو دواء منك	فأنت مولى البركه	بأمر رب قائـم
ظني بأن الشيخ	يزول الأوساخ	عني فإن تراخى	ير خديعه لائـم
كيفاش يا خلاني	شيخ الصفا خلاني	عار إذا يجفاني	ونا بجـو هائـم
لومي على السلطان	الصالح الفطـان	بن سالم ضو اعـياني	من فضله تعـاظم
ما أبـاه يا رفـقاي	عليه طال بكاي	باغيه ييري داي	ويقول عبدي ناجـم

¹ الشيخ عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الشريف الحنفي، ولد عام 1203هـ/ 1789م بمنـقة سيدي ناجي، شارك في ثورة الزعـاطشة عام 1849م ودعا إخوانه للجهاد، ألف أشعارا عديدة وله رسائل، توفي عام 1282هـ/ 1865م.
انظر: المرجع السابق، ص 168-169.

فالنوم عني حارم	صليني وبرد حرقني	في الغرب أو في الشرق	نأتيه مثل البرق
وعقدي فيكم جازم	عنكم كلامي مواتي	يا كمل السادات	صفت بكم أوقاتي
فضري متراكم	أشكو لكم أوصابي	يروم فتح الباب	ضيف على الاعتبار
يا فخرى سيدي سالم	حاشك ترضى خللي	وبالسخا والبذل	عرفتكم بالفضل
وانشره في العوالم	يا رب قو أمره	شراب كأس الخمره	غيور شيخ الزمره
بسيف عزم صارم	عطاب للأعادي	لطرق الرشاد	فحل الفحول الهادي
يكن معانا دائم	هنا وفي الجنان	ابن العبيدي الفاني	قولوا الخديم الجاني
تسير سيرا عازم	وبدر رشك لاح	وملأ البطاح	سرك سرى وفاح
ابن عمر الحازم	بجاه سيدي علي	يا عز الخلوتي	شاتيک تأتي لي
واحضري في العظام	واقبل مني أحياني	برد علي أحماني	هيا على سرحان
وليس لي سواكم	وفي قلبي اراجع	عن حبكم وهاجع	والله ماني راجع
في بحر ذنب عائم	أنا الخديم حقا	يا سادتي في حرقة	لا تتركوني ملقى
اغفر لهذا الناظم	بخاتم الأنبياء	يا واسع العطيه	يا خالق البريه

وله أيضا قصيدة يمدح فيها شيخه محمد الصالح بن سيدي سالم:

من جاء بالفرقان	صل على المختار	الله يا باري
وآله الأعيان	أهل الاصطفا والإنباه	والصحابه
الصالح السلطان	أبدا نظمي على الليث الحادر	باسم القادر
من بجره طوفان	عن يد شيخي مولى الطفحه	تأتي النفعه
وعامل بالإحسان	وارزقني مقام القرب	ثبت قلبي
أبعد عني الشيطان	من شر الهوى يا مراقب	جيتك هارب
وجهلة الديوان	بالأزهاري ورجال الخلوتي	حن علي
بعهدهم تزيان	وأنت للاشياخ وتمسك	خل نفسك
تبقى في الامان	شيخك يا مريد واحفظ حالك	دير قبالك
بكم يزول الران	وعم الارجا والاصقاعا	ذكرك شاعرا
فقت على الأقران	في رفع المقام قوى زادك	رببي رادك

زوره بالله
طبعي مال
ظني نرقى
كيف يرجع
ليس الفخر
من يتعرض
نورك لاح
صالح سيدي
ضاع دليلى
عارك رانى
غيرك لا شي
فوزي بيك
قل لي ناجي
سرك ساري
شاتي نظره
هو هو
واثق بالله
لا تبقوني
يا أسياي
والعبيدي
اغفر وزره

فان ذا المقام ييري العله
محتي في سيد الرجاله
بهمتك يا من أنار الطرقا
عن هذا الطريق وهوالأنفع
إلا في الأذكار والذخر
عن هذا الأستاذ علو تعرض
ونشر الفلاح منك فاح
نبغيك يا ذخري تاخذ بيدي
من فرقة الإمام الجليل
وقلبي مريض ماك تراني
حبك يا سلطان جا في جاشي
يا نور الطريق بادي بيك
يا هذا الخديم طبك ساجي
باذن الإله القهار
في وجهك الأنور نغره نغره
فخر المرشدين ذو الفتوه
هذا العبد أتاك تائه
من بين الإخوان كالمسجون
من يحب الشيخ في فؤادي
أحمد المسكين مد الأيدي
واشرح إله العالمين صدره

لا تشك يا إنسان
تزيد كل ازمان
يهدي الى الديان
من فضله قد بان
في يوم الميزان
ليس له جيران
يا منقذ الكسدان
في موقف الأحزان
احفظه يا رحمان
عجل لي بالبريان
فخلاني هيمان
أسق الفتى اللهفان
قبلت بالرضوان
عطفه على الحيران
يا صاحب البرهان
الصالح الحسان
أصلح له الجنان
بالمصطفى العدنان
من أعظم الخلان
بالذل يا حنان
وجملة الإخوان

وفي الختام. يتضح لنا أن الشيخ أحمد كان عالما في زمانه. وقد ساهم مساهمة معتبرة سواء في التعليم والتوجيه والوعظ والإرشاد. أو في ميدان التأليف. فرحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جناته. وجزاه عنا خير الجزاء. وقد قام جماعة من أهل الخير بإطلاق اسمه على

مدرسة¹ أسست بالوادي لتحفيظ القرآن الكريم ونشر العلم الشريف وهي تنشط مشكورة ومأجورة. وتساهم في بناء الجيل الجديد بناء إسلاميا عربيا ووطنيا.

¹ سميت مدرسة الشيخ العلامة أحمد العبيدي، أسستها جمعية البيان المتكونة من الأساتذة وحفظة القرآن الكريم من أبناء المنطقة. والهدف منها:

أ- تعليم القرآن الكريم حفظا وترتيلا وفهما وتفسيرا.
ب- إعداد وتكوين أساتذة ومعلمين للقرآن الكريم، لهم من المؤهلات والكفاءات ما تمكنهم من حمل رسالة التعليم القرآني الحديث.

وفتحت المدرسة أبوابها يوم الاثنين 17 فيفري 2003. وانطلقت الدراسة يوم السبت 22 فيفري 2003، وكان عدد الطلبة آنذاك 18 طالبا. حيث تفتح المدرسة أبوابها للطلبة والطالبات على مختلف مستوياتهم وخاصة من تتوافر فيهم الكفاءة العالية، والقدرة على الفهم والتحصيل.
تتبع المدرسة الأساليب الحديثة في تحفيظ القرآن، حيث يلقي الطالب الجزء المقرر حفظه من الأستاذ مباشرة ثم يستمع إلى تفسيره.

يتلقى الطلبة دروسا ومحاضرات تكوينية كالتفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وعلوم اللغة العربية... كما تمنح المدرسة للمتخرجين شهادة حفظ وختم للقرآن الكريم توهل الطالب للمشاركة في المسابقات المختلفة التي تنظمها الجهات المختصة.

بلغ المجموع الكلي لعدد الطلبة 346 طالبا يتوزعون على أفواج ومنهم من يتمتع بالنظام الداخلي وعددهم 34. تحوص إدارة المدرسة التي يوجد مقرها بحي النور ومقر إقامة الطلبة بحي المنظر الجميل، بمجد واجتهاد على النهوض برسالة التعليم القرآني الحديث وتطويره، وفق المناهج العلمية الحديثة والأساليب المعاصرة

أهمية البحر الأبيض المتوسط في إستراتيجية الصراع بين الشرق والغرب منذ العهود القديمة إلى نهاية العصر الوسطى

د. رشيد باقة

جامعة باتنة

إذا كانت الحضارات الإنسانية الأولى قد نشأت على ضفاف الأنهار الكبيرة (النيل، دجلة والفرات، السند). أي في مصر وبلاد الرافدين و الهند¹. فلأن ذلك راجع، من دون شك، إلى توفر أهم عنصرين في الطبيعة. التربة الخصبة والحرارة الكافية. وهما العنصران اللذان يساعدان على نمو الأعشاب والمحاصيل الزراعية على اختلاف فصول السنة. وهذا ما كان يحتاج إليه الجنس البشري في تلك الحقبة المتقدمة لضمان معيشته البسيطة التي تقوم، في الأساس، على الزراعة والرعي. فمن المعلوم أن مجموعة الحضارات التي أقامها الإنسان في العهود القديمة قد ظهرت بصفة خاصة على ضفاف البحر المتوسط². وهي الحضارات الفينيقية و الإغريقية و الرومانية و الإسلامية. فعلى أطراف هذا البحر تأسست عواصم كبرى مثل: صور، قرطاجة، أثينا، الإسكندرية، روما والمهدية.

¹ أول ما ظهرت الحضارة كانت بمنطقة بلاد الرافدين ومصر، خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، ثم، بعد ذلك، بألف سنة، ظهرت على ضفاف نهر الهندوس. للمزيد، راجع :

- رولان بريتون : جغرافية الحضارات، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1993، ص 56-7.

- رالف لنتون : شجرة الحضارة . ج II ، موفم للنشر، 1990، ص 258-60.

- كتب المؤرخ الكبير فرناند برودل بخصوص تأخر ظهور الحضارة على ضفاف البحر، مقارنة بحضارة الأنهار: L'eau salee est en retard sur les miracles de l'eau douce des fleuves. ».

paris. 998. P69، de Fallois،² F.Braudel: Les mémoires de la Méditerranée. Ed

ومن الممكن ربط قيام هذه الحضارات التي ظهرت على ضفاف البحر المتوسط بعامل الطبيعة أيضا، على اعتبار أن مناخ هذا البحر يتميز بالاعتدال في الحرارة والرطوبة على مدى طول السنة، بما يسمح لسكانه من القيام بأنشطتهم اليومية المعتادة من دون عوائق طبيعية. غير أن ما يميز مدنات البحر المتوسط عن سابقتها التي نشأت على ضفاف الأنهار، أنها لم تقتصر على الميدان الزراعي فحسب. بل إن مدنات عالم البحر الأبيض المتوسط تميزت بالتنوع في أساليبها ومجالات أنشطتها، وبخاصة التجارية والحرفية.

فمنذ البداية كان عامل نقص الأراضي الصالحة للزراعة بالأقاليم المحيطة بحوض البحر الأبيض المتوسط الدافع الأساسي الذي حفز السكان إلى التفكير في وسائل جديدة للعيش بأن ولوا وجوههم شطر البحر لاستغلاله في الصيد والتجارة. وتطلب الأمر، مع مرور الوقت، بناء القوارب التي تساق بالمجاديف، والمغامرة بها في الموانئ المجاورة.¹ ثم جاءت، بعد ذلك، مرحلة اكتشاف بعض المعادن والمواد الأولية، مثل: البرونز والنحاس والذهب الفضة، والاهتداء إلى منافعها، بتحويلها وتشكيلها في صورة أواني وأدوات وحلي وأسلحة، التي ما لبثت أن استهوت الناس، فأخذوا يقبلون على اقتنائها والمتاجرة فيها. وبمرور الوقت، ظهرت الحاجة لدى البعض، خصوصا عندما كثر الطلب على هذه المعادن، إلى البحث عنها في الأقاليم البعيدة والمتاجرة فيها.² وعاش البحر المتوسط على إيقاع هذه الحركة التجارية لقرون طويلة. كما مكنت هذه المغامرة المربحة في البحر أصحابها، بالموازاة لذلك، من إقامة قواعد

¹ Armstrong: the Early Mariners, (London, 1967). P 18-20.

² تحدثت النصوص الميثولوجية التي تعود إلى العهد السومري عن استيراد الخشب من لبنان. كما أظهرت بالموازاة بعض الألواح المدونة بالكتابة المسمارية التي عثرت عليها الحفريات الأثرية في تل العمارنة بوسط مصر. والتي تعود على عهد الفرعون إمنحتب الرابع (1367-1347 ق م) عن وجود تبادل للبضائع بين بلاد الرافدين ومصر وسكان منطقة فينيقيا. راجع للمزيد:

- Dictionnaire de la civilisation mésopotamiennes / sous la Direction de laffont. p38 . ،Robert ،ed ،Francis Joannes

ومحطات للاستراحة والتموين سرعان ما اتسع نطاقها إلى أن أضحت مدنا كبيرة مزدهرة تعج بالنشاط والحياة المترفة. وإلى هذه الفترة أخذت حركة الهجرات البشرية واتساع ظاهرة العمران تنمو وتتمركز حول ضفاف البحر المتوسط. في حين بدأت المدن الزراعية القديمة التي نشأت حول الأهوار الداخلية في التراجع والاضمحلال.

لذلك لم يكن من باب المصادفة أن يلتفت الفيلسوف والجغرافي اليوناني أفلاطون Platon (428 - 348 ق.م) إلى ظاهرة انتشار البشر بأعداد كثيفة حول الأراضي المحيطة بالبحر المتوسط على عهده. فكتب يصور بدقة فائقة هذه الحال قائلا: "لم نكن نقطن من الأرض سوى الجزء الممتد من مياه فازا phase (بحر إيجة) إلى أعمدة هرقل Colones d'Hercule (جبل طارق)، و الناس على جوانبه كأهم غل أو ضفادع حول مستنقع".¹ فالبحر المتوسط، الذي يقع بين ملتقى ثلاث قارات ويشكل حوضا مائيا شبه مغلق، كان على مر العصور القلب النابض بالحياة ومنطقة اجتذاب للهجرات البشرية للعيش والاستقرار وبناء العمران على أطرافه. فعلى شواطئ هذا البحر الجميل، وتحت سمائه الزرقاء المشرقة ومناخه اللطيف، تفتحت المدن العامرة وانتظمت الحياة بها، وعم الرخاء والازدهار أرجائها. ولا تخلو كتب التاريخ، سواء من العهد القديم أو الوسيط، من الإشارة إلى مختلف المدائن التي انتشرت على ضفاف حوض المتوسط، والشعوب المهاجرة التي استوطنتها، وفصول الحرب والسلم التي دارت بينها. ونكتفي، في هذا الشأن، بذكر ما كتبه أحد الجغرافيين المسلمين. أبي بكر الزهري، المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري. حول أهمية منطقة حوض البحر المتوسط في استقطاب الناس للعيش فيها والاستقرار بها وبناء العمران: ".... وليس في معمور الأرض أكثر عمارة من هذا البحر، وذلك أنه معمور الجانبين لا

¹ وول ديورنت : قصة الحضارة . مج6، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، ص9

- كلود الماس : تاريخ الحضارة الأوربية . منشورات عويدات، ط11، 1982، ص8

تقطع العمارة فيه، يكاد الناس يتعاطون السراج عليه من الضفتين لكثرة المسكن. وذلك أنه يسكن عليه أمم كثيرة من الجانبين ..»¹.

والواقع أن الأمم التي انتشرت على أطراف المتوسط أدركت، منذ البداية، أهمية هذا البحر من حيث أنه يتوسط القارات الثلاثة التي يتألف منها العالم القديم، وهي قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا. كما أنه يشكل طريقا مائيا سهلا للاتصال يربط بين أكثر أجزاء تلك القارات نشاطا في ميدان الحضارة البشرية. بما يضمن لم تعود له الغلبة على مياه هذا البحر، من أن يفرض نفوذه و سيطرته على جميع تلك الأجزاء، ويمكنه، بالتالي، من تحقيق السيادة الإستراتيجية والتفوق الاقتصادي. ومن هذا المنطلق أخذت الدول الكبرى التي تأسست على أطراف البحر المتوسط، منذ العهود القديمة إلى نهاية العصور الوسطى، تتسابق لانتزاع السيطرة على مياه هذا البحر وإخضاعه لنفوذه، باعتباره مفتاح التفوق على جميع الدول المحيط به.

* الفينيقيون أول أمة تحقق السيادة على البحر المتوسط

وهكذا فمنذ أن استقر الفينيقيون، منذ مطلع الألفية الثالثة قبل الميلاد، عند إقليم الساحل الشرقي الجنوبي للبحر المتوسط. وهي رقعة ضيقة من الأرض تمتد على الشريط الساحلي من نهر العاص شمالا إلى مدينة حيفا في الجنوب.² وجدوا أنفسهم، بسبب تناقص المساحات الأرضية الصالحة للزراعة، مجبرين على التوجه صوب البحر للبحث عن فرص العيش والنجاح. وانقطعوا إلى الأعمال البحرية، الصيد والتجارة. مستفيدين من مواقع مرافئهم، ومستثمرين الموارد التي توفرها غابات لبنان من الأخشاب الجيدة لبناء المراكب. ولقد مهر الفينيقيون في بناء السفن وركوب البحر بهمة وشجاعة، وقصد ملاحيتهم بكل جرأة الشواطئ المجاورة سعيا وراء البحث على المواد الأولية وإيجاد أسواق لتصريف سلعهم. وقد نشطوا في كل اتجاه وتاجروا في كل البضائع. وبمرور الوقت عظم نشاطهم البحري والتجاري في الحوض الشرقي

¹ كتاب الجغرافيا. تحقيق محمد حاج صادق، منشورة في: 1968. T21. Bulletin Etudes Orientales، p179

² C.Autran : les phéniciens. (paris 1920) .p31.

للمتوسط. فأقاموا علاقات تجارية مع مملكتي يهودا وإسرائيل في فلسطين. ومع فراعنة مصر ليصدروا لهم الأخشاب والمعادن.¹ واشتهر الفينيقيون، خلال هذه الفترة، كأكبر موردي أخشاب الأرز للفراعنة الذين كانوا يستعملونها في العمارة وبناء السفن النهرية.² كما نسجوا، بالموازاة لذلك، علاقات مشابهة مع سكان جزر البحر الإيحي وسواحل آسيا الصغرى وجزيرة قبرص، وأسسوا بها محطات تجارية لصلاحية مواقعها في منتصف الطريق بين فينيقيا ومصر وبلاد اليونان.³

وإلى الفينيقيين يعود الفضل الأول في تأسيس طريق التوابل عبر الجزيرة العربية وبلاد اليمن إلى أقاليم آسيا. وهي الطريق التي سوف يتبعها، في مراحل لاحقة، كل من الفرس والرومان والعرب.⁴ وما أن حلت الألفية الأولى قبل الميلاد حتى صار الفينيقيون أسياد التجارة على الضفة الشرقية للمتوسط، وأضحت مدينة صور، عاصمتهم الأولى، متجرة العالم بأسره، وورد ذكرها في الكتاب المقدس (التوراة) في أكثر من موضع. "... صور أيتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة..."⁵. "... تجار صيدون العابرون البحر، وغلتها زرع شبحور وحصاد النيل، فصارت متجرة الأمم."⁶ وربما ما ساعد الفينيقيون على الوصول إلى هذه

¹ أظهرت وثيقة من ورق البردي Papyrus تعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد عن وجود إشارات لبعثات مصرية أرسلت إلى بيلوس (الاسم الفنيقي لمدينة جبيل التي تقع شمال بيروت لشراء شجر الأرز. للمزيد، راجع: - Histoire de la Méditerranée / sous la Direction de Jean Carpentier & François Le brun . ed ،seuil ،1998. p32

² R .Armstrong : op cit ،p 21-22.

³ F.Braudel: Les Memoires de la Mediterranee ،p136.

⁴ Alexandre ،Moret : Histoire de L'Orient. TII. (2 & 1millenaires) ، puf ،paris ،St Michel ،1936. p604

-F.Braudel : La Méditerranée l'espace et l'histoire .Flammarion .1977 .p91 -G.Contenau : La civilisation Phénicienne .2ed ،(Paris 1949) p98-107.

⁵ الكتاب المقدس، سفر حزقيال، الإصحاح 27، 2، 3.

⁶ الكتاب المقدس، أشعيا. 23، 3

المكانة خلو الساحة من المنافسة بعد انهيار حضارة سكان جزر البحر الإيجي التي كانت تنزعمها كريت (3500 - 1450 ق م).¹

ولما كان ارتباط الفينيقيين بالبحر قد أضحي ضرورة حيوية لا يمكن بأي حال من الأحوال التفريط فيه. فقد عمدوا إلى استثمار الأموال الكثيرة التي جمعوها من وراء التجارة مع جيرانهم في الحوض الشرقي للمتوسط إلى توسيع ميدان أعمالهم إلى المناطق النائية مندفعين بعيدا نحو الغرب. ولقد أوصلتهم مغامراتهم البحرية، للبحث عن المواد الأولية وعن الأسواق لتصريف سلعهم، إلى سواحل شمال إفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية. كما كان الفينيقيون أول من دشّن طريق الملاحة البحري الذي يعبر مضيق أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) إلى المحيط الأطلسي والجزر البريطانية.² و سوف يبقى أهل فينيقيا بهذه الجهات، لعهود طويلة، يؤدون بامتياز دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب. وتحفظ حوليات الإغريق عن قصة لمغامرة بحرية قام بها أحد كبار أعيان المجتمع القرطاجي (حانون Hannon)، خلال منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قاده، بمحاذاة ساحل المحيط الأطلسي (Atlantide) جنوبا، حتى وصل إلى مصب نهر السنغال وجزر الرأس الأخضر.³

ولما كان الفينيقيون قوم تجاريون لا محاربون. فقد حرصوا على نسج علاقات ودية مع أهالي البلاد التي نزلوا بها، سمحت لهم في، بداية الأمر، بإقامة المستوطنات والمرافئ لتأمين قوافل التجارة. ثم اخذوا، مع مرور الوقت، يستقرون بها تدريجيا. كما مكنتهم سياستهم السمحة، كذلك، من إبرام اتفاقيات ومعاهدات مع حكام بعض الأقاليم لاستغلال مناجم المواد الأولية. ويتفق المؤرخون على أن الفينيقيين هم أول من أدخل المعاهدات السياسية

¹ وول ديورنت : مج 6، ص 44-45.

-F. Braudel : Les Memoires de la Mediterranee ,op.cit. ,p59-60

- G.Cloutz : la civilisation Egéenne. Ed ,A. Michel. (Paris 1923). p 363

² Cambridge Ancient history ,vol VII , (Cambridge 1928) p 167-8.

³ J. L. Gayet : Histoire du commerce de l'ancien monde jusqu'à la fin du XVs. Tl. ,Ed , Spid. Paris 1950. p40

والاتفاقيات التجارية في مجال العلاقات بين الأمم¹. إذ كثيرا ما كان تجار فينيقيا يعرضون على حكام المقاطعات التي تستهويهم خيراتها ويريدون العمل فيها، صيغا للتفاهم تسمح لهم باحتكار عملية استغلال المناجم والسلع في مقابل عمولات معلومة يقدمونها للحكام².

ووفق هذا النهج المتحضر أمكن الفينيقيون من استغلال مناجم الفضة في طروشة بجنوب إسبانيا، التي أضحت بفضل هذه المناجم، المركز الصناعي الأكثر أهمية في العالم في ذلك العهد³. كما انفردوا باستغلال مناجم القصدير L'étain في بريطانيا، ومناجم الذهب في إيرلندا⁴. وقد حقق الفينيقيون من وراء التجارة في هذه المواد الأولية أرباحا كثيرة استثمروها في بناء المدن والمستوطنات على امتداد الشريط الساحلي للبحر المتوسط. وساهمت هذه المستوطنات بدورها في بناء مجد وعظمة الفينيقيين. إلى درجة أن الرومان كانوا يطلقون على البحر الأبيض المتوسط "البحر السوري" *La mer Phénicienne*⁵.

ولقد كتب لإحدى تلك المدن التي شيدها الفينيقيون على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط. "قرطاجة" *Carthage*، التي تقع عند نقطة مختارة على الطريق التجاري الرابط بين مدينة صور وأعمدة هرقل، أن تصبح عاصمة لإمبراطورية مترامية الأطراف بسطت سيطرتها التامة على كل أجزاء حوض المتوسط لمدة تزيد عن سبعة قرون.

¹ Picard, G: la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal

(Librairie Hachette), 1958, p15.

² Cambridge Ancient history (vol VII, p 167.

-Sam Haber, Ernest: Histoire du commerce. ed, Artaud, (paris 1963. p 128.

-F, Braudel. : op cit, p111.

³ Picard, G: op cit, p15-6

⁴ Cambridge Ancient history (vol VII, p 167.

-Sam Haber, Ernest: op.cit, p128 /-F, Braudel. : op cit, p111.

⁵ Histoire de la méditerranée (op.cit, p33

* الإغريق والرومان ينتزعون السيادة على البحر المتوسط.

كان من الطبيعي أن يترعج سكان الجزر اليونانية من هذا النجاح الذي حققه جيروهم الفينيقيون والقرطاجيون في البحر المتوسط. لذلك اندفعوا يقتفون أثرهم في البحر بحثا عن فرصا أوسع للنجاح. إلى أن أوصلتهم حركتهم التوسعية، في مرحلة أولى، عند أطراف آسيا الصغرى وسواحل سورية، ثم بعد ذلك إلى غرب المتوسط. فاستعمروا صقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا، ووصلوا في اندفاعهم نحو الغرب إلى جنوب غالة وشبه الجزيرة الأيبيرية. ومن ذلك الوقت، أخذ الإغريق يزاحمون القرطاجيون الذين سبقوهم إلى هذه الأصقاع بزم من طويل في أعمال التجارة بموانئ غرب المتوسط وسواحلها، ودخلوا معهم في مواجهات عنيفة لانتزاع صقلية من أيديهم. ولكنهم فشلوا، واستمات الفينيقيون في الدفاع عنها. ودامت الحرب بينهما أكثر من مائتي 200 سنة (536-306 ق م)¹.

ولما فشلت جهود الإغريق في إيجاد موطن قدم لهم بالبحر الغربي، اضطروهم الحال إلى نقل أعمالهم الحربية وتركيزها في الحوض الشرقي. فحطوا رحالهم، في مرحلة أولى، على سواحل مصر الفرعونية وأخذوا يوطدون أقدامهم بها. مستفيدين من الضعف والانحلال الذي أمست فيه الدولة الفرعونية على عهد الأسرة السادسة والعشرين². وخلال هذه الفترة من التوسع اليوناني في الحوض الشرقي للمتوسط أمكن القائد العظيم الاسكندر المقدوني من إقامة مدينة الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط عند مصب النيل وجعلها عاصمته الجديدة³.

¹ وول ديورنت: قصة الحضارة، مج 6، ص 309

² محمود إبراهيم الصديقي: العلاقات المصرية اليونانية القديمة. من كتاب مصر وعالم

البحر المتوسط. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، طاء، القاهرة 1986، ص 3-52

³ بناها بتاريخ جانفي 331 ق م. وفي شأن بنائها يقول الإسكندر في مذكراته: "أنا الذي اخترت لها الموقع وصممت مخططها (العماري) وأوصيت المهندسين على تنفيذه بدقة قائلا لهم: هذه مدينتي وستكون إسكندريتي." أو كما جاء على لسانه في الترجمة الفرنسية:

« Cette ville c'est la mienne, dis- je sur un ton qui n'admettait aucune Réplique. Ce sera mon Alexandrie. »

- Les Mémoires D'Alexandre Le Grand, d'après Le manuscrit de

Babylone Traduit du grec par Pierre Comberousse, Ed, Les belles Lettre Paris 1983. p62-

قاصدا بذلك أن يجعل منها مركزا كبيرا للتبادل التجاري مع إفريقية وآسيا، وقاعدة بحرية أمامية تنطلق منها جيوشه لغزو آسيا الصغرى وانتزاعها من أيدي الفرس. ليضمن بذلك سيطرته على طرق التجارة ومنافذها عبر آسيا إلى البحر المتوسط، بعد أن ضمن السيطرة على منافذ طرق تجارة شرق إفريقية ومعاربها عبر نهر النيل.¹ وإلى هذه الفترة، التي شهدت قيام مستوطنات إغريقية على سواحل مصر الفرعونية، يرجع المؤرخون بداية انتقال علوم المصريين ومعارفهم وطقوسهم الدينية وعمارتهم إلى بلاد اليونان.²

و لما كانت عزيمة الاسكندر العظيم قوية لا تقهر في أن يرقى بأمته إلى مكانة العزة والسؤدد والتفوق على كل الشعوب المجاورة. وهي القناعة التي لقنها له أستاذه الفيلسوف أرسطو طاليس (384 - 322 ق م)، عندما كان تلميذا عنده.³ فقد أطلق الاسكندر العنان لما كان يسميه رغبته في ملاقاته الأخطار، وقاد حربا ضروسا لتحقيق هدفه الأسمى. وهو ضم منطقة البحر المتوسط كلها في وحدة ثقافية جامعة تسيطر عليها وتسمو بها حضارة بلاد اليونان. لذلك لم يكتف بما نال من مجد في الشرق، حيث

¹ P.Rossi : Cité d'Isis ou L'histoire vraie des Arabes. (Paris 1991) ، P28-29.

² E ،Bevan : A history of Egypt under the Ptolemique dynasty
(London ،1927) ، p 107.

-P.Rossi : op.cit. ، p29

³ يقول الإسكندر عن أستاذه أرسطو:

«...Aristote refusait ces limites «non par ce qu'il nous inculquer au cours de ses longues heures d'enseignements «mais par ce dont il était lui même capable «au-delà de toute résistance humaine. C'est là quelque chose qu'il n'a jamais révèle «mais que nous ressentions parfaitement «qui m'a poursuit toute ma vie et m'obsède encore. »

-Les Mémoires D'Alexander Le Grand.. p 32.

- أهتم جل المؤرخين المسلمين بذكر الأسكندر العظيم ومدحوا عبقريته وإنجازاته. ونكتفي بما كتبه الجغرافي اليعقوبي: "... وهو الذي يقال له دو القرنين واسم أمه، ألومفيدا. وكان معلمه أرسطو طاليس الحكيم، فجعل قدر الأسكندر، وعظم ملكه، واشتد سلطانه. وأعانتته الحكمة والعقل والمعرفة. وكان معه نخبة وبأس، وهمة عالية."

- تاريخ اليعقوبي، مجلد1، دار صادر بيروت. ص143

وصلت فتوحاته في بضع سنين، " إلى أقصى الهند وأوائل حدود الصين " ¹. بل أخذ، حسب ما كشف عنه هو شخصيا في مذكراته، يتجهز للقيام بحملة واسعة باتجاه الغرب للقضاء على قرطاجة، وإخضاع الحوض الغربي للبحر المتوسط لنفوذ وسيادة الأمة الإغريقية. ² لولا أن الموت باغته وهو في ريعان شبابه قبل أن يضع مخططة موضوع التنفيذ. ³

ولقد أعقب انحلال الإمبراطورية الإغريقية بوفاة الاسكندر، ظهور الرومان جيرانهم على البحر الأدرياتيكي، الذين رأوا أنهم أولى بوراثة الحضارة الهيلينية على أطراف المتوسط. وظلت فكرة إحياء مجد الاسكندر الأعظم تراود مخيلة حكام روما الذين أظهروا رغبة شديدة في امتلاك البحر المتوسط وتأسيس إمبراطورية رومانية لاتينية مترامية الأطراف شبيهة بتلك التي رسم معالمها الاسكندر مثلهم الأعلى.

ومنذ البداية أيقن الرومان الذين استفادوا، على ما يبدو من تجارب اليونان السابقة، أن مشروع كهذا لا يمكن أن يتأتى لهم إلا بالقضاء المبرح على قرطاجة ونفوذها في البحر المتوسط. لأجل ذلك رفعوا شعار "علينا أن ندمر قرطاج Dalenda est carthago" ⁴ واندفعوا، لأجل تحقيق هدفهم، في سلسلة من الحروب الطويلة ضد

¹ غريغوريوس الملطي : تاريخ مختصر الدول، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.. 1890 ص 58

² أعترف الإسكندر في مذكراته انه كان يخطط، بعد الانتهاء من غزو الهند والوصول إلى أقصى الشرق، بأن يتوجه، بعد ذلك مباشرة، إلى الجهات الغربية. أو كما جاء على لسانه : "... كان في نيّتي بعد الانتهاء من غزو الهند، أن أعرج على الجزيرة العربية وإثيوبيا لأن هذه الأقطار تسحرني، كما فكرت كذلك في إخضاع قرطاج والوصول إلى Cadix حيث ترتفع أعمدة هرقل التي كان قد وصل إليها Ulyse في رحلته..." للمزيد أنظر:

- Les Mémoires D'Alexandre Le Grand....P78

³ مات سنة 323م وعمره لا يتعدى 33 سنة. وبموته أثار المجد الذي بناه لأن الذين خلفوه لم يستطيعوا الحفاظ على منجزاته. إذ سرعان ما دب الخلاف بينهم، وخرجت الأرض التي فتحها القائد الإسكندر عن دائرة أملاك الدولة الإغريقية الهيلينية، ولم تمنع منها سوى مصر التي احتفظ بها بطليموس Ptolémée. للمزيد راجع :

- P.Roussel : la Grèce et l'orient des guerres Médiques à la conquête Romaine. Paris. p 310.

⁴ يعود مصدر القرار بدم مدينة قرطاج الذي وافق عليه مجلس الشيوخ بالإجماع في روما، إلى التقرير الذي رفعه النائب .../...

القرطاجيين استمرت مائة عام. هي ما اصطلح على تسميتها "بالحروب البونيقية Punicum Bellum (246 - 146 ق م)، التي كانت نهايتها بالفعل تدمير قرطاج ، والاستيلاء على ما تبقى من مستوطنات الفينيقيين بأقاليم الحوض الغربي للمتوسط، وجعلوا منها ولايات رومانية تابعة¹. Provincia Africa.

ومن مواقعهم الإفريقية هذه، انطلق الرومان، بعد ذلك، في عمليات عسكرية متواصلة لبسط سيادتهم على كامل أجزاء المتوسط. فاحتلوا إسبانيا وجنوب فرنسا. ثم أخذوا يتوسعون باتجاه الحوض الشرقي، وأمكهم الحال، في ظرف وجيز، من إخضاع أطراف بحر إيجه والجزر الموالية. كما واجهوا، أثناء ذلك، قوات البطالمة حكام مصر بقيادة الملكة كليوباترا وأوقعوا بها هزيمة ساحقة عند أكتيوم Actium سنة 31 ق م². ودانت لهم أرض مصر بعد ذلك، واستفادوا، كما حصل مع اليونانيين من قبل، من رصيدها الثقافي الضخم ومعينها التجاري الذي لا ينضب. ثم ما أن قُميات لهم سبل النجاح على أرض النيل الغنية حتى اندفعوا صوب سواحل غرب آسيا، فآخذوا سورية ومنطقة الأناضول وبلاد اليونان. ومنذ ذلك الوقت، هيمنت الحكومة الرومانية بعناية كبيرة ولمدة أربعمئة (400) سنة على كامل أجزاء البحر المتوسط

ماركوس بوركيسيوس كاتون Le Sénateur Caton. و كان هذا النائب قد كلف من قبل بالسفر إلى قرطاج لتقييم الأوضاع بها . وعند عودته أبلغ المجلس بالقناعة الأكيدة التي خلص إليها وهي: وجوب القضاء النهائي على قرطاج وحكومتها، لما شاهده من عناصر النشاط والعنفوان التي تتمتع بها الأمة القرطاجية ، بما يوحى بقرب عافيتها ونهضتها من جديد. ومما جاء في تقريره : "... إن الحروب السابقة التي خاضتها قرطاج ضد الرومان لم تضعفها بل زادت قوتها . كما أن الحرب التي تباشرها ضد النوميديين في الوقت الحاضر ما هي ، في الحقيقة، إلا مقدمة للحرب التي تستعد قرطاج لخوضها ضد روما...". للمزيد راجع تقرير النائب كاتون:

-Yann Le Bohec : Histoire romaine. Textes et Documents. (Presse Universitaire de France). 1997. p76-8

عن حروب الرومان وانتصاراتهم الكبيرة على القرطاجيين راجع كتاب العلامة مونتسكيو

- Montesquieu : considérations sur les causes de la Grandeur des romains et de leur décadence. (Paris 1878) , pp 106-120.

² عن أحداث معركة أكتيوم Actium المشهورة التي جرت وقائعها سنة 31 ق م بالقرب من الجزر الأيونية، راجع:

-Virgile : Enéide ,VII , 670-730 ,trad. ,André Belles sort ,Paris ,Les Belles Lettres. « Collection des Universités de France ». 1920

سياسيا واقتصاديا، وغدا حوض البحر المتوسط بأكمله مقصورا عليهم لا ينافسهم فيه أحد. إلى درجة أن مواطني الإمبراطورية صاروا ينظرون إلى هذا البحر وكأنه ملك خالص لهم، يدخل ضمن أملاك دولتهم، واعتادوا، تبعا لذلك، تسميته " بحرنا" ¹

.Mare- Nostrum

ثم حدث أن انهارت سلطة الرومان في كامل المقاطعات الغربية لحوض البحر المتوسط، مع نهاية القرن الخامس الميلادي، على إثر الاجتياح الكاسح للقبائل الجرمانية. ونتج جراء ذلك أن سقطت روما (المدينة الخالدة) في أيدي الغزاة. وقام أحد قادة هؤلاء القبائل البربرية (جنسريك) بعبور مضيق جبل طارق إلى شمال إفريقيا، ولم تلبث المدن الساحلية القوية التحصين ومعها سائر جزر الضفة الغربية أن سقطت الواحدة تلو الأخرى في أيدي هذا القائد البربري الجسور. ودامت سيطرة الوندال على مياه الحوض الغربي للمتوسط قرابة المائة عام، عانت خلالها موانئ المنطقة كثيرا من أخطار القرصنة. ²

ولم تتوقف أعمال التخريب والعدوان إلا مع مطلع القرن السادس الميلادي. عندما أخذ حكام القسطنطينية الذين عادت إليهم المسؤولية التاريخية في الدفاع عن إرث الحضارة الرومانية يعملون بحماسة لاسترداد الأراضي التي أغتصبها البرابرة بالجهات الغربية. وإلى إمبراطور القسطنطينية القوي جستنيان يرجع المؤرخون فضل ترتيب الأعمال الحربية الجريئة التي استهدفت، على نحو متواصل، استرجاع الأقاليم الغربية التي تسلطت عليها القبائل البربرية الغازية. إذ بعد حملات عسكرية متتالية وجهود حربية مضنية أشرف عليها قائد الجيش الحنك بلناريوس Belisarius تمت هزيمة

¹ Strabon : Géographie ,II , 5 , 18. trad. ,F. Lassere. Paris ,Les Belles lettres ,« Collection des Université de France ».1697

² عن غزو قبائل الوندال لشمال إفريقيا وما ألحقوه من خراب في الأوطان. راجع:

Vitensis : Historia persecutionis Africanae provinciae. - Victoris

Paris. 2002. (les Belles Lettres ,Textes traduits et commentes par Serge Lancel. Ed

Liv I , (10.11)

الوندال في شمال إفريقيا سنة 533م، والقوط الشرقيين Ostrogoth في إيطاليا سنة 544م. ومن منذ ذلك الوقت دخلت المنطقة من جديد في أحضان الدولة الرومانية التي أصبحت تعرف، ابتداء من هذه الحقبة، بالدولة البيزنطية. واكتسبت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية بذلك شرف السيطرة على شطري البحر المتوسط وعلى معابره ومجازيه ومضايقه. واستحقت بجدارة لقب: سيدة البحار. كما كانت عليه روما قبل سقوطها.¹ وظلت السيادة البيزنطية كاملة على مياه البحر المتوسط إلى أن جاءت الفتوحات الإسلامية فانتزعتها منهم.

* بحر الروم يصير بحيرة إسلامية .

عندما ظهر الإسلام بالجزيرة العربية وأخذ يتوسع شرقا وغربا، منذ مطلع القرن السابع للميلاد، تنبه المسلمون إلى مدى أهمية البحر المتوسط في الإستراتيجية الحربية لدولتهم الفتية. لذلك اعتبروه، منذ البداية، حدودا غير آمنة ينبغي تحصينها لصيانة ما حققوه من مكاسب وفتوحات على البر. وصدقت رؤيتهم مع مرور الوقت، عندما تبين لهم أنه ليس من اليسر عليهم الاحتفاظ بالأملاك التي كسبوها جراء الفتح في كل من مصر وأطراف الشام، من دون أن يضمنوا لها غطاء حربيا دفاعيا من جهة البحر. لذلك كان لابد من توجيه مزيدا من العناية للقوات البحرية لمواجهة الروم البيزنطيين الذين أخذوا، منذ أن فقدوا مواقعهم في مصر والشام، يركزون جل أعمارهم الحربية ضد المسلمين من جهة البحر.²

وكان أول قائد عربي تفتن إلى أهمية الجمع بين العمليات الحربية في البر والبحر على السواء. القائد معاوية بن أبي سفيان، على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، لولا أن الخليفة اعترض على مشروعه خوفا على الجند من أخطار البحر. " لا والذي بعث

¹ Stein (E) : Histoire du bas Empire ،TII ،Amsterdam 1949. p 339 .

² Edmund Bosworth : « les Armées du prophète stratégie tactique et Armement. » in l'islam d'hier à Aujourd'hui sous La direction de B.Lewis ،éd Bordas ،paris ،1981 ،p247

محمدا بالحق بشيرا لا أحمل فيه مسلما أبدا".¹ فلما كانت خلافة عثمان وعظم خطر الروم على السواحل والمواني الإسلامية، اقتضت الضرورة إلى وجوب المواجهة قبل أن يستفحل خطر الأعداء. عندئذ أخذ معاوية، بعد أن تلقى الضوء الأخضر من الخليفة عثمان²، يضطلع بمهمة تنظيم أسطول بحري إسلامي يرد به هجمات البيزنطيين عن السواحل الغربية.

وكان الذي حفز معاوية علي المضي قدما في هذا المشروع الكبير. حصول المسلمين على مجموعة من السفن الجاهزة عند فتحهم سواحل الشام ومصر.³ ودخول أعداد كبيرة من أهالي تلك البلاد (الأقباط والسوريون) ممن لهم خبرة ودراية بفنون الصناعة البحرية وركوب البحر في الإسلام. وصاروا جندا منتظمين في سبيل نشر رسالة الإسلام وكسب ثواب الجهاد.⁴ أضف إلى ذلك استيلاء المسلمين على بعض من دور الصناعات الحربية في كل من سورية والإسكندرية. فورثوا بذلك التقاليد الفينيقية والبيزنطية في فنون الملاحة وهندسة السفن، وصار بإمكانهم بناء سفن حربية وتجهيزها دون عناء.⁵

وهكذا فعندما قُيأت جميع السبل أمام حاكم ولاية الشام. وضع خطة لغزو المدن الساحلية والجزر القريبة، لانتزاعها من أيدي الروم البيزنطيين، الذين جعلوا منها

¹ الطبري : تاريخ الأمم والملوك. ج5، طبعة القاهرة 1366هـ، ص 51-52.

² جاء في رسالة الخليفة عثمان بن عفان إلى معاوية " ...ولا تنتخب الناس ولا تقرر بينهم بل خيرهم ، فمن أختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه." للمزيد راجع.

- غزوات ابن حبيش، وهو كتاب الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة أيام الخلفاء الأول الثلاثة. ج1، تحقيق، د. سهيل زكار دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1992. بيروت. ص 375.

³ Encyclopedia of Islam art, Milaha. web cd, ed, Brill Academic Publisher, 2003

⁴ ارشبالد، ل : القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط (500-1100م) مترجم ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 90

⁵ Edmond Boswoth : op cit ، p 247-8

- ارشبالد ل: المرجع اسابق، ص 90.

أو كارا للغزو والانقضاض على التخوم الإسلامية كلما واتتهم الفرصة. وقد استهل معاوية بداية نشاطه الحربي فيما وراء البحر بتسيير حملة بحرية على جزيرة قبرص القريبة من سواحل الشام سنة 28 هـ = 29 هـ / 628 = 629 م. ووافق التوفيق في هذه الحملة. " رغم أن المسلمين لم يسبق لهم أن ركبوا الحرب على بحر الروم قبلها"¹. فاستولى على الجزيرة في يسر وأصاب فيها غنائم كثيرة. كما صالح أهلها على جزية يدفعونها سنويا للمسلمين بمقدار اثنان وسبعون ألفا (72000) قطعة من الذهب.² "... ثم رسل ملك قبرص إلى معاوية يسأله الصلح والرجوع عنه إلى بلاد الإسلام، فأجابه معاوية إلى ذلك وأخذ منه ما أخذ. وكتب عليهم بذلك كتابا وميثاقا. أنهم لا يغدرون ولا ينقضون ذلك أبدا."³

وكان لفتح جزيرة قبرص على يد معاوية بن أبي سفيان أهمية كبرى في اتجاه مسار الحرب والمواجهة بين المسلمين والبيزنطيين في الحوض الشرقي للمتوسط. فمنذ أن أخضع المسلمون هذه الجزيرة، التي تعتبر حجر الزاوية في إستراتيجية أية دولة تريد بسط نفوذها على مياه حوض البحر المتوسط، لموقعها على الطريق التجاري الهام الذي يربط عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (القسطنطينية) بأقاليمها الغربية الغنية. بدأت قوة بيزنطة تتجه نحو التضعف والانهيار، ونفوذها إلى التقلص والانحسار.

وكنتيجة لذلك، فلم يمض وقت طويل على استيلاء المسلمين على جزيرة قبرص، حتى أمكنهم الحال من مواجهة الأسطول البيزنطي القوي، الذي كان يقوده الإمبراطور البيزنطي الشاب قنسطنطين الثاني Constantin II، خليفة هرقل بنفسه، وألحقوا به

¹ البلاذري: فتوح البلدان . ج1، القاهرة، 1901، ص 150 .

² البلاذري : نفسه، ص 160 .

Wiet G : l'Egypte Arabe . (Paris 1937) ، -، 23-25 p

- ارشيبالد. ل : المرجع السابق، ص 90.

³ الكوفي : كتاب الفتوح . ج2، دار الندوة الجديدة، ط1، بيروت. ص 119

هزيمة كبيرة في موقعة " ذات الصواري " سنة 34هـ / 655م *La Batailles des Mats* عند سواحل الأناضول (آسيا الصغرى).¹

ويعود تفوق الأسطول الإسلامي في هذه المعركة المصرية إلى خطة عبقرية اهتدى إليها المسلمون، بسبب نقص خبرتهم بالمعارك البحرية، حيث ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بحبال ليجعلوا منها حلبة قتال عائمة. ثم اصطف العساكر على جوانب المراكب وأخذوا يلقون بخطاطيف مشدودة بحبال طويلة على سفن العدو لسحبها إليهم لإجبارهم على المبارزة بالسيف، وهو الفن القتالي الوحيد الذي كان يجيده العرب المسلمون إلى ذلك العهد. الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للبيزنطيين. ونورد بهذا الصدد ما كتبه المؤرخ عبد الملك ابن حبيب: "...فاقتلوا قتالا شديدا أشد قتالا رئي قط ولم يكن في قتالهم رمي بسهم ولا طعن برمح ولا رمي بحجر، إلا الضرب بالسيف والطنع بالخنجر. وصبر الفريقان جميعا حتى كان الظفر للمسلمين فقطلوا من الروم ما لا يحصى..."² ونجى الإمبراطور قسطنطين، الذي أصيب بجروح بالغة من الموت بأعجوبة، بعد أن فر في سفينة من سفنه السريعة.³ "...وجرح قسطنطين ملك الروم جراحات كثيرة في رأسه وجسده فولى مدبرا منهزما في مركبه الذي كان فيه."⁴

ولقد ترتب على هذا الانتصار الإسلامي الحاسم أن شلت الفعاليات العسكرية البحرية البيزنطية، وأضحت العاصمة القسطنطينية، منذ ذلك الحين، عارية مكشوفة من غير حماية

¹ Canard, M: " les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans L'histoire et dans la légende " . in (*Journal Asiatique. New serie*) 1925-26 CCVII, p 63-67.

-Les Grandes dates de L'Islam. Librairie Larousse .(paris 1990) ,p15

- ابراهيم احمد العدوي : الأمويون و البيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية)، الدار القومية للطباعة والنشر. ط2، القاهرة، ص 100 وما بعدها.

² كتاب التاريخ، تحقيق، خورخي أغواي Jorge Aguade. معهد التعاون مع العالم العربي. مدريد. 1991. ص 113.

³ أرشيبالد، ل: المرجع السابق، ص92.

⁴ الكوفي : المصدر السابق، ج2، ص130.

مضمونة من جهة البحر. الشيء الذي شجع الأسطول الإسلامي إلى دخول بحر مرمرة ومضيق البسفور في عدة محاولات للاستيلاء عليها. وطال حصار المسلمون لها في إحدى المحاولات سبعة (7) أشهر. إلى أن استعمل البيزنطيون النار الإغريقية *Geek Fire* لإبعاد خطرهم.¹

وكم كان صدى هذه الحادثة (حادثة ذات الصواري) كبيرا، حيث استوقفت كثيرا من المؤرخين الغربيين الذين أجمعوا على اعتبارها من أكبر الحوادث في تاريخ البحر الأبيض المتوسط، لأنها وضعت حدا لتفوق الحضارة الرومانية الغربية وزعامتها على عالم البحر المتوسط لفترة طالت أكثر من ثمانية قرون. وبداية انتقال هذا العالم، مرة أخرى، إلى أحضان حضارة شرقية جديدة هي: الإسلام.²

وبالفعل فقد بات من المؤكد أنه منذ هذه الانتصار الباهر لم تعد هناك من قوة بحرية أو برية قادرة على عرقلة مسار حركة الفتح الإسلامي في حوض البحر المتوسط. وقيأت جميع الظروف أمام المسلمين لينتقلوا من نصر إلى نصر جاهدين في سبيل توسيع رقعة

¹ Albin Michel.1947. p63 ،Ed ،L. Brehier : Vie et mort de Byzance

² لقد خصص المؤرخ البلجيكي H.Pirenne في الثلاثينات لهذه الفكرة كتابا نال شهرة كبيرة عرض فيه فرضية أثارت جدلا عنيفا حولها.... إذ رأى أن القرن السابع الذي شهد الانتشار المفاجئ للإسلام في البحر المتوسط يعد بداية النهاية الحقيقية للحقبة القديمة في تاريخ البحر المتوسط حيث نسف العرب سلامة المواصلات في هذا البحر، وأحدثوا انقساماً نهائياً بين الشرق والغرب مما ترتب عنه انطواء الغرب على نفسه بعد أن منع من الاتصال مع الإمبراطورية البيزنطية، واستبدل اقتصاد الميرفنجيين البحري باقتصاد الكارولنجنين المحصور في أساسه في الأرض. وهكذا راجت هذه الفرضية التي تقول بأن الفتح العربي تسبب في غلق البحر المتوسط ، وأدى إلى شل التجارة البحرية. ولقيت هذه النظرية مع ذلك الرفض والتشكيك من طرف كثير المؤرخين . وللمزيد من الإطلاع على رأي المؤرخين حول هذه المسألة، راجع:

- H.Pirenne : Mohamed et Charlemagne ،2 ed ،(paris 1937) .p 70 -102.

- Moss ،H.S : "the Economic consequences of the Barbarian Invasion " ،(E.H.R) ؛vol ،VII ، (1936 -37) ،p 109 -217.

- Lopes ،R.S : "Mohamed and Charlemagne ،A Revisio " ،(Speculum) .XVII- 1943 .

- جراهام، أي، فولر، و إيان أو، ليسر : الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة مترجم، ط1 القاهرة، 1997، ص 26.

الإسلام. فدخلت في حظيرة الدولة الإسلامية تباعا كل من بلاد المغرب وشمال إفريقيا وصقلية وجنوب إيطاليا وأجزاء من جنوب فرنسا، فضلا عن الجزر المنتشرة على طول مياه البحر المتوسط. (قبرص ورودس وكريت ومالطا وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار). وانتقلت على إثر ذلك السيادة الكاملة في مياه البحر الأبيض المتوسط وعلى أطرافه إلى أيدي المسلمين. وصار هذا البحر، الذي كان يعرف في الماضي ببحر الروم، بحيرة إسلامية. ولم يعد باستطاعة الروم ولا الفرنجة إن يمحروا عبابه ولو على ظهر خشبة. أو على حسب دقة تعبير العلامة ابن خلدون في هذا الصدد. "... وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامه، فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردينية وصقلية وقورصة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج..... والمحازات أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه، ومن سواحل الفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا، واختلفت في طرقه سلما وحربا، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح.¹

على أن ما يجب الإشارة إليه. أن أثر الفتوح الإسلامية في البحر المتوسط في القرنين السابع والثامن قد مهدت السبيل أمام المسلمين إلى إقامة إمبراطورية واسعة امتد مجاها الجغرافي من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي. ونهيات لهم الظروف لإنشاء نظاما

¹ ابن خلدون : المقدمة. تحقيق درويش الجويدي . المكتبة العصرية . صيدا

بيروت. ط2 . 1996 ص233.

- أما عن غزوات المسلمين في إيطاليا وفرنسا وجزائر المتوسط. راجع :

- شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

منشورات مكتبة دار الحياة، 1995، ص95 وما بعدها.

اقتصاديا موحدا في كامل البلاد التي فتحوها، استمد قوته من احتكار منابع إنتاج المواد الأولية وطرق توصيلها إلى مراكز الاستهلاك الكبرى في حوض البحر المتوسط. هذا زيادة على أن الأقاليم التي خضعت لسيادة المسلمين ظلت، حتى ذلك العهد، أهم الأقاليم في العالم تطورا من الناحية الاقتصادية بإنتاجها الزراعي والصناعي والمعدني، وخصوصا بتنظيمها التجاري. الشيء الذي هيا للمسلمين، منذ القرن الثامن الميلادي، بفضل سيطرتهم التامة على تلك المناطق، من أن يتبوءوا مكانة السيادة الاقتصادية في الشرق والغرب على حد سواء، ومكنهم وضعهم المتفوق من سك نقود ذهبية قوية احتلت الصدارة كعملة مرجعية في أسواق المداوالت.¹

وكان الذي هيا السبل أمام المسلمين لإحراز السيادة الكاملة على مياه حوض البحر المتوسط خلال مرحلة العصور الوسطى الباكرة. الدولة الفاطمية، التي تأسست في بلاد المغرب مع مطلع القرن العاشر الميلادي (سنة 909م). إذ أظهر الفاطميون، منذ البداية، رغبتهم في إقامة إمبراطورية تتسع إلى كل الربع التي أطالتها حركة الفتح واستوطنها المسلمون. ولأجل ذلك رأوا أن يتجهوا بعاصمتهم إلى البحر فكانت "المهدية" أول عاصمة إسلامية تقام على البحر.

وليس إلى الشك سبيل في أن الفاطميين كانوا يقدرّون أهمية البحر المتوسط في توفير الشروط الاقتصادية والعسكرية التي تحتاج إليها دولة فتية تطمح لأن تكون إمبراطورية عظمى في المستقبل. واضعين في الحسبان الظروف التي أحاطت بالدولة البيزنطية عند قيامها. فلقد استطاعت الدولة البيزنطية في رأيهم، بعد أفول نجم روما، من خلال عاصمتها (القسطنطينية)، التي تقع على البحر، أن تفرض نفسها وتسترد في وقت قصير، جميع الأراضي التي خسرتها الإمبراطورية الرومانية أثناء الاجتياح الجرمانى. كما مكنها موقعها على البحر من استعادة السيطرة على جميع الأراضي المطلة على البحر المتوسط. و أن تأسس، في زمن قياسي، إمبراطورية مترامية الأطراف بواسطة أسطول قوى

¹ M. Lombard : " L'or Musulman du VII^e au XI^e s " . (Annales D'histoire économique et sociale) 1947- II , p 164-6.

ربط العاصمة القسطنطينية بشواطئ إسبانيا وشمال إفريقيا وغرب آسيا. فضلا عن الجزر العديدة التي شكلت قواعد ومحطات بحرية لذلك الأسطول. وعلى هذا الأساس كان اختيار الفاطميين بأن تكون عاصمة دولتهم على البحر يدخل في إطار سياسة إستراتيجية طموحة تهدف إلى جعلها قاعدة عسكرية تنطلق منها جيوشهم للسيطرة على طرق التجارة في البحر المتوسط كخطوة أولى في حركة التوسع الشيعي المبرمجة صوب الشرق، إلى أن يتم إنشاء إمبراطورية إسلامية شيعية تمتد حدودها من الهند إلى إسبانيا¹.

ونظرا لما كان يدور في خلد عبيد الله المهدي في أن يباشر سياسة توسعية على كل البلاد المطلة على حوض البحر المتوسط، فقد أولى عناية فائقة بعاصمة الجديدة *المهدية*. فأختار لها موقعا حصينا على الساحل الشرقي لأفريقية، وهياً لها ميناء كبيرا ودار لصناعة السفن تسع مائة شني² وكان لإنشاء دار الصناعة هذه أعظم الأثر في تدعيم أسطول الفاطميين بأفريقية. بحيث أضحت المهدية، منذ ذلك الحين، قاعدة للفتوحات فيما وراء البحر. إذ نجح المهدي في أول خطوة له في ميدان التوسع بفضل أسطوله الضخم من إخضاع جزيرة صقلية لسيطرته وفرض عليها إتباع مذهب³. وترتب عن ذلك أن صار إرسال الإمدادات إلى الحاميات الإسلامية المرابطة في جنوب إيطاليا أكثر سهولة من ذي قبل. كما سير حفيده أبو لقاسم أسطولا على

¹ في إطار هذه الإستراتيجية التوسعية، أخذ الفاطميون، بعد أن قويت شكوكهم، في التوسع صوب الشرق، فاحتلوا مصر وانتزعوها من الأخشيديين الموالين للخلافة العباسية. ثم توسعوا بعد ذلك على أملاك العباسيين في بلاد الشام. وربما في هذا الإطار كذلك اتفقت مصالح الفواطم مع البويهيون على تنسيق أعمالهم للإجهاد على الخلافة العباسية السنية. للمزيد، راجع :

كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، مترجم، بيروت، 1983، ص 179-80

² مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ص 117

- ياقوت الحموي : معجم البلدان، مجلد5، دار صادر بيروت، ص 230

- ليون الإفريقي : وصف إفريقيا، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص 85.

- التيجاني : رحلة التيجاني . تحقيق حسن عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ، تونس 1958 ص 322-3

- إسماعيل العربي : عواصم بني زيري، ملوك أشير - القلعة - بجاية - غرناطة - المهدية، دار الراشد العربي، بيروت، ص

110.

³ ابن الأثير: الكامل في التاريخ . طبعة بولاق، ج6، ص 182

- ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب، ج1، طبعة بيروت، 1950 ص 190

ممتلكات بيزنطة بإقليم جنوب إيطاليا وافتتح مواقع فيها، حتى أضطر البيزنطيون إلى طلب الصلح. وفي سنة 935م توغل الأسطول الفاطمي إلى مياه البحر التيراني وغزا بلاد الإفرنج وأثخن في جزر سردينيا وكورسيكا، ونازل مدينة جنوه وأحرق سفنها.¹

ونتيجة عن سيطرة حكام المهديّة على البحر المتوسط أن تحكموا في الطريق التجاري البحري الواصل بين مصر وإيطاليا وبين أوروبا والمغرب. كما تمكنوا، في الوقت ذاته، من التحكم في جميع الطرق المؤدية إلى بلاد السودان، بعد أن قضوا على إمارة الخوارج الرستميين بتهرت.² واحتلالهم سجلماسة عاصمة الخوارج الصفرية.³ وأصبحوا بذلك سادة طرق الذهب السوداني عبر الصحراء من غير منافس.⁴ وحققوا النفوذ الذي كانوا يطمحون إليه ببلاد المغرب. وغدت المهديّة قاعدة للفتوحات في شمال إفريقيا وواحدة من أكبر المراكز التجارية أهمية في حجم المبادلات ومقصد التجار من جميع الأقطار، حيث صدرت القمح والزيت والعاج والذهب والرقيق الأسود إلى المشرق وأوروبا.⁵ وفي ذلك شهادة للإدريسي: "...والبضائع إليها مجلوبة من سائر البلاد والأقطار..."⁶. وجمع الحكام العبيديون ثروات طائلة من رواء هذه التجارة استعملوها في تمويل مشاريعهم الموجهة لفتح مصر وبلاد الشام.

¹ ميشال أماري : المكتبة العربية الصقلية . طبعة Leipzig، 1875 ص 258 .

- أرشبالد. ل : المرجع السابق. ص 242 - 3.

- De Mas latrie : Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec Les chrétiens au Moyen-âges. (Paris 1959) ، p12 .

- Salvatore Bono : Les Corsaires en Méditerranée. p15 .

² ابن عذاري : ج1، ص 153.

³ مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار . ص 204

- ابن عذاري : ج1، ص 157

⁴ M. Lombard : op cit ، p 154-5

⁵ أرشبالد. ل : المرجع السابق، ص 253.

⁶ (62)-الإدريسي : المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق. ديوان المطبوعات الجامعية

الجزائر 3، 198 ص 143.

● البحر للروم مرة أخرى

شهدت الخمسون سنة الأخيرة من القرن الحادي عشر بداية انهيار قوة المسلمين البحرية، تلك القوة التي طالما تحكمت في مياه المتوسط لقرون عديدة. بحيث ما أن اشرف القرن الحادي عشر للميلاد على نهايته حتى صار الأورييون الغربيون سادة مياه البحر المتوسط وجزره، وطالت السيطرة الأوربية، كذلك، أجزاء من الأقاليم البرية في الشام وفلسطين والأندلس وبلاد المغرب. كما تحكموا، إلى جانب ذلك، في طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب.¹

ونظرا لخطورة هذا التحول في الأوضاع بعالم البحر الأبيض المتوسط، فإنه من الأهمية بمكان البحث في أسباب الوهن الذي أصاب المسلمون في المغرب والشرق، وافقدهم السيادة على مياه المتوسط إلى يومنا هذا. فيما عدا مرحلة قصيرة من القرن السادس عشر آلت السيطرة فيه للعثمانيين.²

فأما بالمغرب. فإن علامات التدهور والانحطاط قد بدأت تطفو على السطح منذ أن قرر الفاطميون نقل عاصمة دولتهم من إفريقية إلى مصر سنة 969م. ذلك أن الشيعة الفاطميين عندما بادروا بالانتقال إلى مصر، عمدوا إلى تقسيم ممتلكاتهم بالمغرب إلى عدة ولايات بهدف منع محاولات التمرد والاستقلال. فعهدوا بولاية إفريقية والمغرب الأوسط إلى قبيلة صنهاجة البربرية. أما جزيرة صقلية بالبر الأوربي فقد أوكلوا شئونها لأسرة الكلبيين المواليين لمذهبهم. في حين جعلوا مقاطعة طرابلس خارجة عن نفوذ بني زيري وعينوا عليها أحد أشرف قبيلة كتامة المخلصين.

¹ - أكثر من أشار إلى هذه المرحلة التي عرفت انقلابا في الأوضاع بالبحر المتوسط

المؤرخ الكبير. دي ماسلاترى. راجع

- De Mas latrie : Les relations-.... p 13-15.

² Braudel .F : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II . ed Armand Colin ,T2 ,p396-415

ومنذ البداية لم يتفق للإمارات المغربية الناشئة ما اتفق للفاطميين قبلهم من العزة والنفوذ. لأن الفاطميين عندما هاجروا بلاد المغرب أخذوا معهم أسطولهم البحري.¹ ولقد ترك هذا التصرف آثاره الوخيمة على المنطقة. إذ عجزت الدويلات المغاربية، في أكثر من مرة، التصدي لهجمات أساطيل المدن الإيطالية البحرية جنوه وبيزه، وكذلك نورماند صقلية .

وعلى حين تجرى ببلاد المغرب وقائع هذه الأحداث الكارثية. إذ ببلاد الأندلس، الذي كان عزيز الجانب حتى نهاية القرن العاشر، يتلى، هو الآخر، بآفة التفكك والانهيار عقب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، فاضمحت السلطة السياسية من بعدها، وعمت الفوضى أنحاء البلاد، عندما اقتسم أرجاء الأندلس عددا من الأمراء المغامرون والملوك الصغار.² وازدادت الأوضاع انهيارا حين أخذ هؤلاء الحكام المختلفون فيما بينهم يوجهون أساطيلهم وجيوشهم لخاربة بعضهم البعض، وذهب التهور والخذلان ببعض أمراء الطوائف هؤلاء إلى خيانة دينهم ووطنهم، باللجوء إلى طلب عون الأمم المسيحية لمقاتلة أبناء ملتهم.³ فكان لهذه الحال التي أمست فيها

¹ أرشيبالد، ل : المرجع السابق ، ص 312.

² كتب مؤرخ الأندلس المميز. لسان الدين ابن الخطيب، يصور الحالة التي آلت إليها بلاد الأندلس على عهد ملوك الطوائف:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر	وذهب العين جميعا والأثر
قام بكل بقعة عليك	وصاح فوق كل غصن ديك
وكثر العادي بها والخائف	واقسمت أقطارها الطوائف

- للمزيد راجع كتابه : شرح رقم الخلل في نظم الدول، أعده للطبع وعلق عليه، د عدنان درويس، دمشق 1990. ص 166.

³ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد

عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع. . 1994. ص 75-78

- المقرئ التلمساني: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج1،

منشورات وزارة الثقافة. دمشق، 1990م، ص 438

- E.G.Gomez : "L'Espagne Mauresque L'age d'or de Cordoue et de Bordes , L'islam d'hier à aujourd'hui. Ed ,Grenade. » in

p 267. (Paris 1981)

القوى الإسلامية في الأندلس بداية العد التنازلي لنهاية سيادة المسلمين على أرض الجزيرة وبحارها.

أما على مستوى الجبهة الإسلامية في الشرق. فلم تكن الأوضاع بأحسن حال من الأوضاع التي سادت بالجبهة الغربية. فالخلافة العباسية في بغداد قد بدأت تفقد قوتها وهيبتها منذ نهاية القرن التاسع للميلاد، بسبب إفراط الخلفاء في تجنيد العناصر الأجنبية في الجيش والحرس¹. ولما كان هؤلاء الجند الغرباء ليس لديهم مفهوم واضح عن المثل العليا للخلافة الإسلامية. فقد استهوهم بسرعة إغراءات المناصب في أجهزة الدولة، ودفعت بهم رغبة التملك والسيطرة إلى الاستحواذ على زمام السلطة في بغداد. ثم ما لبث كبار القادة ورؤساء الجند (الأتابك)، الذين منحت لهم مسؤولية التصرف في شئون المقاطعات، يطالبون بدورهم بقيادة مستقلة شاملة على مقاطعتهم، ويتصرفون على هواهم في أموال الولايات ومواردها². وعلى هذا النحو قسمت أملاك الدولة الإسلامية في المشرق إلى إقطاعيات وأخذت تنفصل تدريجياً عن دار الخلافة في بغداد. إلى أن استقل كل أمير بولايته. وانتهى الأمر في الأخير بخروج السلطة من أيدي الخلفاء إلى رؤساء الجند هؤلاء³.

وعلى غرار ما حدث مع خلفاء بغداد السنيون، لم يفلح خلفاء القاهرة الشيعيون، من جهتهم، في فرض النظام والطاعة. فاستعانوا هم، كذلك، لتدبير شئون الحكم والإدارة بعناصر أجنبية من البربر والأتراك والأرمن، مما فتح الباب على مصراعيه أمام المنازعات بين طوائف الجند للاستئثار بالنفوذ. ووصل التنافس بين هؤلاء الجند إلى

¹ ابن القلانسي : تاريخ ذيل دمشق . بيروت 1905 ص 94-96.

² كلور كاهن : المرجع السابق، ص 169.

³ عن مختلف الأسر التي تقاسمت أملاك الخلافة العباسية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، راجع

- C.Cahen : leçons d'histoire Musulmane (VII-XIS), vol III, (centre de

Documentation universitaire) , paris V , 1961-p13-15

- C.E.Bosworth : the Islamic dynasties . (Edimburg 1967) .p35-46.

حرب داخلية شقيت مصر بها لمدة طويلة.¹ ثم عظمت الحن والمتاعب على الدولة الفاطمية عندما أخذ أمراء السلاجقة السنيون يوسعون نفوذهم على حساب ممتلكاتها في بلاد الشام وفلسطين. فانتزعوا منها أهم الأقاليم: دمشق والقدس. وسوف يؤدي النزاع بين الجبهتين السنية والشيعة إلى مزيد من العداء والفرقة والتخاذل بين أبناء الأمة الإسلامية. إلى أن بدأت الأمم النصرانية في أوربا تستشعر بسريان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الإسلامية. فنهضت تستجمع صفوفها وتحشد قواتها لاسترجاع ما كانت تدعيه أملاكها. فانقضوا على فتوحات المسلمين في البحر فاسترجعوها كلها. ثم انقلبوا على أملاك المسلمين في البر وسطوا على بعض من أجزاءها. إلى أن قامت الحروب الصليبية، مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، فتحركت جموع الصليبيين باتجاه الشرق، واستولت على أجزاء من فلسطين وبلاد الشام. والرحالة ابن حوقل، الذي كان يتنقل بين الشرق والغرب خلال تلك الفترة العصيبة، شاهد على هذا التحول الخطير في الأوضاع بالعالم الإسلامي. فكتب يصور هزائم المسلمين أمام الروم المسيحيين، ويدقق في أسباب هذه الهزائم قائلا: "...وقد ألح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر، فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب ويأخذونها من كل جهة ولا غياث ولا ناصر، ومن المسلمين بناظر، والمملك فيهم هامل شاغر، والمملك جماع مناع، والعالم يسرق ولا يشبع، ويفتي بالباطل على ما ييلع، ولا يخاف معادا ولا مرجعا، والفقيه ذئب أدرع في كل بلية يشرع، وبكل ريح يسري ويقلع، والتاجر فاجر مسقع، لا يعاف حراما ولا مطمعا، والديار والأعشار بيد الأعداء متسلمة، والأملاك مغتصبة مصطلمة، ولأرض من أربابها إلى الله متظلمة..."² أما المؤرخ العلامة ابن الأثير، الذي عاصر هو الآخر هذه الحن التي ألت بالعالم الإسلامي. فلشدة تدمره مما لحق المسلمين من هزائم

¹ Wiet. G: L' Egypte Arabe . p 238-40.

² ابن حوقل: صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة، 1992. ص 185-6

على يد الفرنجة. شخص تلك الحالة في جملة قصيرة معبرة لا تحتاج لأي تعليق: "...
واختلف السلاطين فتمكن الفرنجة من البلاد".¹

وكان أول من استفاد من ظروف الفوضى والضعف والانحلال التي أحاطت بديار الإسلام.
مدن الساحل الايطالي، وفي مقدمتها جنوه وبيزه والبندقية. حيث اتفقت مصالح هذه المدن
الجمهورية البحرية على التعاون فيما بينها وبتحريض من البابوية للانطلاق في حركة هجوم
مضاد لطرد المسلمين من مواقعهم المتقدمة في بعض الجزر والثغور. وكان أول الثغور القريبة
من البر الايطالي التي شرع في استرجاعها: جزيرة سردينيا، الواقعة قبالة الساحل الشمالي
للبحر التيراني وذلك سنة 1016م.² ثم توسعت حركة الاسترداد المسيحية التي كانت تشرف
عليها وتباركها البابوية، بعد ذلك، بالانقضاء على جزيرة صقلية. منذ أن اخذ النورماند،
ابتداء من سنة 1060م، يوجهون غاراتهم بالتنسيق مع بعض المدن الايطالية على التخوم
الشمالية للجزيرة.³ وفي ظل غياب أبسط مقاومة من جانب المسلمين الصقليين، بسبب
خلافاتهم التي وصلت إلى حد لا يطاق.⁴ تمكن النورمانديون من التوغل بسهولة إلى داخل
الجزيرة وشرعوا يتعقبون المسلمون ويفتكون منهم المدن، مدينة اثر مدينة، إلى أن ملكوا
الجزيرة بأسرها.⁵

ثم توالى، انتصارات أهل الغرب المسيحي على المسلمين في البحر والبر إلى أن
بلغت مداها سنتي 1085م و 1087م، ففي السنة الأولى تمكن ألفونسو السادس ملك
قشتالة، بالتعاون مع الإقطاعية الفرنسية من هزيمة المسلمين في الأندلس والتوغل إلى

¹ ابن الأثير : ج8، ص189.

² Dove : De sardinia insula. (Berlin 1866). p 50-63.

³ Delarc : Histoire des Normands en Italie depuis les premiers Invasions jusqu'à l'avènement
de Grégoire VII. (paris 1883) p 116-8.

⁴ ابن حوقل: المصدر السابق. ص 115.

⁵ Amari ،M : Storia..... ،Vol III ،p 235.

- Haskim C.H : The Norman in European History. (Boston 1962) -p 109.

داخل ديار الإسلام بالجزيرة وانتزع مدينة طليطلة بكل سهولة.¹ وكان لسقوط هذه المدينة في أيدي ألفونسو نصرا كبيرا لعامة الشعب الإسباني لمكانتها في قلوبهم الأسبان. فقد كانت طليطلة قبل أن يفتحها المسلمون عاصمة مملكة القوط الغربيون (الفيزيقوط)، لذلك كان استرجاعها بمثابة إشارة قوية عن بداية طرد المسلمين من الجزيرة بكاملها، وعودة ملك القوط القديم. وفي السنة الثانية (1087م) بلغت الجراءة بقوات جنوه وبيزه مجتمعة، ومعهما فرقا من المرتزقة، أمدهما بما رئيس الكنيسة الكاثوليكية في روما، البابا فيكتور الثالث.² وصل تعدادها 400 سفينة.³ أن هاجمت مدينة المهديّة عاصمة مملكة بني زيري على ساحل إفريقية، وتمكنت هذه القوات الصليبية من الاستيلاء عليها والعبث فيها. ولم تغادرها إلا بعد أن تعهد حاكمها الأمير تميم بن المعز، بدفع مبالغ مالية كبيرة، والامتناع عن التعرض للسفن المسيحية بالمياه الإفريقية.⁴

ولقد استوقف هذا الانقلاب المفاجئ في الأوضاع بالخوض الغربي للمتوسط المؤرخ المغربي ابن خلدون. فكتب يصور هذه الحال قائلا: " وقويت شوكة الصليبيين في غرب هذا البحر وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلا من أهل البلاد الساحلية".⁵ كما لم تمر حالة الانقلاب في الأوضاع هذه التي عرفتها منطقة حوض البحر المتوسط

¹ الذهبي : كتاب دول الإسلام، ج2، إدارة إحياء التراث. قطر 1988. ص8.

- Franco .Cardini: Europe et Islam. Histoire d'un malentendu. Ed ,Seuil. 2002. p67.

- E.G. Gomez : op cit ، p 267.

- ع. عنان : المرجع السابق، ص 292

² (79)- ابن الأثر : ج 8، ص 147.

-ابن عذاري : ج، ص 422.

-التيحاني : الرحلة ، ص 332 .

³ R. Idris : la Berbérie orientale sous les Zirides . T1 ، (paris 1962)

p288

⁴ De Mas latrie، : op. Cit. p 55

⁵ ابن خلدون : المصدر السابق ، ص 234.

منذ نهاية القرن الحادي عشر، وما صاحبها من تفوق ظاهر للأمم الأوروبية، من دون أن تستوقف، كذلك، مؤرخي الغرب المسيحي، الذين راحوا يسجلون بكل فخر واعتزاز عودة السيادة الأوروبية المسيحية على مياه البحر المتوسط. ونورد في هذا السياق تعليقا مثيرا لأحد الإخباريين القاطلونين المعاصرين للقرن الثالث عشر الميلادي جاء فيه: "... والآن لم يعد بمقدور أية سفينة أو حتى سمكة المغامرة في مياه البحر المتوسط من دون أخذ موافقة بالمرور من ملك أراغونة".¹

ومنذ هذا التاريخ بدأ العد التنازلي لهزائم المسلمين أمام جيوش المسيحية الموحدة إلى أن كللت تلك الهزائم بفقدان المسلمين أهم المقدسات الدينية في فلسطين. مدينة القدس الشريف سنة 1099م. وانتهى الأمر في الأخير إلى انتصار أساطيل غرب أوربا على مياه المتوسط من شرقه إلى غربه، وبسطوا سيطرتهم على المسالك المؤدية بين أجزائه، كما انتقلت التجارة العالمية التي كانت ممرزة بموانئ هذا البحر إلى أيديهم، وصارت السفن التي تجوب مياه هذا البحر منذئذ تؤدي لهم الإتاوات. كما كان عليه الحال زمن الإمبراطورية الرومانية. ولعل أبلغ صورة عن هول ما لحق المسلمين من ضعف ومذلة جراء هذا التبدل في الأوضاع بالبحر المتوسط، قول الشاعر الصقلي أبي العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي.²

لا تعجب لرأسي كيف شاب أسي ** وأعجب لأسود عين كيف لم يشب

البحر للروم لا يجري السفين به ** إلا على الغرر و البر للعرب

¹ Dufourcq , E : La vie quotidienne dans les ports Méditerranéens au Moyen-Âge. Ed, Hachette, (paris 1975) ,p100.

² إمارى ميشال : المكتبة العربية الصقلية، ص 628-629.

لقد ترتب عن انتقال السيادة على مياه البحر الأبيض المتوسط إلى الأمم الغربية من جديد عودة الانتعاش الاقتصادي لدول وأقاليم غرب أوروبا، وعم الثراء المدن الساحلية وبخاصة الإيطالية منها، التي صارت تحتكر لوحدها عملية نقل البضائع والسلع من موانئ البحر المتوسط بأسرها¹. ولقد استمر الوضع على هذه الحال إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي عندما توصل البرتغاليون والأسبان إلى اكتشاف طرق وعوالم جديدة (طريق رأس الرجاء الصالح — قارة أمريكا). فكان لهذين الحدثين بالغ الأثر على تجارة البحر المتوسط التي بدأت تتدهور منذ ذلك الوقت. أي منذ أن أخذ مركز التجارة العالمية يتحول تدريجياً من منطقة حوض البحر المتوسط إلى المحيطين الهندي والأطلسي. فقد نتج عن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على يد الملاح البرتغالي "فاسكوداغاما" 1498م. أن أخذت تجارة الشرق الأقصى وإفريقية وأرباحها الهائلة تتحول من مصر والشام وموانئهما إلى أوروبا مباشرة، عبر الطريق البحري الجديد الذي صار يعبر المحيط الأطلسي². كما نتج عن اكتشاف القارة الأمريكية الغنية بمختلف أنواع المعادن والبضائع الثمينة، أن أخذت هذه المعادن تتجه صوب بلدان الساحل الأوربي الأطلسي، البرتغال وإسبانيا. ثم فيما بعد إلى فرنسا وهولندا وإنجلترا. وساهمت في انتعاش هذه الأمم ورفعتها إلى مكان الصدارة، في الوقت الذي أخذت فيه أمم البحر المتوسط وعلى رأسها الدول الإسلامية، التي تعودت العيش من عائدات التجارة الشرقية، تضمحل من جراء هذا التحول³. ثم جاءت أخيراً الثورة الصناعية وما واکبها من اختراعات جديدة في ميدان الصناعة ووسائل النقل، فتغيرت بسبب ذلك أساليب الأمم في السعي للحصول على النفوذ والسيطرة. بحيث صارت الأمم المتفوقة صاحبة السيادة، ليست تلك التي تبسط سيطرتها على رقعة جغرافية معينة. إنما الأمة القوية الغالبة هي التي تملك إمكانيات متطورة في ميدان العلم والتصنيع. كأمريكا واليابان وألمانيا وغيره.

¹ هايد، ف : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى. مترجم، ج1، ص 146- وما بعدها

² ن.م. هولت: صانعو أوروبا الحديثة. مترجم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1980. ص 31-32. -Braudel.F: La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, T2, P105-6

³ هايد. ف : المرجع السابق، ج4، ص 21-22.

مسيرة الأستاذ الدكتور
موسى لقبال
بالصور



صورة لقبال وهو عضو في
فرع الطلبة الجزائريين
بالقاهرة 1958



صورة للقبال أثناء تأدية
درس التحصيل في الزيتونة
بتونس 1975.



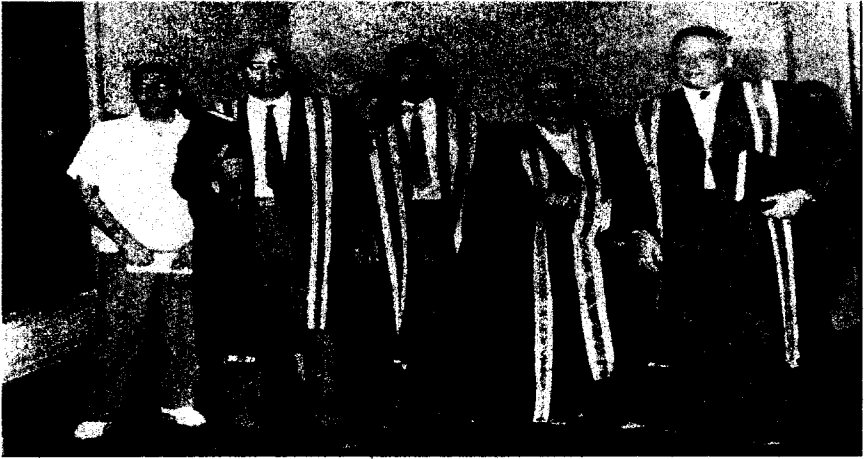
تلميذ في مدرسة بريكة.



صورة لقبال وهو يستلم جائزة
الدولة التونسية لتفوقه كأول.



صورة لقبال وهو يلقي ملخص رسالة
الماجستير في جامعة عين شمس بالقاهرة



صورة لقبال كعضو في لجنة المناقشة: أ.د. شعيرة، ود. حسن
حسني د. سعيد عاشوري مسجل الكلية (عين مس) 1968.



صورة لقبال كعضو في لجنة مناقشة الدكتوراه: د. عبد المنعم
ماجد ود. سعيد عاشوري ود. سعد زغلول 1972.



صورة لقبال كضيف في حفل الشيراتون بالقاهرة أقامه إبراهيم
مزهودي، سفير الجزائر بمصر 1971 ويظهر فيها د. يحيى هويدي
عميد كلية القاهرة ود. عبد الله التركي وثوار جدواني.



صورة لقبال كعضو في لجنة مناقشة ماجستير في غرب إفريقيا لأحد طلبتي
2005 بصفتي مشرفا ومقررا.



مناقشة دبلوم دراسات معمقة للطلبة رشيدة سليمان ويظهر فيها: د. رشيد
بوروبة ود. حاجيات 1979.



صورة في ملتقى بالمهدية، تونس حول القاضي النعمان 1976



صورة مناقشة بوزيان الدراجي في رسالة الماجستير حول العصبية 1975
ويظهر فيها د. دهيثة، ود. بالخميسي، ود. بن اعميرة وأ. بشار.



صورة لقبال وهو يلقي كلمة في ملتقى المهديّة بتونس.



صورة لقبال وهو يرد على بعض استفسارات أعضاء لجنة
مناقشة الدكتوراه 1972 - عين شمس -



صورة تذكارية في مقر فرع الطلبة الجزائريين بالقاهرة بمناسبة العيد
بحضور إبراهيم مزهودي سفير الجزائر بالقاهرة 1971.



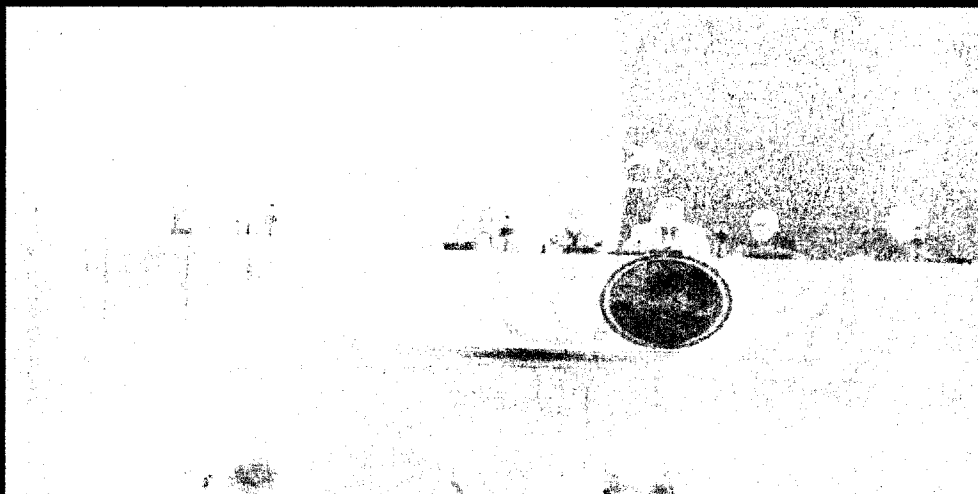
صورة لقبال وهو يلقي كلمة ابن أبي الضياف في المركز الثقافي التونسي
طرابلس المغرب 1975م ويظهر في الصورة: د. الجنحاتي، وأ.روه وأ.
عبد الله بعيو، مؤرخ ليبيا.



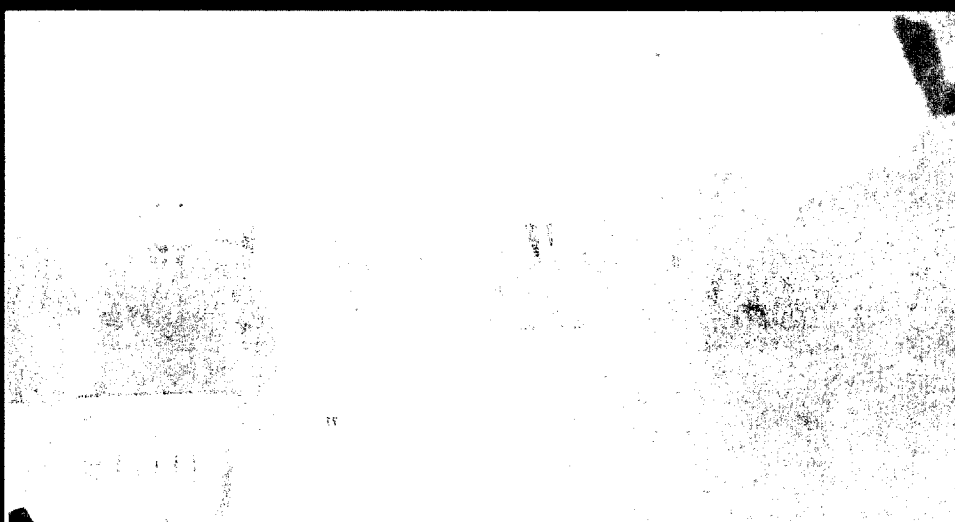
صورة تذكارية بمناسبة ليلة إيقاف القتال في عاصمة تونس ويظهر
بجاتبي، أحمد الدحيلي قاتم مقام السفير السابق للجزائر بمصر والسودان.



مناقشة الطالب صالح السماوي مناقشة الطالب صالح السماوي في
رسالة العزاية في ميزاب 1987م.



صورة مناقشة د. إسماعيل سامعي في جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية قسنطينة ويظهر فيها أ.د/ عبد الله بوخلخال كرئيس.



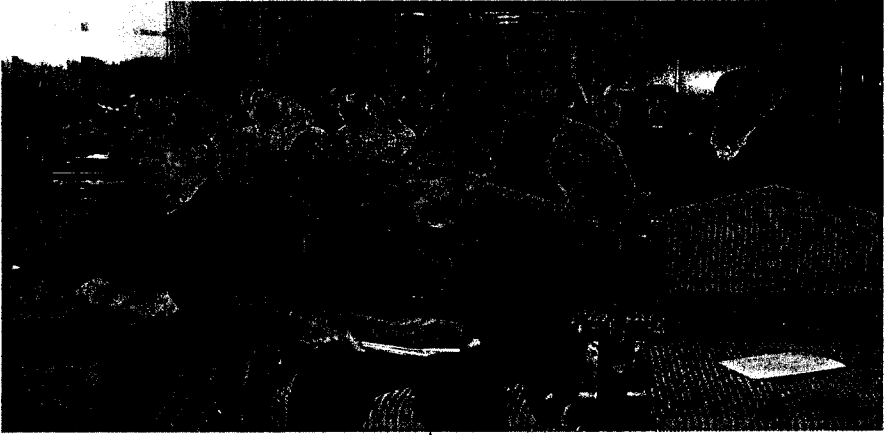
صورة تنكارية عن محاضرة ألقاها لقبال في طفراوي بوهران ليلة
القدر ويظهر فيها اللواء حسين ابن معلم قائد الناحية العسكرية الثانية.



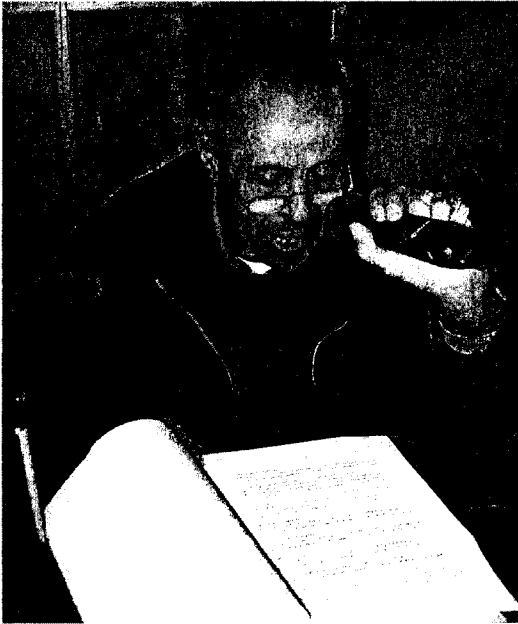
↑
صورة عن مناقشة الدكتوراه في آداب عين شمس 1972، أمام لجنة مناقشة: أ.د. عبد المنعم ماجد، وأ.د. سعيد عاشور.



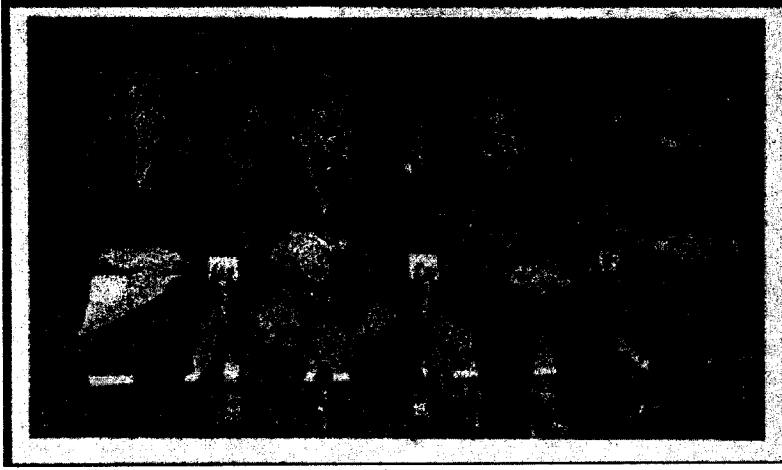
↑
صورة تذكارية بمناسبة ملتقى عقبة ابن نافع في بكرة ويظهر فيها د. بلغيث محمد الأمين.



أ.د. موسى لقبال في ندوة كتابة تاريخ الجزائر. جامعة الأمير عبد القادر
يوم 26 نوفمبر 2007م.



أ.د. موسى لقبال في ندوة كتابة تاريخ الجزائر. جامعة الأمير عبد القادر
يوم 26 نوفمبر 2007م.



أ.د. موسى لقبال في ملتقى ندوة واقع وآفاق الدراسات العليا بجامعة
الأمير عبد القادر يومي 15 و 16 جانفي 2007.

الفهرس

9 كلمة مديرة المخبر

أ.د بوبة مجاني

11 تقديم همسة وفاء للأستاذ موسى لقبال وتلاميذه

أ.د عبد الله بوخلخال

15 كلمة لمسيرة سبعين سنة الأستاذ الدكتور/ موسى لقبال

أ.د موسى لقبال

المحور الأول تحية وتقدير بفضل العلماء

31 تحية تقدير

د. عبد العزيز فيلاي

35 الاعتراف بفضائل العلماء مكرمة

أ.د./ محمد الصغير غانم

37 أستاذ الأساتذة الدكتور موسى لقبال

د. بوزياني الدراجي

المحور الثاني : قراءات في آثار الأستاذ الدكتور موسى لقبال

55 مصادر الكتابة التاريخية عند الأستاذ الدكتور موسى لقبال - كتب الحسبة أغوذجا-

أ.شخوم سعدي

- 63 تقديم كتاب "عقبة بن نافع" للأستاذ الدكتور موسى لقبال
- د. محمد بن عميرة
- 77 آراء وأفكار مستخلصة من مقالات الأستاذ الدكتور: موسى لقبال
- أ. موسى هيصام
- 97 بذور التشيع، وإمارات العلويين ببلاد المغرب من خلال دور كتابة/أ.د موسى لقبال
- د. إسماعيل سامعي
- 109 مدخل عن المذهبية في فكر الأستاذ الدكتور موسى لقبال
- د. إبراهيم بكير بحاز
- 117 جهود الدكتور موسى لقبال في الارتقاء بالبحث العلمي بجامعة الجزائر
- أ.عبد القادر بوعقادة
- المحور الثالث: أثر المغاربة في التفاعل الحضاري
- 133 دور المغاربة في تحرير بيت المقدس من الصليبيين
- د/ بوبة مجاني
- 145 الزاوية الملارية تأثير شيوخها الروحي والديني على الدولة والمجتمع
- د. عبد العزيز فيلاي
- 161 الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة
- د. محمد الأمين بلغيث
- 177 المذهب المالكي في الغرب الإسلامي من خلال دراسة جديدة
- د. علاوة عمارة

193	 الملك سيفاقس والكيان العسكري النوميدي
	أ.د. محمد الصغير غانم
207	 دور الشيخ العلامة أحمد العبيدي في الجهاد العلمي
	أ.عاشوري قمعون
	أهمية البحر الأبيض المتوسط في إستراتيجية الصراع بين الشرق والغرب منذ العهود
247	 القديمة إلى نهاية العصر الوسطى
	د. رشيد باقة
275	 خاتمة
279	 مسيرة الأستاذ الدكتور موسى لقبال بالصور
291	 الفهرس

ISBN 9961 948 24 8



9 789961 948248

